

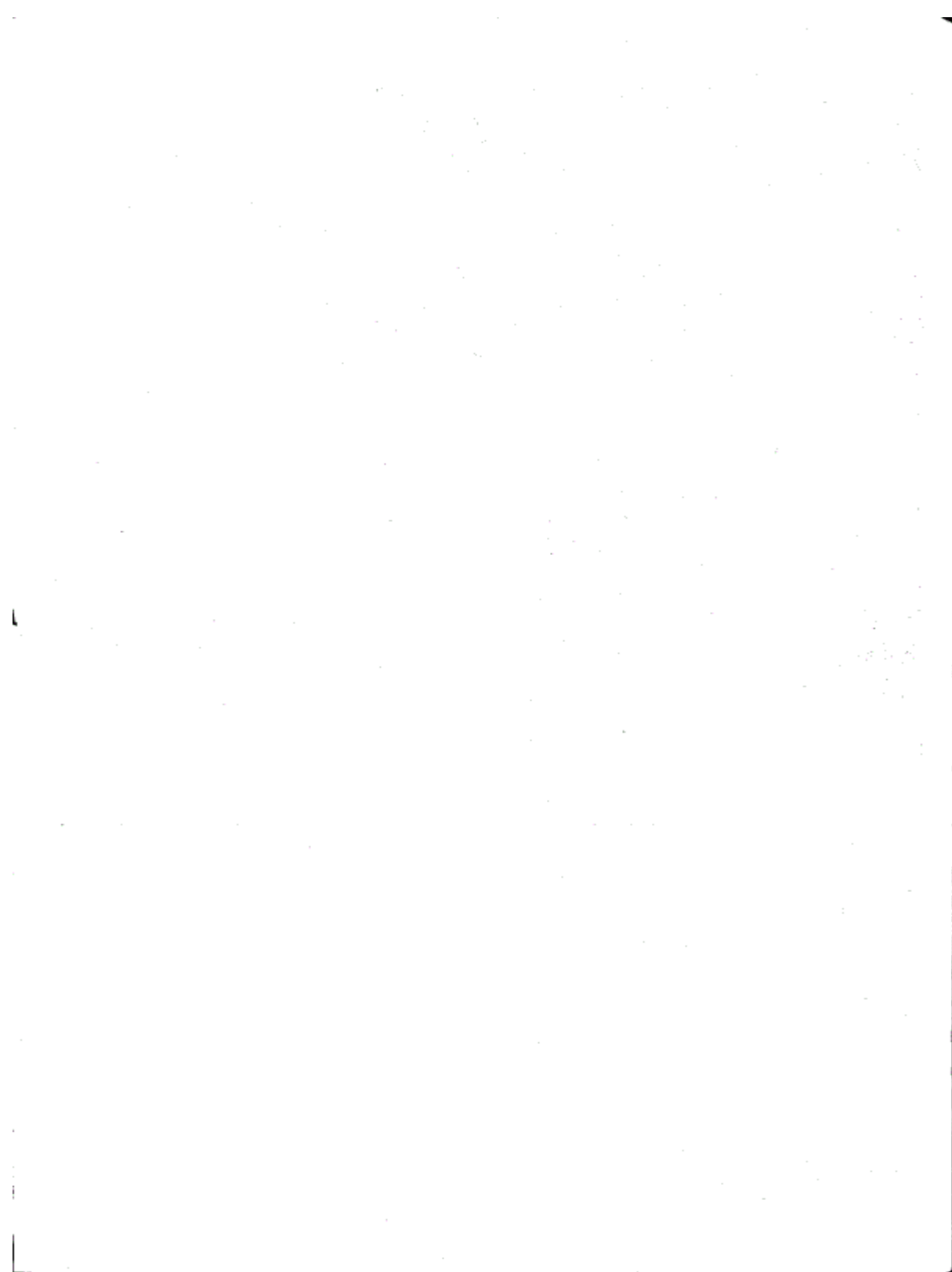
منهج البحث
في تحليل ظواهر اللغة وقواعد النحو

د/ممدوح عبد الرحمن الرمالي

أستاذ العلوم اللغوية
ورئيس قسم النحو والصرف والعروض
كلية دار العلوم - جامعة المنيا

رقم الإيداع

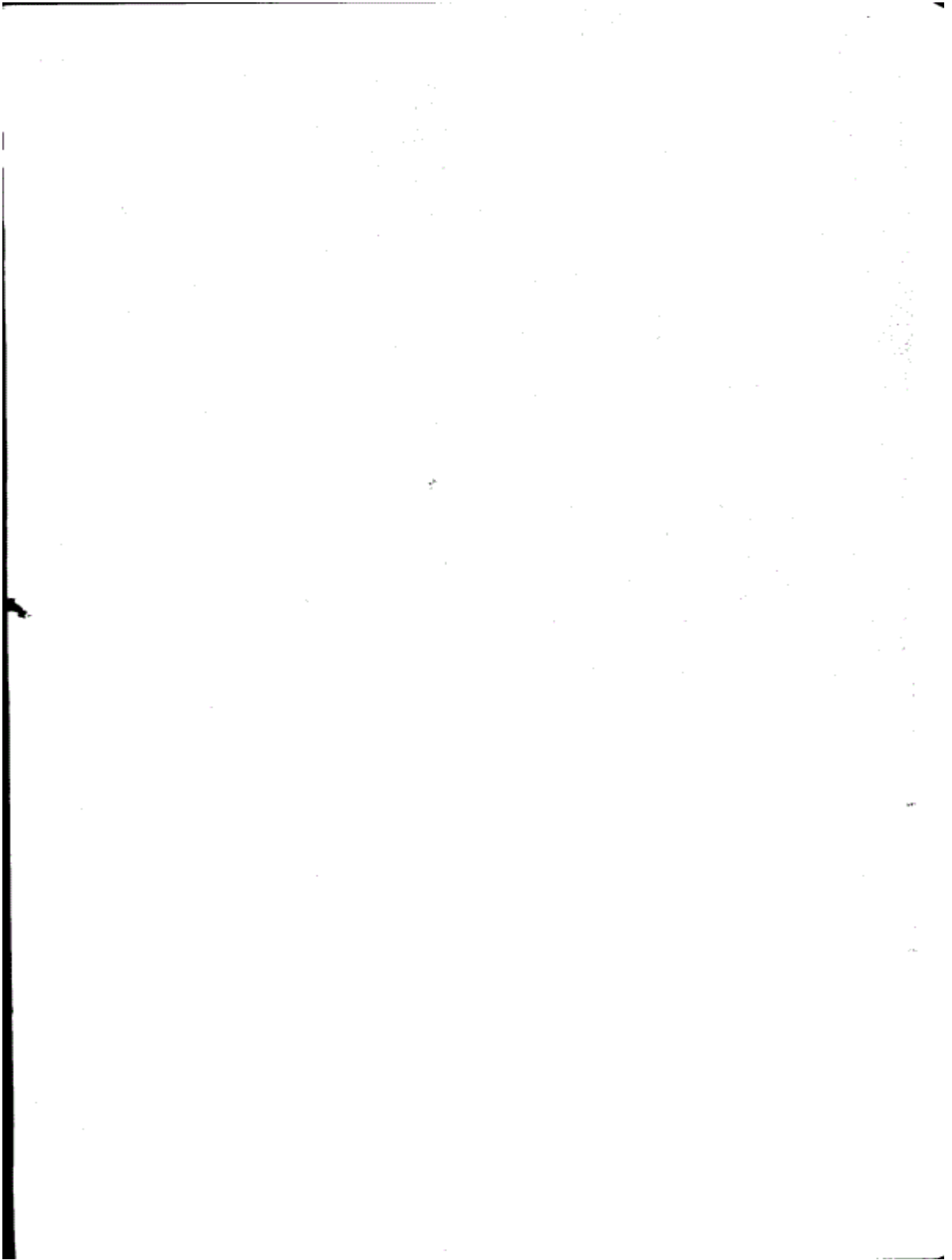
٢٠٠٣/١٥٧٥٠م



إهداء

إلى معلمتي الأصلية السيدة / **جلیلة حسنین منصور** التي علمتني
أبجديات الحياة والمعرفة ، وشمعتني التي تضيء لي السبيل بعد أن
أظلمت عيناى ، وشراعى الذى يشق لي الأجواء بعد أن ضاق الزحام
بمنكبى ، وكهفى الذى أخفى فيه ضعفى عن أعين الناس ، وساعدى
وعونى يوم لم ينفعنى جهدى واجتهادى ، وصديقتى بعد أن دفنت
أصحابى فى التراب ، ومركبى الذى يقلنى بعد أن ضاق الطريق
بقدمى

فَعُدْتُ كَذِيَّ مَرَجُلَيْنِ مَرَجُلٍ صَحِيحَةٍ
وَمَرَجُلٍ مَرَمَى فِيهَا النَّرَّ مَا نَفَسْتُ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلَمِ لَمَّا تَحَامَلْتُ
عَلَى ظَلْعِهَا بَعْدَ الْعِشَاءِ اسْتَقَلْتُ



مقدمة

مقدمة :

ليس هناك شيء على سطح هذه البسيطة يتسم بالثبات ، فهناك دائماً تباين وسمه حياتنا هذه الرئيسة التباين، فهناك تباين بين العلوم والتخصصات المختلفة، فلكل علم وجهة، ولكل بحث وجهة، ولكل عالم وجهة، ولكل باحث وجهة ، لكن الأمر الذي حاول العلماء أن يجتمعوا عليه هو ثبات المنهج، وليس هناك منهج واحد يستطيع أن يضبط جميع الأمور أو الظواهر أو العلوم أو البحوث، فالمناهج نفسها أيضاً تتباين ، لكنّ هناك أطراً عامة استعانت بها العلوم والبحوث المختلفة ، وكذلك أراد بها العلماء والباحثون أن يجتمعوا على أقل قدر من الثوابت بحيث تخضع لهذه الثوابت العلوم والتخصصات المختلفة .

ومن هذه الثوابت المنهج، ولكن حتى داخل المنهج الواحد تتباين الوسائل والطرق والأدوات، وكما قالوا لكل شيخ طريقة ، أي تناول خاص يميز الباحث من ناحية ، ويميز البحث من ناحية أخرى، بالرغم من وجود منهج واحد . ونظراً لتطور العلوم والأدوات والوسائل، وتباين المناهج أصبح لدى كل باحث مجموعة من الاختيارات بحيث يختار الباحث الواحد للظاهرة الواحدة ما يناسبها من مناهج، كما أصبح لكل بحث ما يناسبه من وسائل وأدوات.

وهكذا أمكن للباحث الواحد أن يستعمل أو يتبع أكثر من منهج وفقاً للظواهر التي يدرسها والبحوث التي يريد أن ينجزها، وعلى هذا فليس هناك منهج واحد يضبط جميع الظواهر، أو تدرس من خلاله جميع الظواهر، كما لا يمكن أن يختص باحث واحد بمنهج معين، وإن شهر به أو اتبعه في أغلب بحوثه أو تناول ظواهره، أو أنجز به بحوثه ، لكنّ الذي أستطيع أن أقوله هو أن هناك دستوراً يمكن أن تتحد فيه العلوم والبحوث المختلفة وهو المنهج العلمي أو الطريقة العلمية وهي أمرٌ عام يمكن أن تتضوي تحته أو تبحث به الظواهر المختلفة في العلوم المختلفة ، ومن ثم يمكن للبحث



مقدمة

اللغوي الذي نعني بدراسة ظواهره وتحليلها أن يستعين بثوابت المنهج العلمي، وأن يستعمل أدواته ووسائله، كما أنه يمكنه أن يستثمر المنجزات الحديثة للمنهج العلمي.

ولفظ " المنهج " ترجمة للكلمة Method في اللغة الإنجليزية ونظائرها في اللغات الأوروبية الأخرى، وهي تعود إلى كلمة يونانية كان أفلاطون يستعملها بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، كما نجدتها كذلك عند أرسطو أحياناً كثيرة بمعنى "بحث" والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب خلال المصاعب والعقبات .

ويضع المنهج القواعد العامة للتفكير الصحيح، ويميز بين الأحكام والعمليات الذهنية الصحيحة وبين الأحكام والعمليات الذهنية الفاسدة، ويحدد للباحثين المناهج السليمة التي تسد خطاهم وتصونهم من الوقوع في الأخطاء والزلل .

من الممكن أن نعرف الوحدات التي تتكون منها لغة ما عن طريق وظائفها أي عن طريق الغرض الذي تؤديه أو الهدف الذي تحققه . وبديهي أن العلم إذا اتضح نضجه واطراد استيعابه للمضامين المتنوعة وصهر ما تناقض من مكتسباته وقف مراجعاً نفسه في ضرب من الاستبطان الذاتي فاحصاً أسسه المبدئية ومعاوداً متصوراته الفعالة، ولنا في الرياضيات وما حققته من منجزات أسوة حسنة، وهي في هذا المضمار العلم الذي تقتفي اللسانيات خطاه على أصعدة التنظير ومستويات التطبيق، فلقد استشعر العلماء بأن الرياضيات لا يتسنى لها التقدم الثابت ما لم تتأسس على منطق متناسق، وفعلاً فإن المكاسب الباهرة التي أدركتها الرياضيات الحديثة ولاسيما في الحسابات الألكترونية ما كان أن تتحقق لو لم تراجع المعارف الرياضية أسسها المنطقية في القرن الماضي .

إن علم اللسان يمرّ اليوم بمرحلة مماثلة ذلك أن المنجزات الباهرة التي أثمرتها الدراسة التاريخية المقارنة قد عاقت اللغويين في القرن الماضي عن الانتباه إلى أهمية بعض المفاهيم الدقيقة مثل الصوت والصيغة واللفظة والتركيب .

إن العلم - أياً كان صنفه - يستند إلى مبدأ التجريد، والسبل إلى ذلك عديدة منها الانطلاق من المحسوسات الطبيعية ثم تعميم الاستقراءات، فيكون المسار من الخاص إلى العام، وهذا ما يحصل في الجيولوجيا وعلم النبات، وفي الكيمياء والفيزياء، ومن العلوم ما ينطلق من تصور تجريدي عام يتبنى حقيقة ما قبلية ينشأ بها الوصول إلى الوقائع المخصوصة، ومن ذلك النمط علم المنطق والرياضيات، وليس من علم إلا وهو سائر بين استنباط واستقراء، فلا يكون كله من الاستنتاج المحض ولا من الاستقراء المطلق، وكما تستند كل من الكيمياء والفيزياء إلى جانب وفير من الاستنباط تحتكم الرياضيات إلى جانب من الاستقراء يحدد وجهتها، إلا أنه من المتعين أن نميز ما يبين العلوم الاستنباطية والعلوم الاستقرائية ومعيار الفصل كثافة الوجه الغالب على منهج العلم.

والظاهرة اللغوية تستوجب بطبيعتها التوسل بالمنهج الاستقرائي أولاً وبالذات فيأتي علم اللسان واصفاً للحدث الكلامي المحسوس الذي هو ظاهرة طبيعية، وفي هذا الصنيع تكمن أهمية المعرفة اللسانية، ولكن هل إن هذه الأحداث الكلامية التي يدرسها اللساني تسمح في طابعها اللانهائي بصوغ متصورات مبدئية عن الظاهرة اللغوية يجوز معها التعميم الاستقرائي.

إن اللساني إذ يتشدد إدراك المفاهيم العامة التي تبيح تأويل الأحداث المستقاة من تحليل اللغات الطبيعية يجد نفسه محمولاً على تجاوز المنهج الاستقرائي بعد استخدامه ليبتكّل على منهج الاستنباط، أضف إلى ذلك أن التطبيقات التقنية التي دخلت اللسانيات مجالاتها قد حتمت ضبط أنساق استنباطية على غاية من الإحكام مما تمتلئ به إلى مقتضيات المعرفة الحديثة. والمنهج العلمي يجب أن يطبق على دراسة اللغة، ويجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة.

إن اللغة نظام، أي أنها تتألف من وحدات ومن قواعد وعلاقات تحكم هذه الوحدات. لقد تبيين للغويين أن معظم لغات العالم لها نظام صوتي ونظام صرفي،

مقدمة

ونظام نحوي، ولكل نظام من هذه الأنظمة وحدات وقواعد وعلاقات تحكم هذه الوحدات ولهذا قيل إن اللغة نظام الأنظمة .

وقد كان [دي سوسير] ينظر إلى اللغة باعتبارات ثلاثة: اعتبار نفسي واعتبار اجتماعي واعتبار شكلي، ويتمثل الاعتبار الأخير فيما قرره من أن اللغة مجموعة من النظم المتداخلة التي تكون فيما بينها نظاماً تركيبياً عاماً هو قواعد اللغة، وهو لا يعني بالنظام مدلول التركيب أو الصيغة، بل يعني التركيب نفسه أو الصيغة نفسها، وهذا هو الجانب الشكلي .

الدراسة الشكلية إذاً هي التي تدرس النظام أي وحدات اللغة وقواعدها وعلاقاتها، ونظراً لاعتماد الدراسة اللغوية الحديثة على الجانب الشكلي للغة فقد وثق بعض اللغويين علاقتها بالعلوم الرياضية على اعتبار أن علم اللغة والعلوم الرياضية معنيان بالأنظمة الشكلية أي بالعلاقات التي تربط بين العناصر التي تؤلف النظام، وقد كان الهدف من ذلك هو الوصول إلى دقة في الدراسة اللغوية تعدل الدقة في العلوم الرياضية .

والمصطلح [شكلي] Formal يراد به : معايير أو خصائص لغة ما يمكن أن تستعمل في التحليل اللغوي أساساً لتصنيف وحداتها وأنماطها أو نماذجها ، مثل: صيغ الكلمات أو نماذج الجمل أو ترتيب عناصرها .. إلخ .

واللغويون قد يقابلون الخصائص الشكلية بالخصائص الدلالية، وفي هذه الحالة تكون كلمة [شكل] مقابلة لكلمة [معنى] ، وقد يقابلون الخصائص المادية للغة المنطوقة أو المكتوبة ، وفي هذه الحالة تكون الكلمة [شكل] مقابلة لكلمة [مادة] .

ووظيفة المنهج تنظيم هذه العمليات جميعاً بدءاً بتحليل الظواهر اللغوية ورصدها وتصنيفها واختيار المنهج المناسب لتناول هذه الظاهرة وأعني منهجاً من مناهج التحليل اللغوي المتعددة . وقد أتاح لنا العصر الذي نعيش فيه اليوم من علوم اللغة وطرق دراستها وتدريسها ما لم يتح مثله لعلماء العربية القدماء، فهل نقف وقفة

مقدمة

المستفاد على هذه العلوم قانعين بما في التراث اللغوي من معارف وعلوم نحفظها ونجترها ونرددها، أم نشارك ونتفاعل حتى نبث الحياة في هذا التراث بمعارف وعلوم تعيد له سيرته الأولى؟ إن قراءة التراث اللغوي العربي قراءة فهم وتمثل لا قراءة حفظ وترديد تضع بين أيدينا إجابة واضحة مستقيمة عن هذا السؤال .

ويتحقق اهتمامنا بالتراث في مثل هذا الوقت أن نصيغ ما ورثناه من نصوص من ناحية وقوانين وضوابط من ناحية أخرى بالصيغة المنهجية بأن نستخلص بثوابت المنهج وعناصره، وأن نتسم نحن الباحثين بسمات المنهج العلمي من دقة ووضوح وموضوعية وقدرة على التجريد مما سنعرض له عرضاً مفصلاً في هذا البحث، لذلك جاءت فصول هذا البحث مسابقة لهذا المسلك، فجاء الفصل الأول عن المنهج وتعريفه مع صيغ مفرداته المطلقة بالصيغة اللغوية، وجاء الفصل الثاني عن البحث العلمي بصفة عامة مع إضفاء الصفة اللغوية والنحوية عليها، وجاء الفصل الثالث عن ثوابت المنهج العلمي وعناصره بحيث قسم إلى قسمين : القسم الأول في سمات لابد أن يتحلى بها الباحث، والقسم الثاني عن إجراءات وخطوات لابد أن يقوم بها، وجاء الفصل الرابع عن البحث اللغوي بصفة خاصة بحيث تطبق فيه عناصر الفصول السابقة دون أن تتناول تناولاً مباشراً .

والله أسأل أن ينفع به طلاب العلم وباحثيه، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وبعد فله الحمد ومنه المنة، وهو سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

الإسكندرية

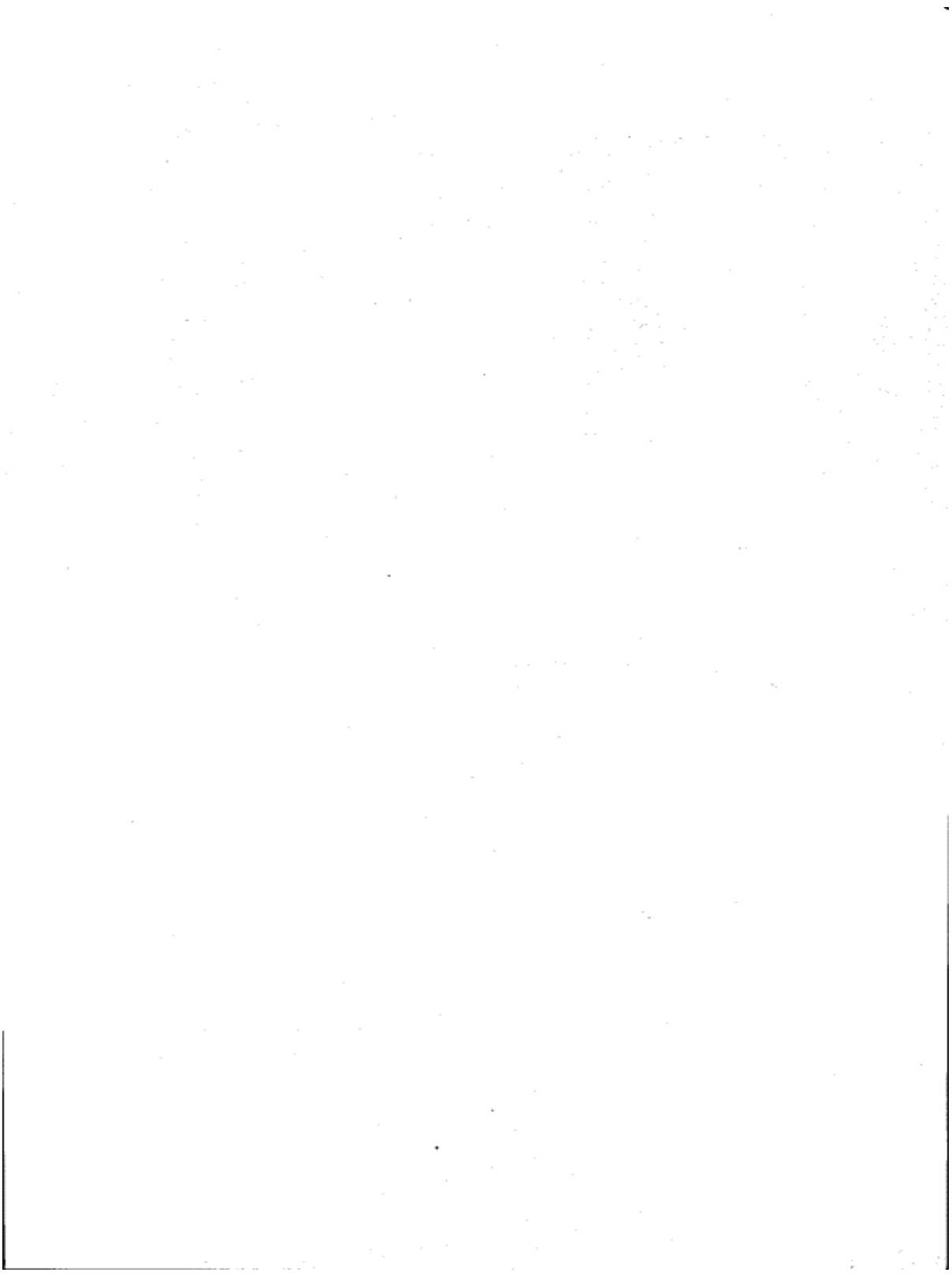
نوفمبر ٢٠٠٣

د/ ممدوح عبد الرحمن الرمالي

أستاذ العلوم اللغوية

ورئيس قسم النحو والصرف والعروض





الفصل الأول

المنهج



الفصل الأول

المنهج العلمي:

هو الطريقة التي يعالج بها الباحث مادته العلمية، كيف ينتخبها؟ وما الظروف التي يحيطها بها؟ وما الاعتبارات التي يصنفها على أساسها. إلى غير ذلك، وقد بلغ ذلك المنهج العلمي من الأهمية بالنسبة للدراسات الحديثة إلى حد أن أفرد له علم مناهج البحث الذي يقوم بالدور نفسه الذي كان يقوم به علم المنطق بالنسبة للدراسات القديمة، وليس هذا العلم سوى خلاصة ما يقرره علماء كل علم من العلوم من طرق معالجتهم لبحوثهم، فهو يبحث مثلاً في طرق البحث في الطبيعة والكيمياء والرياضة والجغرافيا والتاريخ واللغة ... إلخ.

لعل الدراسات اللغوية من أقدم وأهم الدراسات التي عالجه العقل البشري. وقد انتقلت هذه الدراسات كما انتقل سواها من مرحلة التأمل العابر إلى مرحلة العلم المنظم المنهجي.

وهناك عدة تعريفات للمنهج، تدور في إطار التنظيم الدقيق لمجموعة من الأفكار من أجل الوصول إلى حقيقة لم تكن معروفة من قبل، ويطبّع هذا التنظيم وجود طائفة من القواعد العامة تسيطر على سير العقل، وهذه المجموعة من التعريفات للمنهج.

المنهج :

طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم. وهو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة؛ إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين، حين نكون بها عارفين. وهو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيم على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.

المنهج

وهو البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة، أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم النظرية^(١).

والمراد بالمنهج العلمي بأوسع معانيه الطريقة التي يسلكها العقل في دراسة موضوع أي علم من العلوم للوصول إلى قضاياها الكلية التي يطلق عليها اسم القوانين، أو هو الطريقة التي يبني بها العلم قواعده ويصل إلى حقائقه.

ولا نقصد بالعلوم هنا العلوم الطبيعية وحدها، بل نقصد بالعلم أية طائفة منظمة من المعارف الإنسانية حول موضوع خاص طبيعي أو غير طبيعي.

وتنقسم مناهج العلوم إلى قسمين :

الأولى : المناهج الفنية التي يعالج بها الباحث موضوع بحثه على نحو معين وفقاً لطبيعة الموضوع المبحوث فيه، وهذه كثيرة متنوعة بتنوع العلوم. فطريقة البحث في علم الكيمياء غيرها في علم الطبيعة، وهذه غيرها في علم الفلك أو علم طبقات الأرض، أو علم الاجتماع، أو التاريخ؛ إذ لكل علم، بل لكل فرع من علم طريقة فنية خاصة به في جمع مادته وإعدادها أو تصنيفها وإجراء التجارب عليها، وملاحظتها، واستعمال الآلات العلمية في فحصها إن كانت مما تعمل عليه التجارب أو تختبر بالآلات. وقلما يحذف العالم الواحد أكثر من طريقة فنية واحدة، وأمر هذه الطرق موكول للعلماء أنفسهم يتصرفون فيها وفقاً لمواهبهم وظروفهم الخاصة وطبيعة موضوعات بحثهم.

أما قيمتها فثانوية إذا قيسَت بالطرق العلمية الأخرى؛ لأن المراد بها مجرد إعداد موضوع البحث وتبسيطه وجعله أقرب منالاً للملاحظة والاستنتاج.

(١) عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ٤ وما بعدها، دار النهضة، القاهرة ١٩٦٣م.



الفصل الأول

والنوع الثاني : هو المناهج المنطقية، أي الطرق العقلية التي يستعملها الباحث في

كسب المطالب العلمية، وهي موضوع البحث المنطقي لسببين :

الأول : أنها عمليات للفكر، والمنطق يبحث في العمليات العقلية الموصلة إلى العلم .

الثاني : أنها عامة غير مقصورة على علم دون علم .

والمنهج هو الطريق الذي إذا جده الباحث لابد وأن يكون من ورائه فلسفة ، وتتضح فلسفة المنهج بالإجابة على السؤال لماذا يختلف الباحثون أو يتفقون في التعرف على الموضوع الواحد ؟ يختلف الباحثون ويتفقون حسب الموضوعات، والفلسفات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكل منهم ، والسبل التي يتبعونها في تحقيق الأهداف .

ولهذا تستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع، فيصاغ المنهج بفلسفة الموضوع، كما تصبغ الأشياء بالألوان مما يجعل بينهما وحدة؛ لأنّ المنهج هو الطابع المميز للموضوع أو وسيلة إبرازه علمياً. من خلال السبل الفنية التي يتبعها الباحث أثناء جمع المعلومات والبيانات ، وأثناء تصنيفها وتحليلها، وتفسيرها، وعرض نتائجها في شكلها النهائي، ولهذا إذا كان المنهج بلا فلسفة فهو عبارة عن مشروع ارتجالي لم يبن على أسس ثابتة .

ويعد المنهج هو الوعي بالموضوع من خلال الوعي بفلسفته وبالخطوات التي تتبع من أجل اكتماله وتبينه .

وتنتج اللسانيات للدارسين إمكانات منهجية متعدّدة لتتاول الظواهر اللغوية وتصنيفها واستخلاص سماتها . ويرتبط مفهوم النسق المعرفي في الفكر الحديث بالبحوث التي قدمتها دراسة الأطر الاجتماعية للمعرفة، وما انتهت إليه من تطورات تكشف عن تغير أشكال المعرفة وعلاقاتها عبر العصور المختلفة . وتأسيس هذا المفهوم في بحث الظواهر اللغوية ضروري لمتابعة التحولات التي تفرض على

المنهج

الباحث المعاصر اتخاذ موقف منهجي صحيح في التعامل مع المادة التي يتقدم لدرسها، ومعرفة علاقاتها ببقية وحدات المنظومة التي تستمد منها مقولاتها .

لقد عملت المناهج الصارمة، نتاج تربية عصر الصناعة، على تضييق العقول، وإنتاج البشر بأسلوب التوحيد القياسي، تماماً كما يحدث في إنتاج المصانع .

إن الأمل معقود على تربية عصر المعلومات كي تخلص التعليم من تلك الصرامة وقياسية الإنتاج بالجملة . لقد أصبح العالم أعقد من أن يشمل منهج ثابت ومحدود، وإزاء تضخم المعلومات أصبحت مسألة انتقاء مادة المنهج ذات بعد أخلاقي، وذلك لأنها تنطوي على حرمان الدارس من معارف ، ربما تكون حيوية بالنسبة لتنميته الذهنية ^(١) على صعيد آخر ما زلنا متشبهين بأن كل التنوع يمكن أن نواجهه بمنهج واحد ^(٢) .

لقد أفرزت تكنولوجيا الصناعة منهجاً ثابتاً مغلقاً، فهل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تجعل المناهج مفتوحة ومتغيرة بصورة دينامية .

لقد ولى إلى الأبد ذلك الزمن الذي كانت فيه مجالات المعرفة المختلفة بمنزلة جزر منعزلة ، منفصلة على نفسها في نطاق تخصصها الضيق، وقد كانت تكنولوجيا المعلومات معول هدم للحواجز الفاصلة بين مجالات المعرفة المختلفة .

وهنا يتم التمييز الحاسم بين العلم وتاريخه، فتاريخ علوم الطب والطبيعة، واللغة والنفس مثلاً يختلف بالضرورة عن الصورة الأخيرة التي انتهت إليها هذه العلوم في أوضاعها المعاصرة ، بعد أن أحرزت منجزاتها الملموسة في تاريخ البشرية

(١) دين كيث سايمنتن: العبقرية والإبداع والقيادة ص ٢٩٩، ترجمة د/ شاكر عبد الحميد، مراجعة د/ محمد عصفور، عالم المعرفة، أغسطس ١٩٩٣ م .

(٢) تراث الإسلام : ٢/ ٢٧٢، ترجمة د/ حسين مؤنس، د/ إحسان العمدة، عالم المعرفة، نوفمبر ١٩٧٨ م .

الفصل الأول

والإلمام بهذا التاريخ له أهمية معرفية خاصة لإدراك تطور العلوم، لكنه لا يمكن أن يغني شيئاً لمن يريد أن يقف على جملة حقائقها الراهنة .

ومن اللافت للنظر أن مرتكزنا في دراسة علوم اللغة يكاد يقتصر على الجانب التاريخي البحث، بل يتجاوز ذلك إلى تصور غريب لتاريخ متجمد، ينكر على اللغة تطورها وحيويتها وحقها في التجدد المبدع . وإذا كانت اللغة - بحكم بنيتها التقنية - أقرب منظومة العلوم الإنسانية القديمة لتحقيق قدر من التماسك المنهجين، فإن بحوثنا عنها لا تكاد تتجاوز تاريخها ومنطق عصرها ، بل كثيراً ما تقع أسيرة لوهم كبير، يعد جزءاً من الوهم الأعظم في علاقتنا بالتراث العامة ؛ إذ نرى في بعض تجلياتها الصورة الكاملة لأقصى ما يمكن أن تصل إليه المعرفة العلمية بظواهر اللغة . وذلك ناجم عن ضعف وعينا بحركية الأنساق المعرفية ، وتراتب العلوم الإنسانية، وعوامل التوليد الاجتماعي الفاعلة في مسيرتها . بالإضافة إلى التراكم الخصب للمادة الإبداعية ذاتها في العصر الحديث، مما يؤدي بالضرورة إلى تغيير نظمها وقوانينها . من هنا فإن باب تحول الأنساق المعرفية يعد تمهيداً لازماً للإطار العلمي .

يرتاد هذا البحث أفقاً أخذت تستشرفه في الآونة الأخيرة مجموعة من العلماء العرب الطليعيين في المشرق والمغرب، ومهدت له الأسلوبية بصفة خاصة وهو ينجو إلى تقديم عناصر الخطاب في إطارها المعرفي الجديد، فيلقاها وهي تتشكل عبر عمليات تحول كبرى، تنتقل فيها بالتدرج، أعداد متزايدة من العلوم الإنسانية ، عن طريق الضبط المنهجي ، والتراكم العلمي، والتوالد عبر التخصص إلى منطقة البحث "الإمبيرقي" التجريبي.. بحيث لم يعد كثير منها ينتمي إلى ما يسمى بـ " علوم الروح" التي لا تقبل الاختبار والتحليل والتقدم ، بل أخذ يدخل في مجال " النظرية " بالمفهوم العلمي، ذات الفروض والعناصر المحددة. ويتميز بقابليته للتطبيق، وصموده للتجريب، وخضوعه للتعديل المستمر في ضوء الإنجازات المنهجية الأصيلة .

المنهج

وربما كان انتشار الدعوة لتشكيل جمعيات في كثير من البلدان الأوروبية في التسعينيات مؤشراً ذا دلالة واضحة على بداية هذه الموجة الجديدة من غزو العلوم البحتة لمجال بحث الظواهر اللغوية .

ومن المقرر في كل علم من العلوم أن يرسم الباحث منهجه العلمي الخاص به ، ثم يأتي دور علم مناهج البحث ، فيأخذ كل هذه المناهج الخاصة ، ويحاول أن يخلص بما يشبه المنهج العام لكل مجموعة من العلوم المتشابهة .

ولاشك أن العلماء الأقدمين - وعلى رأسهم فلاسفة الإغريق وعلماءهم - قد تأملوا في واقع ما يحيط بهم من أشياء، وانتهوا من هذا التأمل الواقعي إلى أحكامهم العامة، فهم حين قالوا بأن " الإنسان حيوان ناطق " ، قد رأوا أفراداً كثيرة من الناس، ولاحظوا لأول وهلة اشتراكهم في صفة التفكير أو النطق على حد تعبيرهم . ولكن هذه الملاحظة السريعة ليست بكافية؛ لأن العلم الحديث لا يكتفي بالملاحظة السريعة التي ينتقل بعدها الباحث إلى أحكام عامة، بل يحرص على ألا ينتقل إلى الأحكام العامة إلا بعد أن يبحث الأمور الخاصة بحثاً مستفيضاً . وقد وجد العلماء المحدثون أنهم في بحثهم للأمور الخاصة قد واجهوا حقائق لا تحصى تتطلب الاستقصاء، وأيقنوا أن الأحكام العامة لا بد من أن تنتظر حتى يفرغوا من التعرف على هذه الحقائق العديدة.

فمما استوعبه علم المنطق من حدود تعريف البحث في مراتب التجريد من المحسوس إلى المجرد الكلي وعليه تدور المعقولات التي هي العناصر المعرفية في أي علم من العلوم، فيكون المنطق متماثلاً مع ارتقاء العملية الإدراكية التي للعقل وعلى هذا عُدَّ قانوناً .

ومما دارت عليه عملية تعريف المنطق مبدأ ضبط المعايير التي يختبر بها العقل مدى سلامة الإجراءات البرهانية الحاصلة لديه فيكون في غايته تلك أداة التحري بغية القبول أو النقص، وفي هذا الصدد يؤكد الفارابي أن " صناعة المنطق تعطي بالجملة القوانين التي شأنها أن تقوم العقل وتوجه الإنسان نحو طريق الصواب، ونحو

الفصل الأول

الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط في المعقولات ، والقوانين التي يمتحن بها في المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد أخطأ فيه مخطيء ، وذلك أن في المعقولات أشياء لا يمكن أن يكون قد غلط فيها أصلاً وهي التي يجد الإنسان نفسه كأنها فطرت على معرفتها واليقين بها مثل أن الكل أعظم من جزئه [...] ، وأشياء أخر يمكن أن يغلط فيها ويعدل عن الحق إلى ما ليس بحق ، وهي التي شأنها أن تدرك بفكر وتأمل وعن قياس واستدلال : ففي هذه دون تلك يضطر الإنسان الذي يلتمس الوقوف على الحق اليقين في مطلوباته كلها إلى قوانين المنطق ^(١) .

ولكن أحد مفاهيم المنطق قد ضبط - لا على العملية الإدراكية مجردة، ولا على أساس التحري في ما هو حاصل فعلاً - ولكن على أساس إنجاز العملية الاستدلالية التي بها ينتقل الفكر من المعلوم إلى المجهول في أصناف الدلالات .

وقد ضبط ابن سينا بهذه الغاية غرض علم المنطق ، فقال : " المراد من المنطق أن تكون عند الإنسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل في فكره . وأعني بالفكر هاهنا ما يكون عند إجماع الإنسان عن أمور حاضرة في ذهنه متصورة أو مصدق بها تصديقاً علمياً أو ظنياً أو وضعاً وتسليماً إلى أمور غير حاضرة فيه [...] فالمنطق علم يتعلم منه ضروب الانتقالات من أمور حاصلة في ذهن الإنسان إلى أمور متحصلة ^(٢) .

وعلى هذا الأساس ألح الغزالي عندما خص علم المنطق بتصنيفه "معيار العلم" إذ جعل مداره البحث في مسالك العبور من المعلوم إلى المجهول عبوراً تحكمه مقاييس مرتبة لا تكذب إن احترمت ولا ترحم إذا انتهكت، فنبه متحدثاً عن فحوى تأليفه " أن مضمونه تعليم كيفية الانتقال من الصور الحاصلة في ذهنك إلى الأمور الغائبة عنك،

(١) الفارابي : إحصاء العلوم، ص ٥٣ - ٥٤ ، ط ٢ ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧ م .

(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٢٣ - ٢٤ ، القاهرة ١٩٤٧ م .

المنهج

فإنّ هذا الانتقال له هيئة وترتيب إذا روعيت أفضت إلى المطلوب وإن أهملت قصرت عن المطلوب»^(١).

ولما كانت اللسانيات مدينة بعلة وجودها للمنهج أكثر ممّا هي مدنية للموضوع فإنّه صار متعيّناً أن يحظى البحث في أسس المنهج اللساني بمنزلة الدعامّة الأساسيّة: تلك التي تمسّ فلسفة العلم ونقد ثماره ، وصار التدوين التاريخي لحركة العلم اللساني قائماً على تعقّب الصيرورة المنهجية التي تخلّلت لحمته ، وهذا أحد الأبواب التي ينفذ منها الاستكشاف المعرفي الهادف إلى تقييم موضوع العلم ومادته من خلال مناهجه. غير أنّ المسار المنهجي الذي توخّته اللسانيات منذ اكتسابها الشرعية المعرفيّة لا يمكن أن تتضح أعماقه إلّا إذا تمّ ربطه بنشأته التاريخية ، وتمتّ مقارنته بالمنهج الذي سلكته المعارف اللغوية قبل بروز اللسانيات الحديثة . ولئن اتّضحت لنا عناصر المفارقة ، فإنّ ذلك قد انصبّ على موضوع العلم، ومبحثنا في منهج العلم هو الذي يكمل الوجه الثاني من هذه الإشكالية المعرفية .

غير أنّ استكشاف خصائص العلوم من خلال مناهجها ولاسيما على المنحي التاريخي لا يستقيم إلّا بإدراج العلم المخصوص من ضمن حركة المعارف السائدة أيامه، ولهذا السبب تعيّن أن يكون المنهج الأساسي مقارناً في هذا السياق . كما يعني ديكرت بالمنهج قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها، دون أن تضيع في جهود غير نافعة، بل إنها تزيد ما في النفس من علم بالتدريج .

وهو يرى أنه كلما اتجهنا نحو البساطة ، وكلما اقتصرنا في نشاطنا العلمي على النور الفطري كان وصولنا للحقيقة أمناً وأيسر، وذلك لأنّه يقول إن النفس تشتمل

(١) أبو حامد الغزالي: معيار العلم في فن المنطق، المطبعة العربية بمصر، ط٢، ١٩٢٧، ص ٣٥-٣٦.

الفصل الأول

على شيء إلهي أودعت فيه البذور الأولى للأفكار النافعة، وإذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة، لم يجن منها إلا ثمرات غثة لا يرجى منها نفع دائم أو خير مقيم.

وهذا هو المنهج الذي بدأت تتبناه العلوم التجريبية في مطلع عصر النهضة والتي ثبت أنها حققت به أروع النتائج . والمنهج الحديث يعتمد أساساً على التجربة، حتى لقد قيل إن الفارق بينه وبين المنطق أو المنهج القديم هو نفسه الفارق بين منهج يستعمل التجربة، وآخر لا يستعملها ، وإذا كان القياس العقلي بأشكاله التي حددها أرسطو، هو معيار الصواب والخطأ في المنطق القديم فإن المنهج الحديث لا يرضى بغير التجربة معياراً لأحكامه .

صحيح أن عملية التجريب قد وجدت منذ أقدم العصور، وأن جميع الحضارات السابقة قد استعملتها كثيراً أو قليلاً ، لكنها لم تصبح أساساً لمنهج علمي ذي خطوات محددة إلا ابتداء من عصر النهضة، ولم تحتل مكانتها اللاتقة في مجال الأبحاث إلا على يد فرانسيس بيكون .

فقد كان أهم ما دعا إليه هو ضرورة التأليف بين الملكة التجريبية والملكة العقلية، كما كان لأعمال جاليليو أثر بالغ في بيان أهمية المنهج الحديث، ودور التجربة فيه ، فقد صرح بأن التجربة هي أفضل شيء يعرفنا حقائق الأشياء، وأحد أسباب تقدمها هو استعمال الرياضيات .

كما رفض ديكارت المنهج الأرسطي وقال : إنه لا يزيد معرفتنا بشيء ، وأكد على أهمية الرياضة في سائر العلوم، وقال بأن العلوم وحدها يمكن أن يحكمها منهج واحد، وكان أهم ما دعا إليه هو عدم التسليم بشيء إلا إذا ظهر بديهياً في نظر العقل، وهذا معناه ببساطة أن نعيد اختبار معلوماتنا التي تلقيناها من مختلف الطرق وبمختلف وسائل التأثير النفسي والعاطفي، والتي يدخل في رسوخها في أذهاننا كل من العادة والتقاليد .

المنهج

إن معرفة المنهج لا تصنع الباحث العلمي، وإنما تنحصر أهميتها في أنها تنمي ما لديه من استعدادات موجودة بالفعل، وهي بهذا تؤهله إلى اكتشاف بعض الحقائق، كما تجنبه التردّي في بعض الأخطاء التي قد يلقاها أثناء بحثه. وهذا ما يقدمه المنهج الحديث .

المنهج والنظرية والتجريب :

السؤال الذي نثيره أولاً هو : ما الطريقة العلمية ؟ وكيف يتوصل إليها ؟
للإجابة على السؤال ينبغي أولاً تعريف العلم بالمفهوم المعاصر. إذا عرفنا العلم بوظيفته ، فإنه يقوم على النظر الدقيق والملاحظة المضبوطة والتجربة المنظمة مثل علوم الطبيعة والكيمياء ، والنبات، والحيوان، والفلك، وما إليها^(١) .
أما غايته فتقوم على كشف العلاقات العلمية الثابتة التي تقوم بين الظواهر بعضها والبعض الآخر وصياغة هذه العلاقات في قوانين أو نظريات ، ثم تحويلها إلى مخترعات تيسر الكثير من أسباب الحياة عند الناس^(٢) .
ويقتصر دور العلماء على الكشف والبحث ثم التطبيق في مجالات الحياة الإنسانية ، وهنا يظهر لنا أن العلم سلاح ذو حدين ، فهو إما نعمة، وإما نقمة ، فإن الإنسان بمحض إرادته يستطيع أن يحول مكتشفاته في حقول العلوم إلى نِعَم كبرى تيسر سبل الحياة وتتيح له تسخير ما في الكون لمصلحته ورفاهيته ، أو يحوله إلى نقمة عندما يستعمله في الإضرار بنفسه أو بغيره .

(١) د/ محمد أحمد الغمراوي : الإسلام في عصر العلم ص ١٩ ، إعداد د/ أحمد عيد السلام الكردي

، دار الإنسان ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

(٢) د/ توفيق الطويل : موقف العرب من العلم، سلسلة الثقافة الإسلامية .

الفصل الأول

ولننظر إلى مدارس اللغات الشرقية التي أنشأتها بريطانيا العظمى وأوقفت عليها علماء اللغة ليهتموا بدراسة لغات الشعوب الأخرى بهدف السيطرة واستعمار بلاد المشرق والاستيلاء على خيراتها والتحكم في شعوبها .

ليس للعلماء أي دور إذن في إضافة شيء جديد إلى مخلوقات الله عز وجل ، وكل ما هنالك أنهم يسرون سيراً حثيثاً في طريق اكتشاف قوانين الفطرة [أو سنن الله في الكون كما ينبغي لنا أن نسميها] ^(١).

ويتخذ البحث العلمي أدواراً أو مراحل هي ^(٢):

الدور الأول : هو دور رصد الظواهر وتسجيلها، فهو دور التجربة والملاحظة، ويستلزم تكرار الملاحظة في الظروف نفسها، فكل واقعة من الوقائع العلمية لابد أن تثبت من تجارب متعددة في ظروف محددة واضحة .

الدور الثاني : تجميع الوقائع ، فإذا كانت من باب واحد لابد أن تكون ناشئة عن قانون طبيعي واحد - أو بمعنى أدق - عن سنة من سنن الله واحدة .

الدور الثالث : استنباط القوانين الفطرية أو الحقائق الكلية المستخلصة من الحقائق، الجزئية ، أو تفسير الظواهر والربط بينها في شكل نظريات ، ومن هنا تنشأ النظرية العلمية .

ولفهم قيمة النظرية العلمية ينبغي التمييز بين الحقائق والظواهر ، فإن العلم يعني بالظواهر أي كل ما يشاهد حدوثه في الطبيعة مثل ظاهرة انعكاس الضوء من المرايا، وظاهرة تساقط الأجسام إلى الأرض ، وظاهرة تمدد الأجسام بالحرارة ، أما الحقيقة فهي الوصف الصادق الأمين لأية ظاهرة أو جزء من ظاهرة ، ويقتصر أمر

(١) د/ محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم والمدنية ص ٤٤ ، ط دار الإنسان ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

(٢) السابق نفسه : ص ٤٢ ، ٤٣ .

المنهج

تسمية [الحقائق العلمية] بهذا الاسم على مدى الصواب الذي نصف أو نقيس ما يحدث بالفعل، وكذلك على مدى ما يتضمنه وصفنا أو قياسنا من دقة ^(١).

مثال ذلك أن قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن ، إنما يصف لنا فقط نوعاً من [النظام] الموجود في الطبيعة ، ولكنه لا يصل إلى الحقيقة ، أو إلى جوهر ما يحدث. الحقائق إذن ليست هي الظواهر ، ولكن هي أوصافها وتتوقف الحقائق إذن على الأفكار والتصورات التي تعالج بها الظاهرة .

وعلى ذلك يمكن القول بصفة عامة إن تقدم العلوم في هذا العصر هو في الحقيقة ، والواقع مجرد تقدم لأفكارنا وتصوراتنا فقط، أما الحقيقة أو الغاية فالعلم أبعد ما يكون عنهما . وآية ذلك أن النظرية العلمية مهما طال عمرها وكثرت الوقائع المؤيدة لها، يكفي لقتلها والقضاء عليها واقعة واحدة تناقضها ، بحيث لا يمكن التوفيق بينهما بحال ، [وفي تاريخ العلم نظريات خرت صريعة بعد أن عاشت قرناً أو أكثر من قرن، صرعتها حقيقة علمية ناقضتها ولم ينقذها من الموت كثرة الحقائق الأخرى المتفقة معها ؛ إذ الغرض من كل هذا الجهد والعراك في العلم هو الوصول في النهاية إلى السنن والقوانين التي تجري عليها فطرة الكون . والسنة أو القانون العام يجب ألا يؤدي فقط إلى باطل وألا يشذ عنه قط فرد أو جزئية في المجال الذي هو علم فيه ^(٢) .

ولا وجه شبه بين النظرية التي تؤدي إلى التصور، والمنهج الذي يعيد بناء مسيرة الصورة أو الفكرة، ويتفحصها، ويقطع معها المراحل التي تدخلها في حيز التطبيق. وتقوم النظرية برسم صورة الفكرة الجديدة، بينما يهتم المنهج بتطبيق الكشف، وبتزويد الباحث بمجموعة من الوسائل الإجرائية التي تنتقل بها الفكرة إلى تطبيق فعلي وواقعي وموضوعي وعملي . تثبت النظريات والفرضيات والمناهج الحديثة أن الكشف

(١) د/ محمد جمال الدين الفندي : كتاب الله والكون ص ٥٥-٥٨ ، ط المجلس الأعلى للشئون

الإسلامية .

(٢) د/ محمد أحمد الغمراوي: بين الدين والعلم ص ٢١ .

الفصل الأول

هو في آن واحد ، مجموعة من العمليات الحدسية التخمينية ، تعقبها عمليات إجرائية ، وأن الأولى تقدم للكشف الأدوات الفكرية المجردة، وأن الثانية تقوم بالتجريب والتطبيق.

يعد هيلمسليف أن كل الأعمال اللغوية التي سبقته لم تصل بعد إلى بناء نظرية علمية للغة بلأتَم معنى الكلمة . وهو لا يقتصر في نقده هذا على التراث الفلسفي واللغوي الأوروبي القديم ، بل يشمل بذلك " النحو المقارن " وأعمال بلومفيلد ودي سوسير وحلقة براغ رغم إقراره بقيمة العاملين الآخرين .

ولما كان الأمر على ما ذكرنا فقد خصّص القسم الأول من مصنفه^(١) لتوضيح شروط صياغة النظرية العلمية عموماً . وكان يهدف بذلك إلى فضح الخلفيات المعرفية للآراء الفاشية في الدراسة اللغوية وبيان تهافتها ، كما كان يهدف إلى التشريع لفرضياته وإقناع القارئ بها ، وقد اكتسى هذا القسم طابعاً من السجال جعل دحض النظريات والآراء الشائعة يقترن بالتنظير الأبيستمولوجي .

ولعلّ أهم ما يميّز هيلمسليف على المستوى المعرفي الخالص هو مناهضته للتجريبية بمختلف أشكالها ، سواء بمعناها البدائي أو كتيار فلسفي شهر بتبجيله للمعطيات على الفرضيات في النظرية العلمية . وهو موقف له ما يبرره تاريخياً إذا عدناه ردّ فعل على التأمل الفلسفي العقيم الذي ساد عند المدرسين [Scolastique] قبل ظهور العلوم التجريبية في العصر الحديث^(٢).

ولئن كان هيلمسليف يلحّ على أن نظريته التي يعتزم بناءها ويدعو إلى تبنيها تختلف اختلافاً جوهرياً عن التأمل الفلسفي العقيم ، فإنه يلحّ تقريباً الإلحاح نفسه على أن المعطيات وحدها والاستقراء الذي يلهج بذكره كثيرون لا يمكنان من معرفة علمية

Hielmslev (Louis) : Prole gomenes a une the orie du Language, Traduit du danois par un acanger avec La collaboration d'Annick. Wewer, les editions de Minuit . 1971

R.H.Robins : Breve histoire de la linguistique de platon a chomsky, traduit de l'anglais par Maurice Borel, Editions du Seuil-Paris 1975.P.118.

المنهج

حقيقية . مصادره الأولى تقول بأولوية الفكر على معطيات التجربة في المباشرة العلمية وتجعله من أتباع العقلانيين بداية من ديكارت^(١)، وهو موقف تبناه قبله دي سنوسير وأكدّه بعده شومسكي^(٢) .

ولمزيد دحض هذه التجريبية التي تجعل المعرفة العلمية ظلّاً أميناً للواقع وتوهم أن المعطيات الاختبارية التي ينطلق منها الباحث تعلو على الفرضيات التي تحدّد شروط النظرية العلمية العدول ببعض المصطلحات الشائعة في فلسفة العلوم عن معناها المألوف المستقر الذي رسّخه التجريبيون فيعيد تعريفها تعريفاً يناقض معناها الشائع عند العموم ويحدث بعض المفارقات المقصودة .

وأساليب التقعيد [أي مناهجه] كثيرة متنوعة، تنوع الاتجاه والهدف والحاجة، وكلها صالح للعمل ، ولا يضير بحال أن نأخذ بهذا الأسلوب أو ذاك، فمادة النظام المرغوب في بنائه موجودة هناك في اللغة . وليس يفسدها أو يضرها أو يضيعها اختلاف المناهج والأساليب ، شريطة عدم الخلط بينها في العمل الواحد. فاللغة هي اللغة وقواعدها مبنوثة فيها ؛ إذ هناك فرق بين التقعيد والقواعد، فالتقعيد هو عملية وضع القواعد ، أي باستخراجها واستخلاصها من الظواهر اللغوية، وجعلها أحكاماً كلية تنطبق على أفراد مجموعة الظواهر المتحدة أو المتماثلة .

والتقعيد بهذا المعنى من صنع الدارس أو الباحث، وكما يختلف الدارسون في اتجاهاتهم وأهدافهم، تختلف أساليب التقعيد عندهم ، ولكل أن يختار منهجه بشرط الوضوح والعمومية والموضوعية والصلاحية للتطبيق .

(١) R.H.Robins : Breve histoire de la linguistique de platon a chomsky, traduit de l'arglais par Maurice Borel, Editions du Seuil-Paris 1975.P.118.

(٢) Ruwet Nicol'as : Introduction a La grammaire generative plon paris .

الفقرة الأولى من الفصل الأول .

الفصل الأول

أما القواعد فهي هناك في اللغة، شئنا أم لم نشأ، أدركها الناس أم لم يدركوها. وتتحقق القاعدة المعينة في الظواهر اللغوية التي تسلك مسلكاً عاماً واحداً مطرداً، والتي تتمثل في السلوك في سياقها المعين، وتقوم بوظائف واحدة. إنها من صنع اللغة، قل - إن شئت - هي من صنعها، في حين أن التعيد من صنع الباحث.

ونعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستعمل الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية :

- ملاحظة الظواهر اللغوية - التجريب والاستقراء المستمر .
- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير .
- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها.
- استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة - التحليل الرياضي الحديث للغة- الموضوعية المطلقة .

وبما أن اللغات البشرية لها ارتباطاتها الإنسانية والطبيعية المتفرعة ، كذلك فإن لعلم اللسانيات فروعاً متعددة يختص كل منها بناحية جزئية من هذا الكل الذي اسمه "اللغات" : فاللسانيات النظرية تبحث بالنظريات اللغوية ونماذجها المتفرعة عنها وكيفية معالجتها للبنية اللغوية، سواء أكانت تلك النظرية اللغوية في الماضي أم الحاضر.

وبعد أن أعاد هيلمسلف تعريف مبدأ التجريبية بشروطه الثلاثة وبيّن أن الوفاء لمعطيات التجربة " المفترضة " يكون باعتماد الاستدلال [deduction] لا الاستقراء ، وبعد أن وضّح أن علاقة النظرية العلمية بالمعطيات الملموسة ليست علاقة مباشرة يشرع في عرض أدوات التحليل التي سيعتمدها لصياغة فرضياته وهي ثلاثة :

[أ] نظام من التعريفات وشبكة من المصطلحات .

[ب] المبدأ الابستمولوجي للتحليل .

[ج] والشكل الذي سيكون عليه التحليل .

المنهج

كما يشترط في نظرية اللغة التي تحقق الشروط الاليمستولوجية أن تدقق المفاهيم التي تستعملها بأقصى قدر حتى تكون منطقاتها صريحة . ويكون ذلك بتحديد شكلي [Formel] لنظام متناسق من التعريفات .

ودراسة اللغة أو دراسة الموضوعات دراسة علمية تعني في النهاية : إنشاء نظرية متناسقة، نظرية تبين لنا كيف تعمل اللغة، نظرية نستخرج منها مناهج دقيقة محددة لوصف اللغات .

إن النظرية ليست - كما يقول [هاليداي] روحاً سابحة في الهواء، إن النظرية لها عناصرها التي تتمثل في ملاحظات لا حصر لها تتصل بالأحداث اللغوية . ولأن النظرية تبني علاقاتها على أساس الملاحظات ، الملاحظات التي يُشار إليها على أنها تجريدات " ينبغي أن تفهم على أنها علاقة لا عملية " فإنها - أي النظرية - يمكن أن تأخذ أشكالاً مختلفة، بعبارة أخرى : النظرية ثمرة بيانات مضبوطة في داخل إطار العملية (١) .

الهدف إذاً هو بناء نظريات لا جمع وقائع عن اللغة، والنظرية - إذا كانت جيدة لا تنفصل عن الواقع أبداً ، بل العكس هو الصحيح . الغرض الأعظم من بناء النظرية هو تفسير الواقع أو المادة، والواقع الذي نريد فهمه وتفسيره هنا هو اللغة، إننا نريد أن نكتشف كيف تعمل اللغة، والنظرية وحدها هي التي تقدر على أن تفعل ذلك (٢) . ويشير [هاليداي] إلى تأثير البحوث التطبيقية في انتشار علم اللغة مقررأ أن الدراسة اللغوية النظرية الخالصة لم يقدر لها الانتشار إلا بعد أن اتضح للباحثين كيفية الاستفادة منها، ومن هنا فحسب حظيت بالاحترام (٣) .

(١) Halliday, Mc Intoch and Strevents, the Linguistic Sciences and language Teaching, ELBS edition, London 1975, P.56 .

(٢) Crystal Linguistics, P.112, Penguin Books, 1968.

(٣) Linguistic Sciences and Language teaching, P6 .

الفصل الأول

ولعله من المفيد أن نقدم هنا تعريفاً للنظرية مع أن هذا العمل معقد ومحاط بالمخاطر، النظرية: تفسير لظاهرة أو مادة يعرض علينا جانباً من الواقع نرغب في فهمه، ونبني منه نظاماً محدداً أو ما يشبه ذلك .

وفي مجال علم اللغة المادة المباشرة المراد تفسيرها هي الجمل المنطوقة والمكتوبة التي يستعملها فرد من أفراد المجتمع اللغوي المدروس ليشمل رأي أصحاب المنهج التوليدي فسنقول : المادة المباشرة في قائمة من الأحداث اللغوية تؤلفها ملكة هذا الشخص اللغوية .. أن النظرية - ببساطة - ليست تلخيصاً للمادة ولا هي تفسير لمادة مختارة خاصة فحسب أن النظرية التي توضع لتفسر أنماطاً موجودة في جزء خاص من المادة، ربما تكون نظرية بمعنى ضيق جداً ... للهدف الكلي للنظرية أن تكون تفسيراً عاماً : التفسير الذي تفترضه النظرية سوف يعالج كل المادة التي درست أولاً، ولأنه سيعالج كذلك مادة أخرى بجانبها .. أن الحديث عن نظرية يعني تجاوز المادة التي وضعت في الاعتبار أصلاً. و لنقل ذلك بعبارة أخرى : النظرية تقدم ادعاءات حول النمط أو النظام الذي يكمن في المادة، وتتنبأ بأن هذا النظام سوف يفسر جيداً ، وعلى سواء عينات مستقلة من المادة وما يمكن إثباته من هذه التنبؤات هو المعيار الدقيق لصلاحية النظرية^(١).

غير أن بعض اللغويين يرى أن الوصول إلى بناء نظرية عامة لتفسير كل جوانب اللغة ربما كان عملاً غير واقعي، بل إنهم يعدون الفكرة العامة للنظرية فكرة غامضة ومجردة، ولا يمكن تطبيقها مباشرة على المادة .

غير أن هذا النحو قد أصاب منهجية البحث فيه بعض الشوائب، ولحقته بعض نواحي القصور . ولنشر الآن إلى مثال واحد من أمثلة الاضطراب المنهجي في التقعيد ، بسبب الخروج عن واقع اللغة والاعتماد على مناهج أو أفكار جانبية لا تلائم الحقيقة اللغوية بمعناها الدقيق . كثيراً ما كان علماء العربية يلجأون إلى المنطق ، يلتمسون

(١) Crystal, Linguistics, P.P. 112,113 .

المنهج

منه العون في تعقيده وضبط أحكامه؛ فجاءت بعض أعمالهم في هذا المضمار مخالفة للواقع اللغوي والاستعمال الحي للغة، الأمر الذي أدى إلى تعقيد بعض جوانب هذا النحو واضطراب شيء غير يسير من قوانينه، بحيث أصبحت مثاراً للشكوى في القديم والحديث، وسبباً من أسباب النفور منه وعدم القدرة على فهمه واستيعابه في يسر وسهولة .

اتخذوا القياس المنطقي لهم في مرحلة من مراحل منهجاً وطريقاً من طرائق التفكير في النحو . والقياس في حد ذاته مبدأ مقبول مشروع في كل العلوم، شريطة أن يكون هناك توافق أو تماثل بين المقيس والمقيس عليه في السمات والصفات، وأن يكون المقيس عليه - في اللغة بالذات - له واقع وجود يتمثل في الاستعمال الحي للكلام . ولكن علماء العربية بالغوا في تطبيق هذا المبدأ وبالغوا في الالتزام بأحكامه ، حتى لقد كانوا يقبلون ما يجيزه القياس المنطقي ، وأن لم يرد به سماع . ويفضلون لغة قبيلة على لغة قبيلة أخرى، على أساس من القياس ، لا على أساس الظواهر اللغوية التي تتمتع بالأفضلية ، بسبب سعة الانتشار واطراد الخواص وتوافقها .

لقد كانوا مغرمين بالقياس حقاً، حتى إن بعضهم نصب نفسه للدفاع عنه، وترويج أحكامه، واتخذها مبدأ عاماً في صناعة النحو، وتصنيف مسائله وقضاياها . وما هو ذا ابن جني يرى إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلًا وجب أن يكون قياساً وعقلاً .

ورأي آخر أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو قياس كله، فمن أنكره فقد أنكر النحو كما ينسب إلى الكسائي قوله : " إنما النحو قياس يُتبع وبه في كل أمر يُستفغ ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزوه إلى توسيع دائرة القياس وتشعيب مسائله، فنظروا في أركانه وأصوله، قصداً إلى الأخذ بها وتطبيقها على التفكير النحوي .

الفصل الأول

ولقد كان لواحد من هذه الأركان شأن أي شأن في معالجة قضايا النحو ومسائله؛ ذلك هو مبدأ " العلة " . فكل شيء عندهم علة منطقية، ومن ثم أخذوا يلتمسون العلل والأسباب للظواهر النحوية، ويجمعونها ويصنفونها إلى مجموعات، حتى ضاقت بها كتب النحو وامتألت بها أدمغة الدارسين والمتعلمين قبل أن تمتلئ بالحقائق اللغوية المتمثلة في القواعد والضوابط الأصلية التي ينتظمها الكلام الفعلي .

أما أمثلة هذه العلل فكثيرة متنوعة : فهناك علل الإعراب، لم رُفِعَ الفاعل ولم نُصِبَ المفعول مثلاً ؟ وعلل البناء وأنواع البناء : لم بُنيت هذه الصيغة أو تلك ؟ ولم كان بناؤها على الفتح أو الضم أو السكون مثلاً ؟ وهناك علل التشبيه ، كما في إعراب المضارع لمشابهته للاسم، إلى غير ذلك من العلل التي أفرطوا في الجري وراءها، وفي تشعيب أنواعها، حتى أصبح لديهم ما يعرف بالعلل الأول ، والعلل الثانوي، والثالث . وإنك لو نظرت في هذه العلل كلها أو جلّها لوجدتها عللاً متهافئة عارية من الفائدة بعيدة عن الواقع . وإنما الواقع في الحقيقة أن جميع الظواهر اللغوية نحوية كانت أم غير نحوية إنما ترجع إلى المتكلم نفسه، فهو صانعها والمنشئ لها .

ولقد كان لهذا الضرب من التفكير الفلسفي آثار بعيدة المدى؛ إذ جرهم إلى الاهتمام بالصور والأشكال أكثر من عنايتهم بمعاني الكلام ووظائفه . ومن ثم ضاع كثير من حقائق النحو وسط هذا الزحام من مسائل الجدل الصوري، وهي مسائل أثقلت كاهل الدارسين والمتعلمين ، وحالت دون وقوفهم على واقع اللغة ، كما جاءت على ألسنة أصحابها، لا كما رسم النحاة وأرادوا لها .

وهكذا نرى أن كثيراً من صعوبات النحو العربي ومشكلاته ترجع إلى التجاء النحاة إلى التفكير المنطقي والنظر الفلسفي مضحين في كثير من الأحوال بواقع اللغة واستعمالها الحي . من أهم آثار هذا النهج الغريب عن طبيعة اللغة - بالإضافة إلى ما ذكرنا- ظهور ما عرف فيما بعد بـ " نظرية العامل " ، فإذا كان " لكل حادث محدث " في الفلسفة الكلامية فكذلك " لكل معمول عامل " عند رجال النحو . ومعناه في

المنهج

اصطلاحهم أن هناك علة لكل حالة من حالات الإعراب من رفع ونصب وجرّ وجزم، وكذلك حالات البناء وإن لم تتغير صور الصيغة المعينة من مكان إلى آخر في الجملة والعبارة . وهذه العلة عندهم تكمن في العامل الذي يقوم بدور التفسير والتوضيح لحدوث هذه الحالة الإعرابية أو تلك في هذا الموقع أو ذاك . فإن كان هذا العامل موجوداً فقد عثر النحاة على ضالّتهم ، وإلاّ يكن ، قترّوه وافترضوا وجوده على وجه يتسق مع الحالة الإعرابية المعينة . وقد يكون العامل شيئاً معنوياً ليس له وجود لفظي في الكلام ولا يمكن تقديره أو افتراض صورة لفظية له، كما في حالة " المبتدأ " ؛ إذ هو مرفوع " بالابتداء " عند قوم منهم .

ولقد كان لهذه النظرية دور خطير في تععيد النحو وتصنيف أبوابه وتبعية مسائله وتشعيب أمثله إلى حدّ أصبحت معه قضايا هذا العلم - وقضايا الإعراب بخاصة - تدور وجوداً وعدمياً وصحة وفساداً مع المفهوم الفلسفي لفكرة العامل . وقديماً قالوا " الإعراب بخاصة - يدور وجوداً وعدمياً وصحة وفساداً مع المفهوم الفلسفي لفكرة العامل " . وقديماً قالوا " الإعراب أثر يجلبه العامل " كما وضع علماء النحو كتباً مستقلة في العامل وصنوفه : وضع أبو علي الفارسي كتاباً سماه " العوامل " وكذلك ألف عبد القاهر الجرجاني كتاباً آخر هو " العوامل المائة " .

وقد بدا لنا بعد تدبّر هذه المقاربات للتراث أن عيبها هو اتّصافها بالتجريبية . ونحن لا نقصد بالتجريبية تلك النزعة في العلوم التي تفضي باعتماد التجربة قبل إصدار أحكام علمية ، فتلك من محاسن المنهج العلمي، وإنما الذي نقصده بالتجريبية [empirisme] ، هو قلة التنظير للممارسة العملية وعدم وعي الباحث بالمسلمات التي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعية .

ونودّ أن نرفع التباساً قد يعرض فقولنا قد يوهم أن التجريبية هي دائماً نتيجة تقصير من الباحث والحق أنها قد تكون نتيجة مرحلة تاريخية تكيف جهود الأفراد رغماً عنهم .

الفصل الأول

وفيما يتعلق بموضوعنا فإن مقاربات التراث اتّسمت بالتجريبية ؛ لأنها في الأغلب الأعمّ عندما كانت تنقد التراث النحوي وتقيّمه لم تكن تستند إلى نظرية واضحة لما ينبغي أن تكون عليه الدراسة اللغوية العلمية ، ولما ينبغي أن تكون عليه الدراسة العلمية عموماً ، ولم تكن واعية بكل الصعوبات والإشكالات النظرية التي تقتضيها عملية التقييم هذه .

ولهذا الوضع أسباب كَيْفَتُهُ : منها ما يتعلق بالدواعي التاريخية والاجتماعية والحاجات الظرفية التي كانت وراء هذه المقاربات وهي أسباب عريية داخلية . ومنها خاصة ما يتعلّق بنشأة النظرية العلمية للدراسة اللغوية ، وتطورها ، وكيفية تقبلها ، ومدى تمثّلها من قبل اللغويين العرب ، ونعني بذلك علم اللسانيات .

هذا العمل قراءة للتراث النحوي ومحاورة له بالاعتماد على إطار نظري واضح ومتناسق ، ينطلق من قراءات التراث السابقة له من إبراهيم مصطفى إلى د/تمام حسان ، فيعتمدها ويبني عليها ، وهو إذ يقدّر حق قدرها يحاول أن يتفادى أخطاءها ونقائصها . وهي تتلخص فيما سميناه " التجريبية " ^(١) Empirisme التي تمثل العيب الأساسي لمقاربات المحدثين للتراث النحوي ونقصد بالتجريبية قلة التنظير للممارسة العلمية وعدم تفكير الباحث في منطلقاته ومسلّماته .

ولهذا السبب استعصى على المحدثين صياغة القضايا التي يثيرونها والأهداف التي يرمونها صياغة صريحة . وقد كان ذلك بسبب ضعف أسسهم النظرية على مستويين :

- على مستوى إدراك خصائص النظرية العلمية عموماً وشروط بنائها ومستويات التركيب فيها ، وما تتفصل به من التأمل الفلسفي العميق والتفكير المذهبي أو الوثوقي .

(١) د/ فارس الفهري : اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية ، الكتاب الأول ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ١٩٨٥ م ، ص ٥٧ .

المنهج

- على مستوى الدراسة اللغوية لما تتميز بها الظاهرة اللغوية من تشعب وما تقتضيه مباشرتها من احتياطات منهجية .

وقد حاولنا أن نتجنب هذا النقص في قراءات اللغويين العرب السابقين لنا على هذين الصعيدين . فقد اتضح لنا - بفضل تأخرنا التاريخي عنهم ، الذي ييسر عملنا - أنه بدون هذا الإطار النظري المتكامل لا يمكن صناعة تأويل متين للتراث النحوي وتوضيح علاقته باللسانيات ، ومن ثم علاقتنا به .

وقد اقتضى منا تقديم والسعي إلى تجاوز الغاية التي بلغوها أن نفصل في النظرية العلمية عموماً ، وفي النظرية اللغوية بصفة خاصة بين مفهومين أساسيين :

- الفرضيات العامة .

- أنظمة .

وهو فصل معهود في فلسفة العلوم [epistemologie] والمنطق والعلوم الصحيحة . ويمكن اعتماده من إدراك دقيق لما يميز التفكير العلمي الحديث من الممارسة العلمية التي سبقتة . ولما كانت اللسانيات أحد العلوم الحديثة فإنه يسمح بتحديد ما يميز اللسانيات من التفكير اللغوي القديم، وفهم تطور هذا العلم ، وإنارة الجدل بين أصحابه في ما يتعلق بضبط منرجاته الحاسمة .

إلا أن أهم ما في هذه الثنائية في ما يتعلق بموضوع بحثنا - أنها تيسر تحديد ما نريد دراسته من التراث النحوي تحديداً دقيقاً . وقد مكنتنا من توضيح القضية التي أثارها اللغويون العرب المحدثون عند تقديمهم للتراث النحوي، وتقديم الإجابة التي راموها وأخطئوها لافتقارهم للأدوات النظرية التي تمكنهم من ذلك .

السؤال التالي يمثل الصياغة الدقيقة عندما راموا إصلاح النحو وتيسيره : ما قيمة النظام النحوي العربي بعدة جملة من القواعد الصرفية والإعرابية بالنظر إلى ما جدت فيه اللسانيات في وصف الألسنة البشرية ؟

الفصل الأول

ذلك أن تراثنا اللغوي قد تتابع عليه الباحثون من الأسلاف وحتى المعاصرين في أيامنا هذه ، والمعياريّة نصب أعينهم، لا يحيدون عن أسسها فيما يعالجون من مسائل الفصحى سواء في الجوانب الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلالية .

ويحاول بعض المحدثين من اللغويين العرب تجاوز قيود المعيارية في بحوثهم متطلعين إلى تطبيقات وآفاق نظرية، تعتمد على الدرس الوصفي المجرد ثم تنقلب إلى صياغة حيّة معاصرة ، فيها عربية تختلف كثرة وقلّة في ضوابطها عن الموروث التقعيدي والاستعمالي ولا يستقيم لنا فهم الطرائق التي تجري في التحليل ما لم نقف على أبعاد هذا المنهج المعياري، ونفصل بين مساحات لا بد أن يغطيها وأخرى تظل متاحة فيها فرص التناول التطوري والتجديدي للعربية .

لقد كان علماء العربية يقيسون الأداء اللغويّ سواء في مستوى التعامل اليومي أو في النتاج الفني والفكري والعلمي بمعاييرهم التي استتبعت في عصور الاحتجاج ، ومن ثمّ تصدر الأحكام لتبرز التوافق أو التنافر، أي الصواب أو الخطأ، وهذا يعني أن قواعدهم كانت سابقة على تأملهم ونقدهم ولا سبيل إلى درس وصفي يمكن أن يؤدي إلى إثبات ما يخالف أصلاً عرف مكانه في منظمة تقعيدية، ولقد ربط السيد الشريف الجرجاني [ت ٨١هـ] في تعريفاته بين المعايير العقلية وتلك اللغوية، فالمنطق " آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر فهو علم آلي " ... وهذا التعريف " يخرج العلوم القانونية التي لا تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر ، بل في المقال كالعلوم العربية " .

إن القول بإمكان لدرس يتناول العربية الفصحى وصفيّاً في كل حقبة مرّت بها منذ الجاهلية القديمة إلى العصر الحديث، يبدو بحاجة إلى برهان يزِيل التداخل بين هذه الوصفية وما سببني عليها من علاقات تطورية وذاك النهج، الذي يختم اتباع المعايير والقوانين التي استنّها علماء العربية الفصحى .

المنهج

الوصفية وما سببني عليها من علاقات تطورية وذاك النهج، الذي يختم اتباع المعايير والقوانين التي استنتجها علماء العربية الفصحى .

لقد انتهى علماء اللغة إلى أن " وظيفة اللغوي هي وصف الحقائق لا فرض القواعد " (١) ، وتلك وظيفة لم يفهمها على حقيقتها أحد مثملاً فهمها وطبقها سلفنا الصالح من علمائنا الأولين، إذ أنشأوا في فجر الإسلام يجمعون اللغة ورواياتها، ويحصون نصوصها كل التمهيد، ويضعونها لطرائق الاستقراء، ليخرجوا منها بما يسمونه " سنن العرب في كلامها " .

يمكننا القول إذن : إن منهج دراسة اللغة عند العرب بدأ وصفيّاً استقرائياً، تقرر فيه الوقائع في ضوء النصوص، لا تفرض على أحد ولا يقضى بها على أحد .

ولكن هذا المنهج السليم سرعان ما انحرف واعتراه الضعف، منذ أن استبدل العرب القواعد بالحقائق، والمعايير بالوقائع، والإلزام المتسلط بالوصف الدقيق الأمين، وبدأ الناس يسمعون من اللغويين مثل هذه اللهجة الجازمة الحاسمة : " وليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها. ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن " (٢) .

عولوا أول الأمر على سليقة الأعرابي، وظنوا أنه " إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به " (٣) ، واقتنعوا بأن الأعراب " قد يلاحظون بالمنّة والطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع " (٤) ، ومع احتمالهم أن العربي الفصيح ينتقل لسانه (٥) إذا فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩م ص ١٨٨ .

(٢) ابن فارس: الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨هـ .

(٣) ابن جني : الخصائص ٢٢٤/١، تحقيق محمد علي النجار ، ط دار الكتب المصرية ١٩٥٢م .

(٤) السيوطي : المزهري ٣٠٩/٢ ، ط ٣ ، دار إحياء الكتب العربية .

(٥) ابن جني : الخصائص ٤٢١/١ .

الفصل الأول

المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، ومع رغبتهم حينئذ في رفض لغته، وترك تلقى ما يرد عنه، رأيناهم يجنحون إلى تقييد الباحثين بما قاسه أولئك الأعراب، وقالوه فلا يجرؤ أحد على قياس ما لم يقيسوه .

وقد وقعوا على الخطأ المنهجي الأول ؛ إذ جعلوا سنن العرب في كلامها ما سنته قریش أو تمثّلته ، وأخضعوا مقاييسهم لما سمعوه من ألفاظها وتراكيبها، ثم فرضوا على أنفسهم وعلى الناس هاتيك المقاييس، فقال قائلهم : " وعلم مقاييس كلام العرب هو النحو ... " (١).

ولو وقفوا عند هذا لهان الأمر ، ولكنهم ألحقوا به خطأ منهجياً آخر حين قطعوا ما بين العربية وأخواتها السامية من صلات، فأروا خصائص العربية من خلال الزاوية التي أعجبهم؛ لأنها أوسع اللغات وأشرفها وأفضلها (٢)، لا من خلال مقارنتها باللغات التي تربطها بها أواصر القربى . وأنكروا أن يكون لغبر العرب من البيان أو الشعر أو الاستعارة ما للعرب : " يلي الشعر شعر العرب، ديوانهم وحافظ مآثرهم، ومقيّد أحسابهم " (٣) .

وخصائص العربية نفسها لم تكتشف على حقيقتها فيما كتبوه؛ إذ كان المؤلفون في هذه الخصائص يبحثون عنها متأثرين بالمنطق الأرسطي الذي لم تقف عدواه عند حد، فكان لها أثر في علم الكلام والفقه، مثلما كان لها أبلغ الآثار في دراسة اللغة (٤)، والأدلة على هذا التأثير لا تحصى عدداً ، وأوضح مثال لذلك تحليلهم مقاييس العربية، وأنها على وجه الحكمة كيف وقعت، وأنها " أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل

(١) السيوطي : الاقتراح ص ٦ ، ط ٢ ، حيدر آباد ، ١٣٥٩ هـ .

(٢) ابن فارس: الصحابي ص ١٢ .

(٣) ابن فارس: الصحابي : ص ٤٣ .

(٤) د/ تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ١٧-٢٣ .

المنهج

المتفكرين ... وذلك أنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام ، ووجوه الحكمة فيها خفية عنا غير بادية الصفحة لنا ^(١) . لذلك نادى ابن مضاء بسقوط كثير من هذه العلل التي لا يراد بها إلا إثبات الحكمة والمنطق التعليلي للعرب، فقال : " ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثواني والثالث، وذلك مثل سؤال السائل عن [زيد] من قولنا : [قام زيد] ، لم رفع ؟ فيقال : لأنه فاعل، وكل فاعل مرفوع، فيقول: ولم رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقال له : كذا نطقت العرب . ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر ولا فرق بين ذلك وبين من عرف أن شيئاً ما حرام بالنص، ولا يحتاج فيه إلى استنباط علة ، لينقل حكمه إلى غيره، فسأل لم حرّم ؟ فإن الجواب على ذلك غير واجب على الفقيه " ^(٢) .

وانتقلت عدوى المنطق الأرسطي أيضاً إلى العربية عند تطبيق المقولات العشر على أبواب النحو ومباحثه، وهذه المقولات هي : الجوهر والكم والكيف والزمان والمكان والإضافة والوضع والملك والفاعلية والقابلية . ومن السهل أن نقارن بين الدراسات النحوية العربية وتلك المقولات إذا تجردنا في نظرتنا إلى بحوث بعض العلماء المعاصرين ^(٣) .

أما مباحث القوم حول أصل اللغة، إلهام هي أم اصطلاح ، فكانت ذات وجهين كلاهما يخرج عن المنهج الوصفي ، ثم يتلون باللون المناسب له، أما أحدهما فغيبى " ميتافيزيقي " كقول ابن فارس : " إن لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، فكان ابن عباس يقول : علّمه الأسماء كلها، وهي هذه

(١) ابن جني : الخصائص ٤٦/١ .

(٢) ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ص ١٥١ ، تحقيق د/ شوقي ضيف ، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٤٧ م .

(٣) د/ تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص ١٨ وما بعدها .

الفصل الأول

التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ...»^(١).

وأما الآخر فمنطقي في تعابيرهِ واستنتاجاته ، لتأثرهِ بالمناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، ولاسيما إذا وصفت هذه المناسبة بأنها ذاتية موجبة لا يجوز أن تتخلف كما كان يرى عبّاد بن سليمان الصيمري من المعتزلة. ولا يبتعد عن هذا الميدان المنطقي تساؤل ابن جني عن اللغة : أمّا موضة هي أم إلهام؟^(٢).

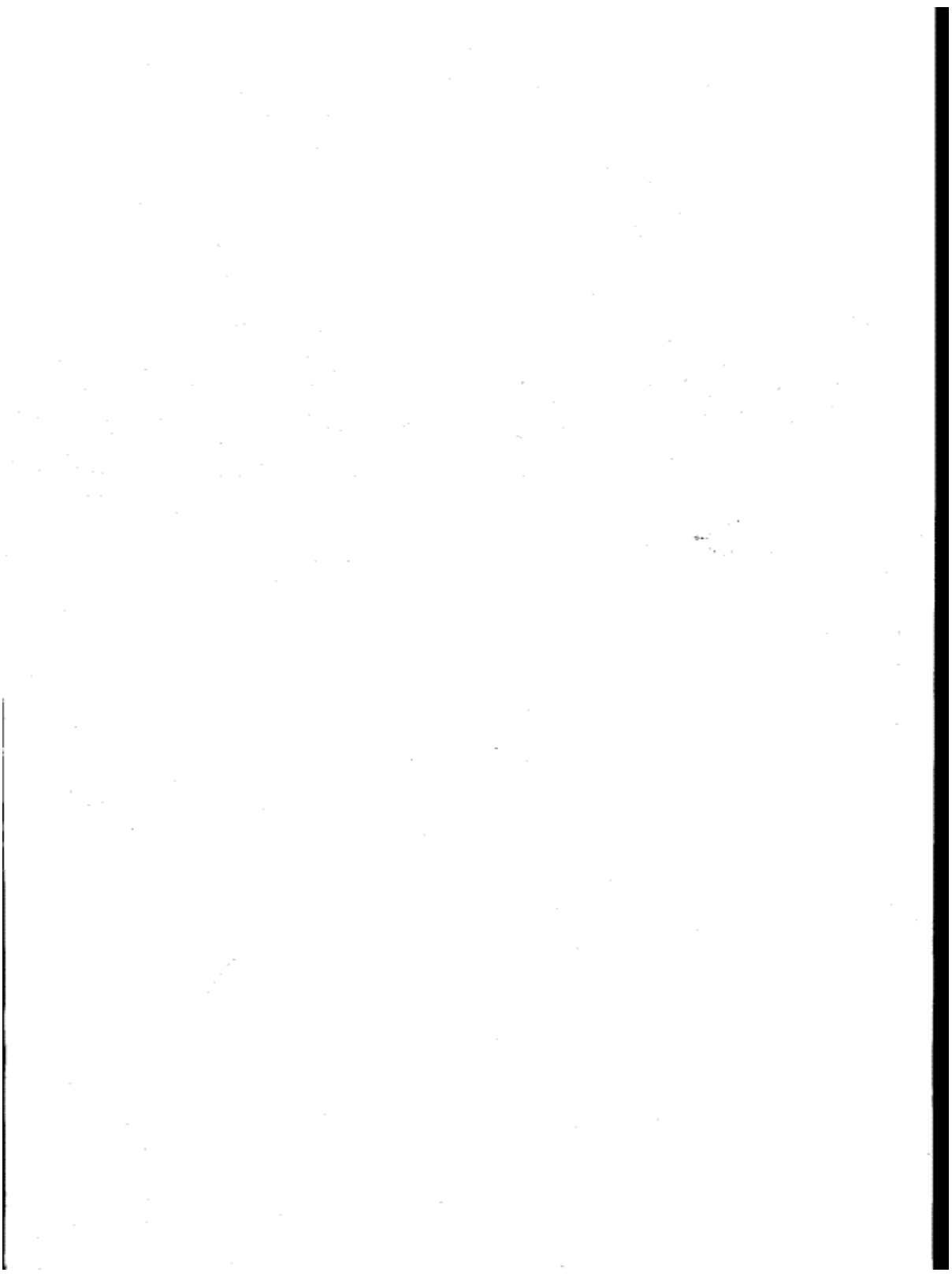
ففي الموضة تبرز تلك المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، ويتبين مدى التأثير المنطقي.

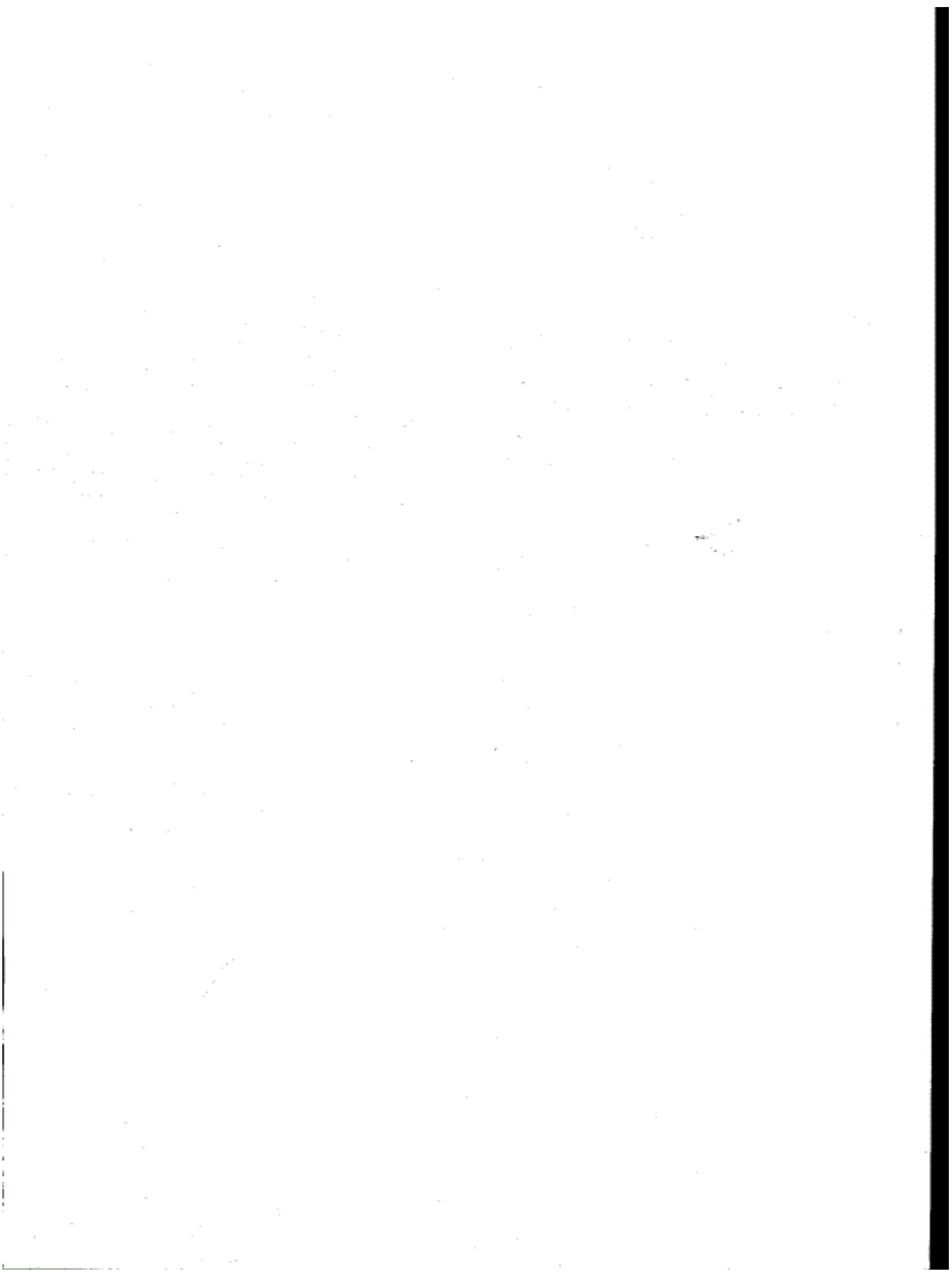
من هنا كان علينا أن نقضي جانباً جميع المباحث التي لا تتعلق بدراسة اللغة تعلقاً وثيقاً، فالمنطق الصوري وتعليقاته وأقيسته، وما وراء الطبيعة من الغيبيات، وفرض القواعد والمعايير كما تفرض أحكام القانون، كل هذه ليست من المنهج اللغوي في شيء ، فلا مناص من تجديد البحث في دراسة اللغة إذا أردنا للغتنا الحياة والخلود.

والقواعد الموجودة في " علم المنهج " Methodology لا تعني قتل روح الإبداع في الباحث؛ لأنها ليست قيداً على فكره، أو محاولة للإيقال عليه، وإنما يأخذ بها على سبيل الاهتداء، وهي قابلة للإضافة والتعديل حتى تكون متوافقة مع موضوع البحث، وعرضة للتغير وفقاً للتطور الذي يحدث في العلم، والجديد الذي يطرأ عليه.

(١) السيوطي : المزهري ٤٧/١ ، ط ٣ .

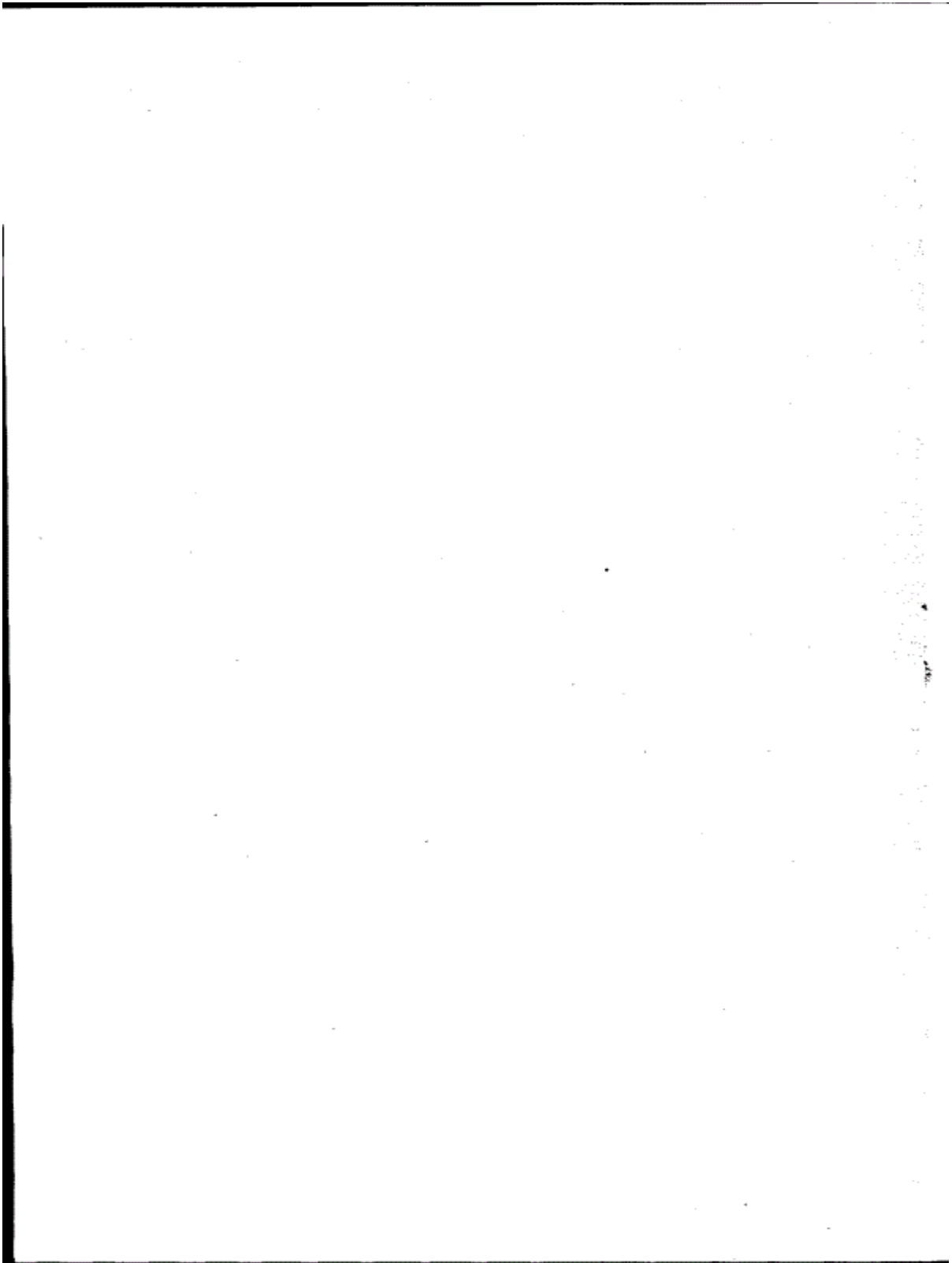
(٢) ابن جني : الخصائص ٣١/١ .





الفصل الثاني

مقومات البحث العلمي



الفصل الثاني

ترجع أهم شعب البحوث إلى قسمين :

بحوث علمية ، وبحوث فنية ، ويطلق العلم Science اصطلاحاً على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض، والتي تربطها بغيرها، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها .

ويطلق الفن Art اصطلاحاً على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العلمية . فالعلم هو ما يتحقق في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة وسواها . ويعتمد هذا التعريف على المثال Example .

وهو مجموعة من المعارف المنظمة التي تدور حول موضوعات عقلية وطبيعية وإنسانية ، وهو الذي يدرس هذه الموضوعات خلال وجهات النظر المتباينة. ويعتمد هذا التعريف على " الموضوع Object " .

وهو دراسة ذات منهج ثابت لا يتغير بتغير الحالات، وهذا المنهج يعتمد على الاستنباط أو الاستقراء أو الحدس أو الاستبطان، مع الكشف عن مجموعة من الحقائق التي نعبر عنها بصيغ عامة أو قوانين . ويعتمد هذا التعريف على " المنهج Method " . وهو سلسلة متشابكة الحلقات من المفاهيم والقوانين والنظريات والحقائق التي تتطور وتتعدل دائماً .

وهو مجموعة من نتائج البحوث والدراسات، ومن الحقائق والنتائج . والعلم بهذا المفهوم يستحيل أن يكتمل؛ لأنه نتيجة جهد متواصل للعلماء؛ لذلك يقال عن هذا التعريف إنه يتصل بالتطور والتغير Dynamic .

وهو مجموعة من المبادئ والقوانين والنظريات والمعارف المنسقة التي وصلنا إليها ، ويشير هذا التعريف إلى الحالة الراهنة للعلم، دون الاهتمام بما يحدث فيه من

مقومات البحث العلمي

تقدم لاحقاً، وهو يدل على اكتمال العلم، وإن كان هذا مستحيلاً، ويؤدي إلى توقف البحث وتحول المبادئ والقوانين إلى معتقدات جامدة؛ لذلك يقال عن هذا التعريف إنه تعوزه الحركة والحياة فهو ساكن أو راكد أو مستقر Static^(١).

والعلم ليس قوة معادية لأحد، ولا منافسة لأي شيء، والعالم شخص لا يهدد أحداً، ولا يسعى إلى السيطرة على أحد، وكل المعارك التي حورب فيها العلم والعلماء كانت معارك أساء فيها الآخرون فهم العلم، ولم يكن العلم ولا أصحابه هم المسئولون عنها، وأعظم خطأ يرتكبه المدافعون عن مبدأ معين، أو عن ضرب من ضروب النشاط الروحي للإنسان هو أن يعتقدوا أن العلم مصدر خطر عليهم، ويضعوا مبدأهم أو نشاطهم الروحي في خصومة مع العلم.

والعلم لا يهدد أحداً، وإنما هو في أساسه منهج أو أسلوب منظم لرؤية الأشياء وفهم العالم، وكل تقدم أحرزته البشرية في القرون الأخيرة إنما كان مرتبطاً، بطريق مباشر أو غير مباشر بالعلم^(٢).

غير أن توظيف منجزات العلم في العدوان والقهر والاحتلال وتدمير الشعوب وبث روح الفرقة عن طريق التفريق بين الأديان والأعراق والتركيز على استثمار العلم في إنتاج أسلحة الدمار الشامل والاستحواذ عليها ومنع الآخرين من امتلاكها هو السبب الحقيقي في اتهام العلم بما اتهم به.

وثمة من يرى أن " المؤلفات الأرسطية تشكيل موسوعة كبرى انتظم فيها العلم القديم بأكمله عدا الرياضيات^(٣)، وأن الأهمية التي تقدم من وجهة النظر المنهجية تكمن في أن أرسطو هو " أول من نظر إلى العلم في مجموعة، ووضع مبادئ تصنيف

(١) انظر د/ علي عبد المعطي، د/ السرياقوسي : كتاب أساليب البحث العلمي ص ٢٩ ، ٣٠ ، مكتبة الفلاح، دولة الكويت ، ١٩٨٧ م .

(٢) د/ فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ١١ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ م .

(٣) يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ص ١٦ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٥ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

الفصل الثاني

تألم للعلوم يتمثل في مجموعة كتبه^(١)، ونجده يقسم العلم إلى نظري ينتهي إلى مجرد المعرفة: العلم الطبيعي، ما بعد الطبيعة، الرياضي، وعلم عملي يرمي إلى غاية متميزة من المعرفة، وهذه الغاية هي تدبير الأفعال الإنسانية، إما في نفسها، وهذا هو العلم العملي بمعناه المحدود، وإما بالنسبة إلى موضوع يؤلف ويصنع، وهذا هو الفن، ومن العلم العملي: تدبير أفعال الإنسان والأخلاق والسياسة^(٢).

أما المنطق فلم يدخل في أي من القسمين السابقين "وهو علم يتعلم قبل الخوض في أي علم آخر ليعلم به أي القضايا يطلب البرهان عليها، وأي برهان يطلب في كل قضية .

كما يعد البحث وسيلة منهجية للاكتشاف والتفسير العلمي والمنطقي للظواهر، والاتجاهات والمشاكل، وينطلق من فرضيات أو تخمينات يمكن التأكد منها باتباع سبل تحقق أهدافاً، ويمكن قياسها بقوانين طبيعية أو اجتماعية يحتكم الناس إليها، ويستهدف الوصول إلى نتائج تحقق رغبات الباحث أو الجهة المتبينة للبحث، سواء كان هذا البحث نظرياً تفسيرياً أو تحليلياً نقدياً أو أنه تطبيقي يلتجئ إلى الميدان أو المعامل والمختبرات .

وبعد الموضوع هو البحث العلمي، فما العلاقة بين البحث والعلم؟، يعد البحث هو وحدة الإثراء العلمي، والعلم هو وحدة الإثراء المعرفي، والمعرفة أوسع مجاًلاً من العلم، والعلم أوسع مجاًلاً من البحث، فالعلاقة ترابطية، لولا العلم ما بحثنا ولولا البحث ما تعلمنا .

(١) يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٨ .

مفهوم البحث من الناحية الاصطلاحية :

عرّفه القدماء بأنه " إثبات النسبة الإيجابية ، أو السلبية بين الشئين بطريق الاستدلال " (١) .

كما عرّف المحدثون البحث [Research] بأنه : " طلب الحقيقة وتقصيها وإذاعتها في الناس " (٢) .

مما سبق يتضح : " أن البحث وسيلة للفحص والاستقصاء المنظمين والتفتيش الدقيق ، وهو ما يقوم به الباحث لاكتشاف معلومات أو علاقات جديدة، أو لتطوير معلومات موجودة، أو تصحيحها أو تحقيقها، على أن يتبع في ذلك خطوات المنهج العلمي، وينهج الطريقة العلمية، ويتخذ الأدوات اللازمة للبحث، وجمع البيانات والمعلومات (٣) .

والتضحية Proposition التي ينطوي عليها أي حقل من حقول البحث على ثلاثة أنواع :

أولاً : تحديد أهداف البحث، وتشخيص الأشياء التي هي قيد الدرس .

ثانياً : وصف الطريقة أو الأسلوب .

ثالثاً : النتائج أي ذكر الحقائق التي تظهر من البحث .

فالبحث العلمي رحلة تبدأ بالفكرة وتحديد الهدف، ثم الإعداد لها بما يصاحب الباحث من دراسات ونصوص أو ما تعترضه من صعوبات وعقبات أثناء عبوره

(١) الجرجاني: التعريفات ص ٣٦ ، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط١، ١٤٠٥هـ، الناشر دار الكتاب العربي .

(٢) د/ علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي، ص ٢٧ ، ط٧، مطبعة الديواني ببغداد، ١٩٨٦م .

(٣) د/ محمد سعد: الموجز في البحث اللغوي ، ص ٨ ، ٩، ١٤١٤هـ .

الفصل الثاني

لجسر من الدراسات السابقة والمعاصرة له في موضوعه وما يجابهه من مخاطر لعدم اتصال تلك السلسلة أو ذلك الجسر بانعدام بعض المراجع أو عدم توافرها .

والقيام بمثل هذه الرحلة حتى منتهى أمر صعب للغاية وشاق وعسير ، إلا أن تحقيق بعض الأهداف أو المشاركة على تحقيقها يحيل كل ذلك الجهد والمشقة والمعاناة متعة حقيقية يكاد الباحث يحسها بكل أقطار نفسه ومشاعره إن لم يقبض عليها بكلتا يديه .

يكتسب تصور النظرية العلمية في نظرنا أهمية كبيرة؛ لأنه يوضح خصائص المنهج العلمي الحديث ، ويبين ما يميزه من النماذج العلمية الحديثة . فضرورة صياغة فرضيات عامة متناسقة منطقياً فيما بينها ~~والتأكد من صحتها~~ وتوطئتها ثم صياغة أنظمة إجرائية تستمد شرعيتها من تلك الفرضيات السابقة تمثل في ظننا خاصية من أهم الخصائص التي تميز مولد العلم الحديث أو العلوم الحديثة بداية بالعلوم التجريبية .

ولئن كان من البديهي أن هذا التماسك الداخلي بين هذين الضربين من الفرضيات يمثل سبباً أساسياً من الأسباب التي تفسر نجاعة العلوم الحديثة الإجرائية ، فإن العلاقة الجدلية بين الفرضيات العامة والأنظمة تفسر هي الأخرى تطور العلوم الحديثة ونسبيتها وخصوصيتها المعرفية . ذلك أن الفرضيات العامة تسمح ببناء أنظمة ناجعة إجرائياً ، ولكن بناء أنظمة يُمكن هو أيضاً من تعديل الفرضيات العامة أو مناقشتها أو الإضافة إليها . وتسمح هذه العلاقة المتبادلة بتوسيع تدريجي لمجال العلم ضمن سجال وجدل بين العلماء يؤكد دائماً نسبية الحقيقة العلمية وتاريخيتها .

والذي تلفت النظر إليه أن هذا المنهج هو الذي يقف وراء التراكم الهائل للمعارف والتطور السريع للعلوم الذي لم تعرف له البشرية نظيراً من قبل ، وهو في ظننا من أهم مقومات الحداثة ، ويبدو لنا أن هذا التطور يسمح بفهم تطور العلوم التجريبية عامة وبيسر عرض تطورها .

مقومات البحث العلمي

ومهما كان الأمر فإن اعتماده قد مكّننا من فهم أفضل لتاريخ اللسانيات وتقديم أوضح لتطورها وتفهم أكبر للموضوعات التي احتدم فيها النقاش والسجال ولخلفيات أصحابها .

وهناك من الدارسين في العصر الحديث من يثير مسألة صلة الفلسفة بالعلم - من زاوية تكوين المنهج - للمداولة والمناقشة، فيتساءل كلود برنارد : هل الفيلسوف أو العالم هو الذي يضع القواعد للمناهج العلمية ؟

وإنه يرجح أن المناهج لا يمكن أن تدرس نظرياً مثل قواعد عامة يفرض على العالم بَعْد أن يسير وفقاً لها، وإنما تتكون داخل المعمل الذي هو معبد العلم الحقيقي، وإيان الاتصال المباشر بالواقع والتجارب العلمية^(١).

وثمة رأي يحاول التوفيق بين تشدد " برنارد " وأصحاب النظر العقلي المتمايز من الواقع التفصيلي، فمهمة الفيلسوف لا تتنافى مع مهمة العالم، لأنها خطوة تليها . فعلى العالم المتخصص أن يرشدنا أولاً إلى المنهج الذي تتبعه في أبحاثه، وأن يطلعنا على الخطوات التي مرّ بها في بحثه في مضماره الخاص، ثم يأتني عالم آخر أميل إلى النظرة العامة، أي يكون ذا نزعة فلسفية فيحاول أن يتسق بين هذه التقريرات التي قدمها العلماء المتخصصون ليستخلص منها الخصائص العامة للمناهج المختلفة، ثم يأتي الفيلسوف المنطقي فيسعى لإرجاع هذه المناهج إلى صفات ذاتية في العقل الإنساني، محاولاً أن يصوغ النتائج التي وصل إليها السابق في صيغ واضحة تنظم على هيئة مذهب في العقل الإنساني، من حيث طبيعة اتجاهاته في البحث عن الحقيقة^(٢).

(١) د/ عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي ص ٧، دار النهضة المصرية ، القاهرة، ط١، ١٩٦٨ م .

(٢) د/ عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ١٧ .

الفصل الثاني

ونصل إلى النقطة التي تخصص القول في معيارية المنطق، فبعد أن رأينا تحديد المنهج بين المنطقي والفيلسوف والعالم الذي يمارس العمل والدرس في مجال بعينه من مجالات العلوم، يطلعنا الحوار حول كون المنطق علماً أو فناً على المزيد من الخصائص لوظيفة المنطق المحددة لمعايير [الصواب والخطأ] والمطبقة في هذا العلم أو ذاك، فالذين نظروا إلى المنطق على أنه علم كما فعل أرسطو يقصرون المنطق على دراسة قوانين البرهان، والذين يرمون في المنطق إلى وضع قواعد وفرضها لتوجيه العقل، وبيان المناهج العملية المؤدية إلى تحصيل المعارف في العلوم المختلفة، ويدرسونه من أجل هذه الفائدة يعدون المنطق فناً وعلماً، أو فناً بوجه خاص^(١).

وهناك من يجمع بين الطرفين - حيث يتتابع جماعة بور رويال ، وفنت ، وليفي بريد ، وزمل - و " جيلو " يرى أن لا مجال لهذه التفرقة .

ويقول دارس عربي إن المنطق ليس فناً أي عملاً، كما أنه ليس معيارياً أي علماً يبحث في قيمة الغايات نفسها، وإنما المنطق علم بالمعنى الدقيق أي طائفة من الحقائق الخاصة بموضوع معين، هو في كلمة واحدة : علم التفكير الصحيح^(٢).

وإننا بعد هذا الاطلاع على جوانب درس المنطق الأرسطي ندرك الوشائج التي يتصل بعضها ببعض من تحقيق المنهج المنطقي ونقله إلى العلوم، ومدى تطابق المهمة التي تولد المنطق من أجلها أولاً مع أغراض العلم في وجوهه المتعددة .

وتبرز أهمية دراسة المنطق في مقام تفسير مناهج البحث اللغوي عند أصحاب التأليف العربية القديمة في القرون الهجرية الأولى، فلقد اتضح أن ذلك المعيار في الصواب والخطأ [أو الميزان] الذي أمكن أن يستخرج قوانين للعقل ونشاطه بانعكاس العقل على نفسه [ذاته] دارساً متأملاً قد استعير واستعمل لينظم الحركة الذهنية

(١) د/ عبد الرحمن بدوي: المنطق السوري والرياضي ص ١٧، دار النهضة المصرية، القاهرة ،

ط ١٩٦٧، ٢٢٠ م .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٣ .

مقومات البحث العلمي

[العقلية] في أوجه التفكير والعمل المختلفة للحياة، فلم يعد محصوراً في مضمار آفاقه هي التصورات والتصديقات المنطقية مضافة إلى المبادئ الأولى الثابتة في العقل البشري السليم ومؤدية إلى البرهان والأقيسة المنفرعة منه .

والمنطق الأرسطي إنما يحلّ في إطار التراث القديم [عربياً] على أنه منهج، أي يمثل خطأً عقلياً متميزاً له أدوات جزئية استطاع بها التوصل إلى تحقيق جزئيات علم من العلوم، ومن ثم بناء أركانه .

ويبقى أمر في المنطق الأرسطي هو المؤثرات المتبادلة بين دراسة النحو واللغة والبحث المنطقي : فقد كانت نشأة المنطق مرتبطة باللغة والنحو عند اليونان، وإن دراسة الآجرومية النحوية اليونانية تتبدى في أقسام رئيسة في كتب أرسطو، وقد ربط " السفسطائية بين الكلمة والعقل، وقد استعملوا خصائص اللغة وألفاظها في جدلهم، وارتقوا بعد ذلك إلى ضروب من الفن الخطابي المستهدف الإقناع في المحاورات ^(١) .

وتطالعنا لدى أرسطو أبحاث التصورات التي تتصل اتصالاً مباشراً باللغة، فتقسيم الكلمة إلى مفرد ومركب ، والبحث في الألفاظ المشتركة والمترادفة، والمتزايدة والمتواطئة ظاهر العلاقة بمباحث لغوية، وكذلك باب [العبارة] من القضايا وأقسامها الحملية والشرطية ، وأجزائها: الفعل والاسم والحرف .

ونعود إلى استخلاص الدرس المستفاد مما سبق، إذ يتأكد لنا أن العلم وحده لا يسبغ على الكون أي طعم، ولا يفسر له أي هدف ترتضيه الإنسانية أو ترتاح إليه النفوس مهما كانت غير حائرة ولا قلقلّة، فمهمة العلم تكف عند حد وصف الظواهر والكشف عن النظم والقواعد أو القوانين الطبيعية ، ولكنه يعجز عن أن يستخلص من الكون أية حكمة أو يعطيه معنى يستسيغه الفكر .

(١) د/ عبد الرحمن بدوي: المنطق الصوري والرياضي ص ٣٣، على سامي النشار ص ٦٤ ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٣م ، ط ٢ .

الفصل الثاني

ويقول الدكتور الفندي : " والدين هو الذي يعطي هذا الوجود تلك المعاني كلها ومنه تنبثق كل المبادئ ؛ لأنه الأساس، وليست المبادئ أو النظم الاقتصادية مثلاً هي أساس الشعوب . ولنتذكر بأن علمنا هو للظاهر فقط، فنردد قول الله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (١) . (٢) .

تلك هي أهم المبادئ التي تكون الروح العلمية التي يتسلح بها الباحث، وهو يطبق المنهج العلمي على مختلف الظواهر . ولاشك في أنها تضمن له - بالإضافة إلى خطوات المنهج - أكبر قدر من السلامة في خطواته، وتجنبه الوقوع في كثير من ضروب الخطأ والشك إذا كان المنهج العلمي هو البرنامج الذي ينظم سلسلة من المعلومات لتنفيذها، ويشير إلى عدة أخطاء لاجتنابها بقصد الوصول إلى نتيجة محددة، فإن الروح العلمية تعني مجموعة من المبادئ والقيم العلمية تتحول بالتدريج إلى خصائص ذاتية تكون شخصية الباحث ، ويصدر عنها في كل أعماله . والروح العلمية مهمة للبحث العلمي بمقدار أهمية المنهج نفسه، بل إنه بدونها يظل هذا المنهج هيكلاً عظيماً بدون حياة .

والواقع أن مصطلح " الروح العلمية " ليس سهل التحديد؛ لأن مفهومه واسع ومتنوع ، وإذا كان يعبر عن مجموعة الخصائص التي يلزم توافرها في شخصية الباحث، فإن هذه الخصائص قد تكون :

فيزيولوجية، مثل : سلامة الحواس ودقتها .

سيكولوجية، مثل : القدرة على الإبداع ، والتذكر ، والربط بين التشابهات .

عقلية، مثل : الذكاء، والتجريد، والتحليل، والتركيب، والمقارنة .

أخلاقية، مثل : المثابرة، والزهدي، والشجاعة ، والإخلاص والنزاهة .

(١) الروم : الآية [٧] .

(٢) د/ محمد أحمد الغمراوي: بين الدين والعلم ص ٢١ .

مقومات البحث العلمي

وجدانية، مثل : حب موضوع الدراسة، والتعلق الدائم به ، والاهتمام بكل ما يدور حوله .

ولاشك في أن الباحثين يختلفون - فيما بينهم - تبعاً لاقترايحهم أو ابتعادهم عن درجة الاكتمال في الخصائص السابقة، ومع ذلك فقد حدد علماء المنهج عدة مبادئ رئيسة تقوم عليها الروح العلمية، هي الموضوعية ، والصرامة، والقدرة النقدية ، والتسليم بمعقولية الطبيعة، والعمل في فريق .

(أ) الموضوعية :

إذا كان العلم عبارة عن معرفة الأشياء، فينبغي أن يكرس الباحث نفسه لملاحظتها بأقصى درجات الدقة الممكنة، وهذا يعني خضوعه الكامل لموضوع دراسته ، وذلك بأن يستبعد من أبحاثه :

- الاعتبارات الجمالية .
 - الاعتبارات الميتافيزيقية ، والأخلاقية الخاصة، فليس من حق العالم أن يعدل عن أبحاثه، أو يغير منها خوفاً من أن تأتي النتائج على عكس ما يعتقد .
 - الاعتبارات العاطفية، وفي هذا المجال ينبغي على الباحث أن يكون مستعداً للتنازل عن الفرض القريب إلى نفسه؛ لأنه ليس هو الفرض الذي يكشف الحقيقة، أو يفسر العلاقات الواقعية بين الظواهر .
 - التراث التقليدي وسلطان العادة، والأفكار الشائعة في المجتمع .
- ومما يساعد الباحث على الوصول إلى أعلى درجة من الموضوعية تلك الرسائل والأجهزة التي تم اختراعها واستعمالها في مجال البحث العلمي . فهذه ، دون شك تنقل له صورة أمينة للواقع كما هو دون أي اعتبار مما سبق .

ويلاحظ أن موضوعية الباحث إنما تتجلى في مرحلة البحث، وهي المرحلة التي تتضمن كلاً من الملاحظة والتجربة .. أما في المرحلة التالية وهي مرحلة

الفصل الثاني

الكشف، فإن الباحث مدعو - بكل حرية - لكي يخلع من ذاته على الظاهرة، ويكشف غموضها، عن طريق الفرض القائم على الخيال . ومع ذلك فإن هذا الخيال ليس خيالاً جامحاً، إنه خيال محكوم بامتحان التجربة، وهي وحدها التي تبين نجاحه من فشله . وهكذا ، ما أن ينطلق الباحث للحظة في مجال الذاتية حتى يعود بسرعة إلى موضوعية الظواهر التي يدرسها .

[ب] الصرامة :

تعني الصرامة العلمية ألا ينتقل الباحث من نقطة قبل أن يبرهن عليها بصورة قاطعة . وهناك طرق كثيرة للتأكد من ذلك ، لكن يكفي هنا أن نشير إلى ضرورة التفرقة بين ما هو مبرهن عليه، وما هو محتمل أو مفترض . فلا يتقدم الباحث إلا بحذر، ولا يقبل شيئاً دون مراقبة وفحص، وبهذا فليس التساهل مقبولاً في مجال البحث العلمي .. لأن التساهل يؤدي إلى تمرير بعض الأحكام الخاطئة، ولهذا أثره الخطير في سلامة ما يترتب على ذلك من نتائج .

[ج] القسرة النقدية :

القدرة النقدية أساسية للعلم ، لكن يجب ألا نعممها لتشمل تلك القدرة السلبية التي تتجه بشكوكها إلى كل شيء ، وإنما هي مجرد حرية عقلية تساعد الباحث على أن يبلغ جوهر المشكلة، ويقبل الرجوع عما هو مؤكد من قبل، ويتقبل المناقشات والتحفظات، ويواجه نتائج أبحاثه بأبحاث غيره من العلماء، ويظل - دائماً - على استعداد لتغيير نتائجه هو .

وبهذا المعنى أمكن القول بأن أحد شروط العلم هو معرفة الشك، أي القدرة عليه، ونمو الرغبة في إثارة الأسئلة كلما زادت معرفة الباحث. وحين نفهم الشك على هذا النحو نجده ليس أكثر من أحد أشكال حب المعرفة، والشعور بتعقد الواقع، ويحدود العقل الإنساني .

[١٤] التسليم بمعقولية الطبيعة :

حتى يقوم البحث العلمي على أساس متين، لا بد أن يدرك الباحث منذ البداية أنه أمام نظام مطرد، وأنه إذا لم يظهر لعينه منذ الوهلة الأولى فيه من خطوط الوحدة والتناسق، فإنها لا تلبث أن تتضح مع تقدمه في البحث، وتوصله لبعض النتائج .

إن أهم ما يقدمه العلم للإنسان هو التنبؤ بحدوث الظواهر، أي توقع مجيئها على نحو معين في ظروف محددة، ولا يقوم هذا التنبؤ إلا في ظل نظام عام مطرد : ما يحدث الآن قد يحدث مثله بالأمس، وسوف يحدث مثله غداً .. ولولا التسليم بهذا النظام لما كان للقوانين العامة أي معنى، ولا نهدم العلم من أساسه .

[١٥] طبيعة العمل في فريق :

لا شك في أن طبيعة العمل في فريق يختلف كثيراً عن العمل الفردي، حيث ينعزل الباحث عن المجتمع؛ لأنه يتطلب مجموعة خاصة من الصفات مثل: التواصل الاجتماعي، ودمائة الخلق، ووضوح الشخصية، وربما كانت اللغة من العلوم إلى هذا المطلب؛ لأنها هي ذاتها ظاهرة اجتماعية تقوم على التواصل، وربما كانت هناك أيضاً مسائل في اللغة كأعمال التحقيق وصنع المعاجم لا تتم إلا بالعمل الجماعي .

وعلم اللغة يستعمل طرزاً كثيرة : الطرز الرياضية التي تستعمل المفاهيم الإحصائية أو الجبرية والمعادلات، والطرز الفيزيائية التي تجعلنا قادرين على إنتاج مقياس ثابت وفعال Working Analoge لتفسير الظواهر " كما هو الحال غالباً في علم الأصوات " .

وقيمة الطراز تكمن في وضوح وتركيز العلاقات التي يفترضها، فعلى ضوء طراز خاص نحصل على نظرة ما في اللغة لم نحصل عليها من قبل، فإذا ما كف الطراز عن توفير نظرات جديدة، أو فشل في تقديم نظرة أية نظرة، فعلياً أن ننبهه

الفصل الثاني

ونبحث عن طراز جديد . ومن هنا نرى أن الطرز أمور وقتية - إنه يقال أحياناً إن العلم يتقدم من خلال البحث عن طرز جديدة تقترح نظرات جديدة .

والطرز أعمال انتقائية ، جوانب معينة يلقي الضوء عليها ، وأخرى تهمل تماماً ، واختيارنا طرازاً محدداً يوجه بحثنا، ينبغي أن يكون دقيقاً، وينبغي أن نستعمله بروح ناقدة، فإذا ما اخترنا طرازاً يبدو أنه يفسر خصائص لغوية معينة ينبغي أن نتذكر أنه ربما يشغلنا عن وجود خصائص أخرى ، وينبغي أن نكون منبهين إلى أننا لا نزع أن كل جوانب الطراز مناسبة على سواء لدراسة اللغة^(١) .

العلم : المنهج ، المحتوى اللغوي والمعرفة :

ويختلف الباحثون فيما يفرق العلم عن غيره ، فهو عند العلماء مجموعة منظمة من المعارف تدور حول موضوعات بعينها، وتصل فيما بينها مجالات معينة من الدراسة . بينما هو عند بعضهم الآخر منهج وأسلوب لا يختلف اصطناعه في مجال دون آخر . لذلك يتحدد أو يعرف العلم عند الفريق الأول بمادة البحث، على حين يتحدد لدى الفريق الآخر بمنهج البحث .

وبعبارة " جيمس كونانت " هناك تعريفان للعلم ، أحدهما استاتيكي، والآخر دينامي .

فأما التعريف الاستاتيكي فهو الذي يضع موضع الصدارة الطائفة الراهنة المتشابكة من المبادئ والقوانين والنظريات ، وكذلك المجموعة الهائلة من المعلومات المنسقة ، وكأن العلم بذلك عرض شارح للكون الذي نحيا فيه، أو لبعض جوانبه . كذلك فإن النظرة الدينامية على النقيض من ذلك، تعد العلم نشاطاً وجهداً موصولاً . ومن ثم فإن الحالة الراهنة للمعرفة تقوم أهميتها الجوهرية في أنها أساس لمزيد من عمليات وإجراءات تالية متواصلة .

(١) . Grystal, Linguistics, P.115 .

مفاهيم البحث العلمي

وعلى أساس هذه النظرة، فإن العلم سيختفي تماماً إذا ما أغلقت المعامل أبوابها؛ لأن النظريات والمبادئ والقوانين مستقرة في الأصول والمراجع ستتقلب إلى عقائد جامدة . فبإغلاق المعامل ستتوقف كل عمليات البحث ، ولن تكون ثمة مراجعة أو إعادة اختبار لأية قضية من القضايا . وعلى هذا الوجه فإن التعريف الدينامي للعلم هو أنه سلسلة متشابكة الحلقات من المفاهيم والإطارات النظرية التي تطورت ونمت نتيجة للملاحظة والتجريب .

وهي سلسلة مفضية إلى المزيد من الملاحظة والتجريب. وجوهر العلم إذن هو المجموع الكلي المفترض للنتائج والكشوف " الكامنة والممكنة " التي " تنتظر " البحث والكشف على يد العاملين في المعامل ومجالات البحث .

وهي كما يقول " كونانت " خططهم ، وآمالهم وتطلعاتهم أثناء عملية التحقيق والإنجاز، أسبوعاً إثر أسبوع ، وعاماً بعد عام^(١).

والواقع أن كافة موضوعات المعرفة خليفة من الوجهة النظرية على الأقل بأن تتدرج تحت العلم . غير أنها لا تصلح أن تكون موضوعاً للعلم في أية مرحلة من مراحل صياغتها إلا متى نضجت ولاءمت منهجه، أي صارت معدة لانطباق المنهج العلمي عليها، وتوافرت لها شروطه على ألا نفهم من " المنهج العلمي " مجموعة من الصفات المجربة، الجاهزة والمستقرة، أو لائحة بالقواعد التي يجب الالتزام بها في كل عصر وعند كل موضوع ، " فالمنهج العلمي " متطور نام، وما يدفعنا إلى استعمال تسمية واحدة تضم مختلف تطوراته وتحولاته، إنما هو مجموعة من السمات والشروط العامة التي ينبغي أن تصدق على إجراءاته التي قطعت الأنحاء العامة والعقلانية في القرنين الـ [١٧ ، ١٨] صلتها بكل تطور في البحث اللساني سابقاً، فبالرغم من أنها

(١) J.Conant, Science and common Sende, PP 5-24, yale University press, New Hacen, 1961.

الفصل الثاني

كانت تدرس اللغة من جانبها العقلاني [الفلسفي] فهي تتميز عن الدراسة اللغوية السابقة التي كانت تدرس اللغة على هامش الاهتمامات الاستمولوجية الأخرى .

وجاء سوسور في القرن الـ ١٩ م فجاء منهجه اللغوي قطيعة مع هذه الاتجاهات ، والاختلاف منهجي صرف يتعلق بتحديد الموضوع الذي كان يجب أن تتركز عليه الدراسة اللسانية، وبذلك أصبحت هذه الأخيرة في أصل البحث اللغوي ، أي تشكل بحثاً قائماً بذاته . وقد استؤنفت الدراسة اللسانية بمنهج علمي آخر قائم على أسس معرفية لغوية صرفة .

انقسم البحث اللساني مع مرور الزمن على نفسه فيما يتعلق باللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، فهناك مرحلة عرفت فيها اللغة المكتوبة [لغة الكتاب العظام] ازدهاراً ، فكانت المعيارية هي التي تسير وفق الدراسة آنذاك، ثم جاءت مرحلة أخرى أصبحت فيها اللغة المنطوقة تحظى باهتمام كبير ، واليوم هما معاً على درجة واحدة في المناهج اللسانية المعاصرة ، فلا تشكل هذه التفرقة أية عقدة في المجال العلمي اللغوي .

إن اللغة بالمفهوم السوسوري يجب أن تحدد وتدرس في سانكرونية معينة، وهذا يختلف عن دراستها دياكرونيًا ، وهناك تفرقة أساسية بين الموقفين .

اللغة بنية وشكل، وليس جوهرًا ، إنها نظام من القيم ووحداتها خلافية سلباً أو إيجاباً، وعلى اللغوي أن يبتعد عن دراسة الجوهر ، [الفكر] ويهتم بمبدأ التلاؤم الذي يسمح له بتكوين المواضع اللسانية وإدراكها التي لا يمكن أن تكون قضايا مجردة، بل هي عبارة عن نسق من القيم .

هكذا يمكن تصور الجهاز اللساني ، أو على الأصح جهاز مفاهيم اللسانيات البنيوية عند دوسوسور . ويقوم هذا العلم في قسمه الأكبر على الفرضيات المنهجية التي وضعها دوسوسير .

مقومات البحث العلمي

وقد كان البحث اللغوي - وبخاصة فيما يتصل بنشأة اللغات - مجالاً لكثير من الفروض والنتائج غير العلمية . لقد قيل مثلاً : " اللغة العبرية أقدم اللغات " ، وهو فرض لا سبيل للبرهنة عليه علمياً " أي باستعمال المنهج العلمي الذي حددنا خطوطه العامة في الصفحات السابقة " وثمة مزاعم أخرى تدفع هذا الفرض فثمة من يقول : " اللغة العربية أقدم اللغات " ... إلخ .

ومن ذلك أيضاً ما يتصل بالحديث عن أفضل اللغات أو أكمل اللغات أو أغنى اللغات أو ما شاء أصحاب هذا الحديث من صفات التفضيل، فهذا ابن فارس يقرر أن اللغة العربية خصت بالبيان وأن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه، ولو احتجت إلى التعبير بها عن شيء مثلاً لو وجدت عشرات من الألفاظ تدل عليه، ولو أردت ذلك بغيرها لما أمكنك ذلك .. (١) وشيء من هذا يقوله " جالينوس " عن اليونانية؛ إذ هي أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع (٢).

وقد أثير خلاف حول ما إذا كان آدم قد استعمل لغة كالتي يستعملها أو أنه كان يعتمد على الإشارة ، ثم تطورت إلى أن أصبحت لغة منطوقة يتداولها الناس من بعده وهي قضية التوقيف والاصطلاح .

لكي تكون الدراسة - أيأ كان موضوعها - علمية ينبغي أن تتوفر بعض السمات الضرورية . قد يختلف العلماء واللغويون - إلى حد ما - في طبيعة عملهم وفي مجاله، ولكن ثمة اتفاق عام فيما يتصل بحاجة علم اللغة إلى منهج علمي، وأن المنهج الذي سارت عليه العلوم قد يكون منهجاً ناجحاً، يقال هذا بغض النظر عما يثار من خلاف في تبعية علم اللغة للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية، وبغض النظر عما يدور بين اللغويين أنفسهم من جدل في تحديد المقصود " بالعلمية " في هذا المجال .

(١) ابن فارس : الصحاحي ص ١٦-٢٥ ، تحقيق السيد صقر .

(٢) ابن حزم : الأحكام في أصول الأحكام ٣٩/١ ، بعناية أحمد شاكر ، مكتبة الخانجي .

الفصل الثاني

وقبل أن نأخذ في الحديث عن هذه السمات ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن ما قد يعده بعض الباحثين أصلاً قد يجعله آخرون فرعاً، وأن المصطلحات التي يستعملها الباحثون قد تختلف من باحث إلى آخر، ومع ذلك نطمئن إلى أن محصول البحث الذي نستخلصه من هؤلاء وهؤلاء سوف يؤول في النهاية المنهج الملائم للدراسة اللغوية.

هذه السمات هي: الوضوح، والدقة، والنظامية، والموضوعية،

والشمول، واليقين.

أولاً: الوضوح والمطابقة :

- الوضوح :

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعاً وتصنيفاً وتقعيداً، وهو ضروري أيضاً حين يختار الباحث النظرية التي على هداها يقوم بالعمل ، فينبغي أن تكون أسس هذه النظرية واضحة، وينبغي أن يكون واعياً بالاعتبارات التي استند إليها عند اختياره لها . وسوف نختار للمناقشة هنا موضوع ننتبين منه الحاجة الماسة إلى الوضوح في البحث اللغوي، هذا الموضوع هو :

تسمية مصطلحات البحث :

لا مندوحة لنا عن استعمال المصطلحات الفنية ، فاللغوي لا يدرس مفردات اللغة كلها، إذ لا سبيل إلى حصرها ، إنه لا يدرس مفردات مثل: محمد وشجرة ورجل وجبل .. إلخ ، بل يدرس قسماً بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات وغيرها هو "الاسم" ، إنه لا يدرس مفردات مثل: قام ويجلس .. إلخ ، بل يدرس قسماً بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات هو " الفعل " ، وقد يتطلب البحث منا أن يجعل من كل قسم أقساماً، فقد يفترض أن قسم " الاسم " مثلاً يضم أقساماً فرعية هي : العلم والضمير .. إلخ ، وقد يفترض أن قسم " الفعل " مثلاً يضم أقساماً فرعية هي : الماضي والمضارع .. إلخ . وفي التعامل مع الأقسام لا المفردات اقتصاد في الجهد لا

مقومات البحث العلمي

يقوم في كل ما يدخل في القسم المفترض من أفراد تميزه عما عداه، ولهذا اشترط في تعريفه العمل العلمي إلا به .

وليست هذه الأقسام التي يفترضها الباحث منفصلة عن الواقع اللغوي الذي يعالجه، بل إنها مفترضة أصلاً للتعامل مع الواقع أي لكي نفهم الواقع فهماً حسناً، لكي نوصل فهمنا للآخرين .

وليس الاصطلاح مجرد اتفاق بين أهل الصنعة على مدلول خاص فحسب، بل إنه اتفاق قائم على معايير ، وأي محاولة لتصنيف المفردات في أقسام ينبغي أن تقوم على أساس أوجه شبه تتحقق أن يكون جامعاً مانعاً .

لقد عرف بعض النحاة الاسم بأنه ما يدل على مسمى من ذات أو معنى، وعرف بعض النحاة الفعل بأنه : ما يدل على حدث وزمنه، واعترض على هؤلاء بنحو [صه وهيهات] وغيرها مما يطلق عليه أسماء الأفعال ، لأنها تدل على حدث في زمن وإن عوملت معاملة الأسماء .

ومن الواضح أنهم اعتمدوا في تعريفهما على معيار هو المعنى الذي يدل عليه كل منهما^(١). وأدرك نحاة آخرون ما في التعريفين السابقين من قصور، فوضعوا لكل من أقسام الكلام علامات تميزه عن غيره من الأقسام ، وكانوا في ذلك على طريق مستقيم .

لقد جعل الدكتور تمام حسان أقسام الكلام في العربية سبعة بدلاً من ثلاثة هي : لاسم والصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف والأداة معتمداً في ذلك على معايير ترجع إلى المعنى والمبنى كليهما فتجنب ما اعترض به على النحاة الذين اعتمدوا على المعنى وحده أو المبنى وحده^(٢).

(١) د/عبد الرحمن أيوب: دراسات نقدية في النحو العربي ص ٨، ٩، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م.

(٢) د/تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ٨٦ - ٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

الفصل الثاني

كما يجب التنبيه إلى تأثير مصطلح جديد أو إعادة تعريف مصطلح قديم إلى تأثير هذا على التعريفات الأخرى التي يستعملها الباحث، إن المصطلحات التي نستعملها في وصف اللغة يعتمد بعضها على بعض إلى حد كبير، فمصطلح ما يحدد مصطلحاً آخر، وهذا المصطلح بدوره يحدد المصطلح السالف، ومن ثم فإن تغيير معنى مصطلح واحد قد يضطرنا إلى تغيير معنى بعض المصطلحات المتصلة به .

وكثيراً ما يتعرض الباحثون لمشكلات من هذا النوع، فالباحث الذي يتبنى تقسيم الدكتور تمام عليه أن يدرك أن مفهوم [الاسم] عنده مثلاً قد تغير عما كان عليه عند النحاة القدامى بعد أن أخرج منه الصفة والضمير والظرف وجعلها أقساماً مناظرة له، وعليه فينبغي ألا يخلط بين التقسيمين، كما ينبغي التنبيه إلى ما ينبني على إعادة التصنيف من نتائج .

فالدكتور تمام حين جعل الصفة قسماً بذاته افترض نمطاً ثالثاً للجملة العربية هو الجملة الوصفية [التي قد تكون أصلية نحو : أقائم المؤمنون للصلاة؟ وقد تكون فرعية نحو : رأيت إماماً قائماً تابعوه للصلاة] ^(١).

هذا النمط الجديد نظير للنمطين المعهودين : الجملة الاسمية والجملة الفعلية، وهكذا يكون لدينا ثلاثة أنماط جديدة للجملة لا نمطاً واحداً .

كما ينبغي التنبيه أيضاً إلى ما ينبني على ذلك من تغيير في تعريف الأبواب النحوية، فينبغي عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة مفعولاً فيه أن يقال إنها ظرف، وينبغي عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة حالاً أن يقال : إنها صفة .. وهكذا في الأبواب الأخرى .

(١) د/ تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٠٣ .

مقومات البحث العلمي

واختيار المصطلحات أو إعادة تعريفها ينبغي أن تتم - إذا ما وجدت فائدة في ذلك - بدرجة عالية من الحذر، إنه بناء متماسك يفقد هيكله حين نضيف إليه أو نحذف منه أو نغير فيه .

ويشترط الباحثون في المصطلح أن يستعمل للإشارة إلى مدلول واحد، وألا يشار إلى المدلول الواحد بغير مصطلح واحد، ولاشك أن هذا أدعى إلى الدقة وأدنى إلى الوضوح وأقرب إلى القصد في التعبير، غير أن ما نراه في مجال البحث اللغوي قديماً وحديثاً يخضع لطبيعة اللغة العربية على سبيل المثال، فاللغة تتسم بظواهر الاتساع والمصطلحات التي تدل على هذه الظواهر تتسم أيضاً بالاتساع فيدل المصطلح الواحد على أكثر من استعمال ، ويبدو أن هذه حكمة استقاها نحاة العربية من طبيعة اللغة وعلاقتها بالذاكرة البشرية .

فمصطلح [المفرد] في النحو العربي يستعمل في باب من أبوابه للإشارة إلى الواحد أي ما يقابل المثنى والجمع، وفي باب آخر للإشارة إلى ما يسمى جملة أو شبه جملة، ومصطلح الحرف يستعمل أحياناً ليدل على الكلمة ، وأحياناً ليدل على قسم بعينه من أقسام الكلام، ويستعمل للإشارة إلى وحدة من وحدات النظام الصوتي أو الإملائي في العربية كالهزمة والباء والتاء .. وغيرها مما يعرف بحروف المعجم .

وقد أحس النحاة بخطورة هذا المسلك فاضطروا إلى أن يقولوا : المفرد في باب كذا هو كذا ، وفي باب كذا هو كذا ، واضطروا إلى أن يخضعوا المصطلح بوصف أو إضافة ، ولكن هذا أو ذاك كان على حساب الاقتصاد في العبارة، وهو من شروط الاصطلاح حتى يسهل استعماله ويتيسر تداوله . ومع ذلك فقد بقيت المشكلة قائمة حين يستعمل المصطلح مجرداً عن تحديد مجال استعماله بعلم بعينه، أو في باب خاص أو عند قوم بأنفسهم، أو حين يستعمل عارياً عن وصف أو إضافة .

والنهج نفسه أولى بأن يتبع في مصطلح أسماء الأفعال فيستعمل لها شبيهات الأفعال، وإن كانت أوزانها ليست على أوزان الأفعال؛ لأن هذا المعيار يركز على

الفصل الثاني

المبني والنحاة يعتمدون في أكثر تحليلاتهم الإعرابية والنحوية على المعنى ، فإذا اعتمدنا عليه صح لنا أن نسميه شبيهات الأفعال .

على الباحث أن يكون مدققاً في اختيار المصطلحات ، وفي تحديد معانيها بوضوح، وينبغي أن يحتفظ بمدلول المصطلح ثابتاً في كل مراحل البحث، وأن يحتفظ كذلك بالعلاقات التي بينه وبين المصطلحات الأخرى التي تتصل به ثابتة أو بعلاقة موجزة: الثبات والتناسق .

ليس من العيب أن تتوجه عناية الباحث أساساً إلى المصطلحات التي تتصل ببحثه مباشرة، فليس من الضروري أن يقف باحث في الأصوات من مصطلحات النحو التي قد تعترضه في بحثه موقف النحوي منها، بل يكفي في ذلك أن يتبنى مفاهيم متفقاً عليها بين عدد كبير من الباحثين في هذا المجال أو يعتمد على المفاهيم السائدة في علم اللغة ، تلك المفاهيم التي لم يوجه إليها اعتراضات ذات بال .

واختيار مصطلح معروف أو ابتكار مصطلح جديد ينبغي أن يعتمد على معايير قائمة مثلاً على أساس التشابه في الشكل أو الوظيفة أو هما معاً .

وينبغي على الباحث أن يكون لديه تصور لما يمكن أن يحدث لو استعمل معيار آخر .

أن يبذل الباحث أقصى جهده على أن يكون للمصطلح الواحد مدلول واحد، وألا يكون للمدلول الواحد غير مصطلح واحد، وهذا أدعى للثقة وأدنى للوضوح، فإن وقع المحذور ، فالأفضل أن يتبنى أكثرها تداولاً بين الباحثين وأقلها عرضة للنقد .

على من يتصدى لابتكار مصطلحات جديدة أن يراعي أن يكون لفظ المصطلح مختصراً ، وأن يتلاءم شكله مع طرق البناء الصرفي والنحوي في اللغة حتى يسهل تداوله ويعم الانتفاع به، وأن يتجنب الألفاظ ذات المدلولات الشائعة في الحياة العامة حتى يضمن لمصطلحه أن يعري من الدلالات غير المرغوب فيها .

- الدقة :

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعاً وتصنيفاً وتقعيداً، فاللغوي لا يدرس مفردات اللغة كلها، بل يدرس أقساماً بعينها يفترض أنها تضم هذه المفردات .

وليس من المقبول في العلم أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق أو تستعمل قضية يشوبها الغموض أو الالتباس. فالدقة ضرورية ولا معدل عنها ، ووسيلة العلماء إليها استعمال لغة الرياضيات لغة الكم . وهذه اللغة تساعد على التعبير عن حقائق العلم بمزيد من الدقة .

بيد أن في اللغة جوانب من الصعب أن توصف كمياً ، ومنها جانب المعنى، ومازال علماء اللغة حتى اليوم مختلفين في عدّه موضوعاً صالحاً للدراسة العلمية . وثمة أمر آخر له ارتباط بلغة العلم وهو التجريد، والرياضة بطبيعتها علم مجرد ، أي أنه لا يتحدث عن أشياء ملموسة، ومن هنا كان التجريد صفة ملازمة للعلم سواء تم عن طريق الرياضة والمنطق [وهو الأغلب] أم عن طريق أي نوع آخر من الرموز أو الأشكال^(١).

والنحو العربي مثل واضح للتجريد ، فالإعراب مثلاً نظام مجرد يعتمد على بيان الموقع والحالة والعلامة، الجملة مثلاً لذلك : الشمس ساطعة، ولنبدأ في إعرابها :

الشمس : مبتدأ [موقع] مرفوع [حالة] بالضممة [علامة] .

ساطعة : خبر [موقع] مرفوع [حالة] بالضممة [علامة] .

إن استعمال المصطلحات [موقع وحالة وعلامة] عمل تجريدي بحت، فليست خاصة بكلمة الشمس فحسب، أو بكلمة ساطعة فقط، وإنما هي صفة تستحقها أية كلمة

(١) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٥٣ ، عالم المعرفة [٢] ، الكويت ١٩٧٨ م .

الفصل الثاني

يمكن أن تشغل هذا الموقع أو ذاك ، بل إن الحالات الإعرابية [الرفع والنصب والجر والجزم] على درجة عالية من التجريد؛ إذ إنها موضوعة للتمييز بين المواقع الممكنة في اللغة العربية ، فالفاعل يميزه عن المفعول به أنه مرفوع، والمفعول به يميزه عن الفاعل أنه منصوب، والرفع والنصب لا وجود لهما إلا في أذهان النحاة الذين يدرسون المواقع النحوية، إن النحاة في الحقيقة لا يتعاملون مع مفردات وإنما يتعاملون مع أقسام، وهم في النهاية يحددون علاقات مجردة .

نأياً : النظام :

من أهم سمات التفكير العلمي التنظيم إلى أننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة، وإنما نرتبها بطريقة محددة وننظمها عن وعي، ونبذل جهداً مقصوداً من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها^(١).

ومن هذا المنطلق يحذر علماء اللغة المحدثون من كثير من مزالق الدراسة غير العلمية، فدراسة بنية اللغة كيفما اتفق، أو دراستها دراسة جزئية غير شاملة دون قصد ووعي، أو تفسير ظواهرها تفسيراً انطباعياً، أو تحليلها تحليلاً مضطرباً، أو استعمال المصطلحات استعمالاً متقلباً، أو الفشل في فهم الأعمال السابقة، هذه السمات كلها ينبغي أن يتجنبها الباحث الذي يريد أن تكون دراسته للغة دراسة علمية .

واللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد والتنوع ، فالجمل أو التراكيب أو الأبنية التي تؤلف نسيجها لا حصر لها وتنوع تنوعاً حتى ليبدو من المستحيل أن نصل إلى أية نتائج عامة من فحصها إلا إذا درست بطريقة على درجة عالية من التنظيم .

لا مندوحة لنا إذا ما أردنا أن ندرس اللغة دراسة علمية - عن تبني منهج منظم يساعدنا في اكتشاف النظام الذي يحكم اللغة وفي وضع النظرية التي تفسر

(١) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٢٧ .

مقومات البحث العلمي

الطريقة التي يعمل بها . والمنهج العلمي ما هو إلا شكل منتظم بطريقة خاصة للتفكير والبحث .

ويتحدث الدكتور تمام حسان عن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تخضع للملاحظة قائلاً : " وسيل الملاحظة الاستقراء ، ويتطلب الاستقراء عدداً هائلاً من المفردات التي يتناولها، وقد تكون هذه المفردات أصواتاً عند دراسة الأصوات أو حروفاً أو مقاطع أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل الصوتي [الفونولوجي] أو صيغاً عند دراسة الصرف أو أبواباً عند دراسة النحو أو غير ذلك . وتتطلب كل مجموعة من هذه المجموعات أن يتم استقراء مفرداتها ، وقد وضع كل منها تحت ظروف مختلفة، فإذا أردنا استقراء سلوك معين مثلاً اخترنا من حالات المنطق ما يكون هذا الصوت مجاوراً فيها لكل صوت آخر من أصوات اللغة ، إما سابقاً وإما لاحقاً له ، ثم وضعناه في أول الكلمة أو بين صوتي علة أو مشدداً أو ساكناً في الوسط .. إلخ ، ثم لاحظنا ما يعتريه في كل حالة من هذه الحالات من خصائص صوتية ، ثم يجيء التقسيم وتسمية الأقسام بعد الملاحظة ، وعملية التقسيم تقوم على إيجاد أوجه الاتفاق بين المفردات ، فما توافق منها انتلف وما تنافر منها اختلف، وإنما تكون أوجه الاتفاق بين ما انتلف منها متعددة الجوانب كالشركة في الشكل أو في الوظيفة أو فيهما معاً" (١) .

أما الطرق التي يستعملها اللغوي في ملاحظة الظواهر المدروسة فكثيرة منها : السماع أو التدوين الصوتي، وقد يستعمل الأجهزة في تسجيل المادة أو في تحليلها ، وفي التعرف على خصائصها مثل: راسم الذبذبات **oscilograph** أو جهاز رسم الأطياف **Spectrograph** أو الكيموجراف **Kymograph**.. إلخ (٢) .

(١) د/ تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، الأنجلو المصرية ١٩٥٥ م .

(٢) انظر د/ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي من ص ٣٣ - ٤٤ ، عالم الكتب ١٩٧٦ م .

الفصل الثاني

وقد يعمد الباحث إلى الإحصاء أو إلى استعمال الرموز والمعادلات، على أن استعمال هذه الطرق كلها ليست إلا وسائل لغاية محددة، وليست غاية في حد ذاتها، ومن الفهم القاصر والضلال البين أن ننظر إلى علم اللغة على ضوء هذه الوسائل، وربما كان أكثر من ذلك أهمية الطريقة التي تستند إليها الإجراءات أو المخططات العلمية في الدراسة .

وبعد أن يستوفي الباحث ملاحظاته ، وينتهي من ترتيبها ترتيباً يكشف عن العلاقات الداخلية التي تربط بين الظواهر المدروسة ، ويستخلص أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها يضع الفروض التي تفسر هذه الظواهر .

والفرض **Hypothesis** قضية تفترض أو تنتبأ بعلاقة بين متغيرين أو أكثر كأن يقال : إذا وقع [أ] مثلاً وقع [ب] ، ومن الفروض الأولية في اللغة : نفخم الحركات العربية حين تسبق بصوت مفخم ، ينصب الفعل المضارع إذا سبق بأداة نصب ... إلخ .

ومن الفروض الأكثر تعقيداً : التغيرات الصوتية مطردة، اللغة ظاهرة إنسانية، العربية الفصحى كانت لهجة قریش .. إلخ .

والفرض الواحد قد يقوم على أساس عدد من الفروض التي يمكن اختيارها قبل وضعه بطرق إحصائية ، فالفرض القائل بنصب الفعل المضارع حين يسبق بناصب قد سبق بعدد من الفروض التي حددت إحصائياً النواصب التي يجيء بعدها الفعل المضارع .

وبعد أن يضع الباحث الفروض المناسبة لتفسير الظواهر المدروسة ينبغي عليه أن يتحقق من صحتها؛ لأن الفرض - من حيث المبدأ - يقرر علاقة يمكن أن يبرهن عليها أو يتبين خطأها، وذلك بوضع الظواهر المدروسة في ظروف محكمة مع تنويع

مقومات البحث العلمي

الظروف كلما أمكن، وينبغي أن تكون الظروف التي تتم فيها التجربة واضحة، بحيث يمكن للآخرين أن يكرروا التجربة ويؤكدوا صحة النتائج^(١).

بيد أن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تختبر بالطريقة السابقة المتبعة في الأشياء المادية قليلة [كدراسة الجوانب الفسيولوجية والسمعية للأصوات اللغوية] بيد أن هذه الطريقة ليست وحدها السبيل إلى الاستيثاق من الفرض، فاللغوي مثلاً يمكنه أن يقوم بفحص أكبر عدد من المتغيرات في موقف تجريبي خاص، فعلى سبيل المثال يمكنه أن يتحقق عن طريق مادة لغوية جديدة من تأثير متغير ما على المتغيرات الأخرى في الموقف [مثل وجود لن وغيرها من النواصب قبل الفعل المضارع] كما يقوم أيضاً بفحص العوامل الأخرى التي يمكن أن يكون لها دور في التغير المذكور كان يفحص مثلاً تأثير موقع الناصب من الفعل المنصوب، أو الفصل بينه وبين الفعل بفواصل ما [حرفاً أو كلمة أو جملة] .. إلخ وعليه حينئذ أن يستبعد العوامل غير المؤثرة أو غير الصالحة لتفسير النتيجة.

وقد يكون العامل المؤثر في الحالة اللغوية هو فقدان السبب الموجب لتأثير معين، وهذا هو ما فسر به النحاة حالة الرفع في الفعل المضارع حين قالوا: يرفع الفعل المضارع حين لا يسبقه ناصب أو جازم .

وينبغي الحذر عند وضع الفروض من تأثرنا بالفروض التقليدية في المجال المدروس، ولذلك ينبغي أن توضع هذه الفروض موضع الاختبار الدقيق. ومثال ذلك أن النحاة القدامى قالوا : إن الفعل المضارع يأتي منصوباً بأن مضمرة وجوباً بعد حتى ولام التعليل، والسر في ذلك كما يقول سيبويه : قائماً انتصب هذا بأن ، وأن هنا مضمرة ، ولو لم تضممرها لكان الكلام محالاً ؛ لأن اللام وحتى إنما يعملان في الأسماء فيجران وليستا من الحروف التي تضاف إلى الأفعال^(٢) .

(١) د/ فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ٣٣ .

(٢) سيبويه : الكتاب ٥/٣ ، ٦ ، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

الفصل الثاني

فليس ثمة ما يمنع من وضع فرض جديد لتفسير النصب في الفعل المضارع بعد اللام وحتى، وهو أن اللام وحتى قد يجران إذا سبقا اسماً، وقد ينصبان إذا سبقا فعلاً مضارعاً، ومن الضروري أن يكون واضحاً أن الفرض الذي يقترحه الباحث لتفسير الظاهرة موضوع البحث ينبغي العدول عنه إذا لم يتبين صحته والبحث عن فرض آخر .. وهكذا حتى نصل إلى الفرض الصحيح، وهذا يتطلب العودة إلى مادة البحث أو جمع مادة أخرى كلما احتاج الأمر إلى ذلك .

بعد أن ينتهي الباحث من اختيار الفروض والبرهنة على واحد منها يأتي إلى المرحلة الأخيرة، حيث تصبح الفروض المختبرة قوانين أو قواعد أو سلوكاً يمكن التنبؤ به .

والحقيقة أن قوانين النحو العربي وقواعده إنما وضعت وفقاً لسلوك المفردات في التراكيب العربية من واقع النصوص والاستعمال، ولكن عند تحليل كل نص أو أي نص على حدة، فإننا نجد مجموعة من الاختلافات والسمات المميزة لاستعمالات كل نص منها ما يرجع إلى اختلاف البيئات أو اللهجات أو المستويات اللغوية أو التوليد في التركيب والدلالة، وتختلف تراكيب واستعمالات كل عصر عن العصر الذي يسبقه، ولعل هذه الأسباب هي التي تجعل البحث اللغوي مستمراً وممكناً في كل وقت، ناهينا باختلاف الباحثين وتكوينهم ومؤهلاتهم واتساع أفقهم وثقافتهم واطلاعهم على أنظمة لغات أخرى أو أنحاء غربية أو مناهج بحث جديدة أو أدوات عمل ووسائل جديدة تختلف من باحث لآخر ، ومن بيئة لأخرى ومن عصر إلى عصر .

وليس المقصود بوضع القواعد في العلوم اللغوية بخاصة أن تكون كلية تشمل كل الأفراد، بل الهدف هو الوصول إلى قواعد عامة تنظم أغلب الأفراد، وينبغي ألا ينظر إلى القاعدة في العلوم اللغوية، كما ينظر إلى القانون في العلوم الطبيعية مثلاً .

فإذا ما وجد الباحث شيئاً يختلف عن القاعدة فلا يتسرع باتهامها أو بتخطئة الظاهرة أو المثال المخالف لها ، بل عليه أن يبحث عن تفسير لذلك .

مفاهيم البحث العلمي

ويخلص الدكتور تمام الأسس التي ينبغي مراعاتها عند وضع القواعد فيما يأتي:

- القاعدة وصف لسلوك عملي في تركيب اللغة، ويلاحظ أن يكون هذا السلوك مطرداً حتى يعبر عنه بالقاعدة .
- القاعدة لهذا السبب جزء من المنهج لا جزء من اللغة .
- لا بد أن تتصف القاعدة بالعموم وليس من الضروري أن تتصف بالشمول.
- أن تكون القاعدة مختصرة قدر الطاقة .
- من الضروري إيراد بعض الشواهد والأمثلة التي جرى عليها الاستقراء لتكون سنداً للقواعد وإيضاحاً لها^(١).

ثالثاً : الموضوعية :

الموضوعية سمة أساسية للتفكير العلمي، والمقصود بها أن القضايا التي تثار أو النتائج التي يوصل إليها أو الأدلة التي يعتمد عليها ينبغي أن تكون قابلة - بعمامة - للملاحظة والتجربة، والكلمة التي تلخص هذه المعاني هي أن يكون العمل تجريبياً empirical ، والعمل التجريبي هو اختيار يتم فيه فحص ظاهرة في ظروف تجريبية محكمة، وتكون النتائج فيه قابلة للملاحظة المباشرة والحكم المباشر، فإذا ما أعيد الفحص وصل الباحث إلى النتيجة ذاتها والحكم ذاته، ونقل بعبارة أخرى : النتائج يمكن البرهنة عليها .

والنظر إلى الموضوعية هو أن ننظر إليها على ضوء نقيضها الذاتية، وحينئذ يكون المقصود بها : أن يكون التفكير مرتبطاً بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة بحيث تصبح طبيعة موضوع الدراسة هي الفحص في الحكم على الظواهر دون اعتماد على ميول الذات الباحثة ولا عواطفها وآرائها الشخصية ومعتقداتها^(٢) .

(١) د/ تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) د/ تمام حسان: الأصول ، ص ١٤ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .

الفصل الثاني

إن الدراسة الموضوعية ينبغي أن تفهم على أنها مناقضة للنظرة الذاتية ، وثمة معان إضافية للمصطلح - " الموضوعية " - على درجة كبيرة من الأهمية، إنها تعني أن يتخذ الباحث مسلكاً نقدياً مبدئياً حين يتشكك في أي فرض من الفروض إلى أن يتأكد من صحته بدليل تجريبي، إنها تعني الحذر من المفاهيم السابقة التي ربما تدعم فرضاً من الفروض المقترحة، وعلى الباحث من أجل ذلك أن يبذل جهداً في التفكير بعيداً عن القضية المثارة فيدرسها من زاوية جديدة، أو يعرض فروضه على رفقائه من الباحثين لقراءتها بدقة ونقدها، إنها تعني أيضاً استعمال مخططات دراسية موحدة *Proceedures* مخططات تحظى بالقبول عند معظم أو كل اللغويين؛ لأنها صالحة للبحث ولا تحتاج إلى تعديلات خاصة في كل مرة تستعمل فيها .. إلخ .

لقد تكلمنا عن الذاتية في مضمونها المرفوض علمياً ، حيث يعتمد الباحث في الملاحظة وفي وضع الفروض على شعوره أو معتقده أو حدسه تجاه الموضوع المدروس، بيد أن لها جانباً آخر قد يضيف بعداً ثميناً ونوعياً للدراسة، وقد يزودنا بفروض مفيدة وبخاصة في مراحل البحث الأولى، ولكن ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن مثل هذه الفروض غير علمية إلا إذا تم اختبارها والبرهنة عليها .

وعلى هذا فليست الملاحظة الذاتية معيبة في كل الأوقات أو مخطئة في كل الظروف، فهناك دراسات تستند في بعض أحكامها على الملاحظة الذاتية ، وليس هذا معيباً بحال من الأحوال، ولا ينبغي أن يكون مدعاة إلى اتهام العلوم بعدم الدقة، والذي يعنينا هنا أن الدراسة اللغوية - لكي تكون علمية - ينبغي أن تكون موضوعية .

من طرق البحث الموضوعية :

الموضوعية سمة أساسية للتفكير العلمي وسلوك ينبغي على الباحث أن يسلكه حين يدرس موضوعه، هذا جانب له أهميته، وثمة جانب آخر لا يقل عنه أهمية هو أن نقترح طرقاً أو [تكتيكات] معينة تتحقق فيها النظرة الموضوعية الخالصة .

[أ] استعمال مخطط موحّد :

من معانسي الموضوعية أن يستعمل الباحث مخططات موحدة بقدر الإمكان، مخططات يقبلها معظم اللغويين أو كلهم، ويرون أنها صالحة للدراسة وليست في حاجة إلى تبريرات أو تعديلات في كل مرة تستعمل فيها .

وهذا الموضوع يحتاج إلى توضيح وبخاصة ما يتصل بالكلمة [موحدة إلى] تعني هنا أمرين :

الأول : تشير إلى طرق أو تكنيكات [يجزم علماء اللغة بأنها صالحة للدراسة أو على الأقل يقرر الباحثون صلاحيتها على أسس غير الأسس المقررة في علم اللغة، كاستعمال التفسير الإحصائي أو غيره من التفسيرات الرياضية أو استعمال المنهج الشكلي .

الثاني: تشير إلى طرق أو [تكنيكات] ينتشر استعمالها في علم اللغة ، ويعرف اللغويون قيمتها . وما هو أكثر من ذلك أنهم يفهمون حدودها فهماً جيداً، مثال ذلك ما يعرف باختبار الثنائيات الصغرى Minimal pair في علم الأصوات التشكيلي أو phonology ، وهذا المنهج استعمله معظم اللغويين عندما كانوا يدرسون لغة لأول مرة، ويريدون اكتشاف نظامها الصوتي .

[ب] فحص عينة مخطوطة :

موضوع علم اللغة هو اللغة منطوقة أو مكتوبة في المواقف الفعلية، والهدف من دراسة هذه المادة عند أصحاب المنهج التجريبي هو أن نسلکها في أنماط ونماذج، نماذج صوتية أو صرفية أو نحوية .. وعلى أساس مادة محدودة نضع فروضاً تتصل ببنية هذه المادة تنطبق على أية مادة أخرى تضاف إلى المادة المختبرة، هذا القدر من المادة الذي نستعمله للبرهنة على فروضنا يطلق عليه مصطلح العينة corpus .

الفصل الثاني

والعينة قدر غير منتظم من المادة اللغوية المجموعة في مجال لغوي محدد [منطوقة أو مكتوبة] . هذه المادة يحللها اللغوي لكي يضع فروضاً أو مقولات تتصل بالخصائص الصوتية أو الإملائية أو الصرفية أو النحوية أو المعجمية للغة^(١).

وقد كان هذا المسلك الذي يعتمد في الدراسة على تحليل قدر محدود من اللغة، وقد عرف بأسماء عديدة، ربما كان أكثرها لأشهره المنهج البنوي **Structural Approach** ، وقد نهج علماء العربية الأوائل حين جمعوا مفرداتها ووضعوا نظامها الصوتي والصرفي والنحوي هذا المنهج، فاكتفوا بالقليل عن الكثير، وقاسوا ما لم يسمع على ما سمع، وفي ذلك يقول المازني : ألا ترى أنك إذا سمعت " قام زيد " أجزت أنت [ظرف خالد] و [حمق بشر] ، وكان ما قسته عربياً كالذي قست عليه؛ لأنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ومفعول، وإنما سمعت بعضاً فجعلته أصلاً، وقست عليه ما لم تسمع، فهذا أثبت وأقيس^(٢).

الملكة نظام عقلي تحتي يكمن وراء السلوك الفعلي، ولذلك لا يصلح للدراسة التجريبية المباشرة، وإذا لم يكن صالحاً للملاحظة المباشرة فإن الطريق الرئيس الذي يمكننا من اكتشافه هو الاستبطان **intrespection** أي بسؤال أنفسنا كيف نستجيب [أو نفسر أو نحلل] لجملة معينة ؟ إن صاحب اللغة [أو اللغوي الذي قد يكون من أصحاب اللغة المدروسة] مدينان للحدس اللغوي الذي يتيح لهما أن يحللا اللغة وفقاً لحاجتهم شرحه [إزالة اللبس، تجاهل الأخطاء، فهم الجمل الجديدة .. إلخ] .

والذي نستخلصه من ذلك أنه إذا كان هدف علم اللغة هو وصف الملكة **competence** ، وإذا كان المدخل الوحيد المباشر إليها هو الحدس **intuition** فإن

(١) R.R.K. Hartmann and F.C. Stork: Dictionary of Language and Linguistics, London, 1973.

(٢) المازني : المنصف ١٨٠/١ ، ابن جني في التصريف ، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين ، دار إحياء التراث القديم ، ط١ ، ١٩٥٤ م .

مقومات البحث العلمي

الحدس يصبح دليلاً من الأدلة التي نستشهد بها على ماهية هذه الملكة . وبعبارة أخرى : إذا كانت الملكة أو القدرة هي الموضوع الفعلي لعلم اللغة فإن حدسنا يكون جزءاً من المادة الذي عليه تستند نظرية الملكة .

والحدس من حيث هو طريقة للمعرفة يتميز بأنه معرفة مباشرة لا تحتاج إلى وسائط، ولا تسير بالتدرج من خطوة إلى خطوة، وهو ينقلنا مباشرة إلى لب الموضوع المدروس بدلاً من وصفه وصفاً خارجياً أو مقارنته بغيره، وهو في جوهره معرفة فردية، أي أنه يتاح لشخص بعينه لا لأي شخص آخر، وهو يتطلب تجربة من نوع خاص يصعب نقلها إلى الغير أو تعليمها لهم، ويستحيل أن نعممها على الجميع^(١).

ولعل ما سبق من تعريف الحدس هو السبب في أنه لا يعد جزءاً من موضوع البحث أو أداة له في العلوم، إن المعرفة التي تعتمد على الحدس مادة للبحث أو أداة له نمط من المعرفة يختلف عن المعرفة الناتجة عن الملاحظة المباشرة والتجربة الموضوعية، والعلماء لا يعترفون بغير هذه المعرفة ولا يرضون بغيرها بديلاً عنها .

أما [تشومسكي] فيرى أن علم اللغة علم عقلاني في جوهره .. ويرى أن للمقارنة بين موقف عالم الطبيعة وعالم العلوم الاجتماعية خارجة عن الموضوع، وعلم اللغة فصل من دراسة العقل، ومن المقرر أن يقال إنه فرع من فروع علم النفس الإدراكي، وعلم اللغة بهذا الاعتبار ليس على خطأ حين يعد الحدس جزءاً من مادته.

وينبغي ألا نبالغ في تصوير التعارض الملحوظ بين المنهجين أو نستخف بما يمكن أن يكون نقطة اتصال يلتقيان عندها .

إن النظرية التوليدية لا يستبعد أصحابها على الإطلاق البرهان التجريبي من مجالات البحث والعكس هو الصحيح، لقد أكد [تشومسكي] على الحاجة إلى الفروض في اللغة، الفروض التي يمكن اختبارها تجريبياً، ونقد أولئك الذين يعارضون ذلك ولا

(١) د/غولد زكريا: التفكير العلمي ص ٩٥ .

الفصل الثاني

أحد من العقلانيين ينكر العلاقة التي بين هذه الطرق وموضوع البحث من حيث اكتشاف نظام من القواعد خاص بالملكة، ومن حيث اكتشاف أن هذه القواعد كانت تنتج الجمل الموجودة في أية عينة، بل ربما يقرر - هذا الباحث العقلاني - في النهاية أن شيئاً ما في مكان كان خطأ ، وأن عليه أن يعيد دراسة موقفه، وهكذا نتبين التلازم الضروري بين المنهج العقلاني والمادة اللغوية التي يمكن أن تخضع للتجربة .

وفي الجانب الآخر لا أحد ممن يعارضون المنهج العقلاني يحصر نفسه في النماذج التي يكتشفها في العينة، إن هذا العالم ليس بالضرورة عالم عينة محددة، ليس ثمة لغوي يعتقد أن قواعده التي يستخرجها من المادة المجموعة لا تتجاوز هذه المادة ... إن هذا اللغوي في الحقيقة يقبل تماماً الهدف المقرر لعلم اللغة وهو : بناء نظام تجريدي من القواعد لتفسير الظواهر اللغوية .

ومع ذلك فعدد كبير من اللغويين يعتقد بوجود تعارض مبدئي بين وجهة النظر العقلانية في التحليل اللغوي وما يعرف بوجهة النظر التجريبية، وربما كان من الأسباب الرئيسة للمشكلة، مشكلة التعارض بين المنهجين، المعنى الذي تشير إليه كلمة [حدس] . فثمة ادعاء بأن المعنى المقصود للأحداس في النظرية التوليدية لا يتعارض مع المناهج التجريبية، فما يشار إليه بالحدس ليس إلا رد الفعل المباشر الذي يظهره راو لغوي informant إزاء ما يقبله من لغته معنى ومبنى . [أي ما موقفه من صيغة معينة ؟ أيقبلها أم يرفضها ؟ ما موقفه من تركيب معين ؟ أيقبله أم يرفضه ؟ ما الذي يعنيه بكلمة معينة أو بجملة معينة ؟ .. إلخ] .

وثمة ادعاء آخر بأن ما يشار إليه بالحدس يتضمن أكثر مما سبق، وأن أحداس المتكلم ذاتها فيما يتصل ببناء لغته هي بحكم حقها الطبيعي جزء من موضوع البحث في التحليل اللغوي، وإذا كان الأمر كذلك فهذا الزعم يختلف ولاشك عن وجهة النظر التجريبية المثالية، كما أن الرأي المضاد له [القائل بعدم التعارض بين المنهجين] ربما يكون مضللاً .

مقومات البحث العلمي

ربما تكون المشكلة ناتجة عن ممارسات خاطئة وقع فيها بعض اللغويين، قد ترجع إلى : فشل في الاستعمال المنظم للطرق التجريبية في اختيار عمومية أحداث المتكلم صاحب اللغة، أو إلى عرض صورة مختارة للمادة المدروسة حدسياً، أو إلى خلط أحداث اللغوي أو موقفه بأحداث المتكلمين أو مواقفهم، أو غير ذلك من الأخطاء. إن المشكلة في الحقيقة ترجع إلى الادعاء بأن المعلومات التي يحصل عليها عالم اللغة التوليدي ينبغي أن تحظى بمكانة مساوية للمعلومات المبرهن عليها تجريبياً، إن الادعاء يحمل مضامين مشوشة بخصوص أي تعريف لعلم اللغة بأنه الدراسة العلمية للغة، فإذا ما رغب شخص في أن يستعمل مصطلح علم اللغة بهذا المفهوم، وفي الوقت نفسه يؤكد ثقته بالنظرية التوليدية، فقد يكون من الضروري له أن يعيد تعريف كلمة [علم Science] لكي يدعم تركيزه على الحدس الذي يرفضه الموقف الثابت للعلم، ربما يكون عليه أن يقول : إن علم اللغة ليس [هذا النوع من العلم] الذي يكون فيه البرهان التجريبي هو البرهان الوحيد، أي أن علم اللغة ليس علماً بالمعنى العادي للعلم، بيد أن محاولة كهذه هي من غير شك محل مناقشة .

وفي هذه المحاولة يقرر دافيد كريستال أن علم اللغة الجديد عليه أن يحذر من هذه المحاولة لسببين أساسيين :

الأول : أن أي تعريف جديد للعلم ملائم لمجال بحثي محدد سوف يلقي معارضة من فروع العلم الأخرى وبخاصة من فلاسفة العلوم .

الثاني: أن ذلك سوف يجعل من الصعوبة بمكان - إن لم يكن من المستحيل - على المعارف اللغوية أن تندمج في إطار الشكل العام للمعرفة العلمية، ومن حيث المبدأ فالمعرفة في علم من العلوم تتواصل مع المعرفة في علم آخر؛ لأن أوليات الدراسة نفسها مشتركة، فإذا ما طور اللغويون أساساً عقلانياً خاصاً بهم فسوف يعزلون أنفسهم عن التيار العام للبحث العلمي، وسوف يكون علم اللغة بذلك علماً شاذاً ، على الأقل حتى يجيء الوقت الذي تكون فيه العلوم كلها عقلانية .

الفصل الثاني

والآن هل من سبيل لإزالة هذا التعارض بين المنهج العقلاني والتجريبي ؟ لقد بذلت في هذه السبيل محاولات قامت على أساس ابتكار وسائل تجريبية معقدة لوصف وتصنيف استجابات الراوي الحدسية للغة، وقد احتل علم النفس اللغوي الذي يبحث في موضوع [القبول acceptability] مكاناً ظاهراً استطاع منه أن يضع جسراً بين المنهجين المتعارضين .

ويشير كريستال حين يتكلم عن هذه المحاولات إلى أنه ينبغي علينا أن نميز بوضوح بين حدس المتكلم وحدس اللغوي أو الباحث . فالحدسان يعملان بطرق مختلفة - فالمتكلم يمكن الرجوع إليه فحسب ليزودنا بمعلومات عما يشعر به إزاء الاستعمال اللغوي السليم، أو المعنى أو الخطأ اللغوي. وليس من المأمون أن يطلب إليه أن يزودنا بآراء فيما يتصل بكيفية تحليل المادة .. أما ألداس اللغوي أو الباحث فهي نتيجة تدريب واحتراف، وفي هذا المجال لا يفترق [اللغوي عن عالم الطبيعة مثلاً ، والفرق بينهما أن اللغوي قد يكون متكلماً باللغة المدروسة [native Speaker] وهذا معناه أن له حدسين [حدس اللغوي وحدس المتكلم] ، وهنا مكن الخطورة المتصلة بالذاتية ، بيد أن لهذه المشكلة حلاً، فإذا ما استطاع اللغوي أن يبعد ألداسه عن ألداس المتكلم فعندئذ يكون من المحتمل جداً الحصول على تفسير معدل تجريبياً لما يقصد باستعمال الحدس .

إن استعمال حدس أي شخص آخر قد قبل في الواقع كوسيلة معيارية في علم اللغة [وبخاصة في الفرع المعروف بعلم اللغة الأنثروبولوجي] فعند تحليل لغة أجنبية نختار أحد المتكلمين بها [الراوي] ، وبسؤاله بعض الأسئلة نستخرج منه مقولات أو بيانات تتصل بلغته مثل : معاني الكلمات أو الجمل .. إلخ .

رابعاً : الشمول واليقين :

- الشمول :

المعرفة العلمية معرفة شاملة بمعنى أنها تسري على جميع أمثلة الظاهرة التي يبحثها العلم، ولا شأن لها بالظواهر في صورها الفردية . على أن شمولية العلم لا تسري على الظواهر التي يبحثها فحسب ، بل على العقول التي تتلقى العلم أيضاً، فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها ولا يعود فيها مجال للخلاف بين فرد وآخر^(١) .

وهذا هو ما يقرره علماء اللغة في مجال البحث اللغوي، فإذا ما زدنا الوصف بقواعد تفسر كل المادة المتيسرة فإن هذا الوصف من المحتمل أن يكون أفضل من الوصف الذي يفسر لنا ثلاثة أرباع المادة .. أو بعبارة أخرى إذا ما كان الوصف يفسر كل المادة بطريقة أكثر اقتصاداً - الاقتصاد هنا محدد في ضوء عدد الرموز أو القواعد الضرورية للقيام بالتفسير - فإن هذا من المحتمل أن يكون أفضل وصف والقاعدة في العلوم اللغوية قاعدة عامة تنظم أغلب الأفراد .

وعالم اللغة لا يتعامل مع الصور الفردية للكلام أو ما أطلق عليه [دي سوسير] مصطلح [الكلام La parol] وإنما يتعامل مع الظواهر العامة المشتركة أو اللغة [La Langue] وما ذلك إلا لأن الصور الفردية أبعد ما تكون عن الوحدة والتجانس فلا تصلح للدراسة ، ولكي ندرس شيئاً ما دراسة علمية ينبغي أن يكون لدينا موضوع محدد حتى نستطيع إجراء إحصاء بأجزائه وإجراء تحليل له، وصور الكلام الفردية - أو النشاط الكلامي الذي يقوم به الأفراد - غير محدودة، ولا يمكن والأمر كذلك وصفها إلا إذا كان هذا الوصف أيضاً بلا حدود وهذا ما لا سبيل إليه^(٢).

(١) د/ فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ٤٦ .

(٢) Dinnaen : An Introduction to general Linguistics, P.198.

الفصل الثاني

- اليقين :

واليقين في العلم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطابع الشمول الذي تتسم به القضايا العلمية، إذ إن كل عقل لابد أن يكون [على يقين] من تلك الحقيقة التي تفرض نفسها عليه بأدلة وبراهين لا يمكن تفنيدها .. واليقين هنا هو اليقين الموضوعي ، وإنما يكون اليقين موضوعياً حين يركز على أدلة منطقية مقنعة لأي عقل، ولابد للوصول إلى هذا اليقين الموضوعي من هدم كل أنواع اليقين الذاتي ، فلا بد أن يززع العالم - كخطوة أولى في بحثه - ما رسخ في عقول الناس من أوهام وتحيزات عملت على تثبيتها عوامل غير موضوعية.

وإذا كان اليقين العلمي يعتمد على براهين وأدلة منطقية فإن هذا لا يعني على الإطلاق أنه يقين ثابت أو نهائي .. بل إن المقصود من ذلك أن البرهان العلمي يقنع كل من يستطيع فهم هذا البرهان في ضوء حالة العلم في عصر معين ، أما أن تتحول القضية العلمية إلى حقيقة تفرض نفسها على الناس في كل العصور فهي شيء يتنافى مع طبيعة العلم ذاتها^(١).

من خلال تعريفنا للموضوع نستنتج بعض المبادئ المنهجية :

إن اللسانيات لا يجب أن تكون في نهاية البحث من أي نوع كان، بل يجب أن تكون في أصل البحث المستمر ، أي أن يكون البحث لسانياً خالصاً، وهذه إحدى النقاط المنهجية التي فرقت بين مرحلتين من التطور اللساني .

وانطلق رواد الحركة اللغوية في القرن التاسع عشر من حقيقة تثبتت مع نهاية القرن الثامن عشر، وفحواها أن الألسنة البشرية تتغير مع الزمن بالضرورة وتغيرها يفضي إلى انسلاخ صور لها بعضها من بعض حتى تفارق على التدرج هيئتها الأولى كلياً، ولأول مرة في تاريخ المعارف اللغوية يحصل التسليم بأن دراسة تغير الألسنة

(١) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

مقومات البحث العلمي

البشرية تمثل علماً قائماً بنفسه . وهذا ما عمل اللغويون طيلة القرن التاسع عشر على بناء صرحه .

ومنذئذ استقام على الصعيد المعرفي المنهج الذي يقود البحث اللغوي في إجراءاته التطبيقية ومستنداته النظرية ، ولشدة ما كان هذا المنهج غالباً بل متفرداً لم يكن اللغويون إذ ذاك ليعوا أنه لم يكن إلا منهجاً من بين المناهج الممكنة، ولهذا السبب ما كان لهم شأن بمفارقاته ولا كانت لهم حيرة بأن يخصوه بمصطلح يسمه فيحده بالجمع والمنع، وإنما الذي سيبلور المتصور الذهني ليسكبه في مصطلحه المناسب بعد الوعي الكلي بالقواعد المعرفية والأصول المنهجية هو فردينان دي سوسير عندما يجردها متصوراً الزمانية ليؤلف به ثنائياً تقابلياً .

لكن إذا حاولنا البحث عن التعريف العلمي لمادة " لسانيات : الدراسة العلمية للغة " تقريباً لا نكاد نعثر له على أثر في خضم البحث القديم والمستمتر في مجال الدرس اللغوي، ذلك أن الإنسان الأول لم يركز جهوده حول البحث في الآلية الإبداعية في المجال اللغوي، فقد كان يريد فهم السؤال القائل: ما الكلام ؟ فجاء هو نفسه بأجوبة تعريفية مختلفة، ذلك أن الاهتمامات المعرفية [الابستمولوجية] المختلفة كانت تتجاذبه من كل جهة ، هدفه فقط هو أن يقول عن الكلام ما هو ؟ أما كيف ندرسه فلم يكن العقل قد تفتح على هذا النوع من الأسئلة، لذلك جاء الجواب متأخراً ، حيث صاحب إثارة السؤال : كيف ندرس الكلام ؟

وحتى في القرن الـ ١٩ م الذي اشتهر بالدراسة النحوية نجد جهود اللغويين كانت مركزة حول تاريخ اللغات والعلائق التي تربطها ببعضها، وليست اللغة لذاتها هي موضوع البحث اللغوي، ولذلك فإلى عهد قريب، أي قبل القرن الـ ١٩ م نجد المنهج اللساني بالمفهوم العلمي مازال غائباً .

الفصل الثاني

وقد ركز د. سوسور جهوده لتعريف اللغة علمياً بعد أن وجد أن سابقه لم يحددوا موضوع دراستهم ، فأخذ على عاتقه هذه المهمة ، مهمة التعريف، فخصص الفصل الأول من كتابه [م . م . ع] لتحديد هذا الموضوع .

وإلى الآن نجد مصطلح [كلام] ممتزجاً بمجموعة من الحقائق المختلفة :
فيزيولوجية نفسية، سمعية، شفوية، بل وكل العلوم تقريباً يمكنها أن تدعى ملكية هذه المؤسسة الكونية التي على عاتق علماء اللغة تحديدها، ومعنى هذا أن ميدان اللسانيات الخاص ليس واضحاً بالرغم من أن دو سوسور يرى أنه من الإمكان التأكد من العلم قبل اكتشاف موضوعه الخاص .

كل المجتمعات البشرية تملك وسيلة للتواصل، لكن هذه الوسيلة تختلف من مجتمع إلى آخر، وبين هذا الاختلاف وما يمكن أن يدرك من تشابه - وفقاً لتشومسكي- يمكن أن توضع فرضية تتعلق بالموضوع اللساني والمنهج .

فهذا الموضوع هو اللغة ، المكون الاجتماعي للكلام الذي يعد قضية فردية وهو بدوره يختلف عن " الإنجاز [المظهر الإرادي والفردى، وهذا يختلف عن اللغة التي تعد نظاماً من الدلائل اللغوية .

يتفق عامة الدارسين اللغويين على أن علم اللغة كدراسة علمية للكلام بدأ انطلاقته الأولى مع نشر كتاب دو سوسور سنة ١٩١٦م المعنون بـ " محاضرات في علم اللغة العام " . ومعنى هذا أن هذا الكتاب المرفق بهذا التاريخ قد وضع حداً فاصلاً بين فترات خلت حين كان الإنسان يولى اهتمامه لوسيلة تواصله مع الآخرين ، وهذا الميدان العلمي الجديد : اللسانيات .

فإذا نحن تأملنا الدراسة اللغوية في العصور السابقة أي ما قبل ١٩١٦م وفترات المخاض اللساني الذي أفرز هذا الكتاب نجد أن الإنسان منذ العصور الأولى كان يولى اهتماماً للكلام ، وقد جمع حوله طائفة كبيرة من الملاحظات والشروح، وهكذا جاءنا موروث لغوي عظيم .

1

الفصل الثالث

ثوابت المنهج وعناصره





الفصل الثالث

سمات التفكير العلمي :

[1] العلمية : *Scientificity* :

العلمية أو المنهج العلمي [*Scientific method*] هو مجموعة من الإجراءات أو الأساليب التي يعتمد عليها أي باحث في دراسة ظاهرة من الظواهر، بعض هذه الإجراءات والأساليب حسي وبعضها عقلي ، وقد تتمثل الإجراءات والأساليب الحسية في الملاحظات المباشرة التي يقوم بها الباحث حول الظاهرة أو التجارب التي يجريها للتحقق من الفروض التي أقامها بناء على هذه الملاحظات ، أما الجانب العقلي فيتمثل في القواعد والقوانين التي يستنتجها من هذه الملاحظات والتجارب ، بحيث تكون قواعد عامة تحكم وتفسر حقيقة الظاهرة موضوع الدراسة، وما يرتبط بها أو يتفرع عنها من ظواهر أخرى، ولعل الجانب العقلي من مفهوم العلمية يأتي في المرتبة الأولى قبل الإجراءات والأساليب الحسية رغم أهميتها كما تتمثل في عصرنا الحاضر في الأجهزة والآلات الحديثة المتطورة التي يستعملها العلماء اليوم في إجراء التجارب أو رصد الملاحظات أو التحقق من الفروض وغير ذلك .

ويتمثل الجانب العقلي في عمليتي التجريد والتعميم، وهاتان الكلمتان تشيران في الحقيقة إلى لب المنهج العلمي في دراسة ظاهرة ما بغية الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم وتفسر جوانب الظاهرة المدروسة .

ذلك هو " التجريد " الذي إذا ما دخلنا مجال التفكير العلمي رأيناه شرطاً في كل فكرة علمية، فالمعرفة الجزئية وحدها لا تكون علماً؛ لأنّ الجزئية المعزولة عما عداها لا تكون من القوانين العلمية العامة التي تشملها وتشمل غيرها من بنات جنسها، ولعلنا قد لاحظنا كلمتي " معرفة " ، و " علم " حينما قلنا إن معرفتنا للجزئية الواحدة لا تكون " علماً " [*Science*] ، مما يبين لك أن المعرفة بالأشياء أوسع من العلم الخاص بها، فليس كل ما نعرفه هو من قبيل العلم والعلوم، ولكن كل حقيقة علمية

◆ نوايت المنهج وعناصره

ضرب من المعرفة، فلقد تعرف خصائص تميز أباك أو أخاك أو صديقك دون سائر الناس، فلا يكون ذلك ما تقصده بعلم النفس أو بغيره من علوم الإنسان .

ومثل ذلك أيضاً في مجال " اللغة " فقد نعرف خصائص تميز لغة عن لغة كالخصائص التي تميز اللغة العربية عن اللغة الإنجليزية ، فالصفة مثلاً تأتي بعد الموصوف في العربية في حين نجد العكس في الإنجليزية، ولكن هذا ليس هو المقصود بالعلمية في علم اللغة [*Linguistics*] وسائر العلوم الأخرى؛ لأن العلوم تجرد المعارف الجزئية من خصائصها الفردية لتصل إلى فكرة عامة تشملها جميعاً كأن تبحث عن طبيعة العلاقة بين الصفة والموصوف في اللغات الإنسانية، وهنا تصبح الفكرة علمية [*Scientific*] مادامت قد استندت بحق إلى ركائز من معارف جزئية أدركناها إدراكاً صحيحاً، مثل معرفة الخصائص الفردية لكل لغة من اللغات في علاقة الصفة بالموصوف فيها .

والفكرة المجردة إذا بلغناها من خلال المعرفة الجزئية وجدناها بالضرورة فكرة عامة لا تصدق على فرد واحد، أو موقف واحد، أو لغة واحدة، وإنما تصدق على مجموعة من الأفراد أو مجموعة من المواقف المتجانسة، ونقول " مجموعة " ولا نقول " كل " ؛ لأن الاستقراء الناقص هو الذي تثبت به القوانين العلمية، أما الاستقراء الكامل فمستحيل .

ومعنى هذا أن الدراسة العلمية للغة ليست هي المعرفة بخصائص لغة معينة أي ليست دراسة للغة فردية، وإنما هي دراسة الظاهرة الإنسانية المعروفة في المجتمعات البشرية باسم اللغة، بغض النظر عن كونها لغة قوم بعينهم لها خصائصها الفردية التي تميزها عن سائر اللغات، كما أميز قلبي هذا عن سائر الأقلام بخصائصه الفردية التي يمتاز بها .

واضح أن الهدف من وراء هذه الدراسة العلمية للغة هي الوصول إلى القوانين العامة التي تجرى عليها اللغات وتصدق عليها جميعاً بغض النظر عن خصائصها

الفصل الثالث

الفردية التي تميزها عن غيرها، فنقول هذه لغة عربية أو إنجليزية أو فرنسية أو غير ذلك .

هذا هو الفرق الحاسم بين الدراسات اللغوية التقليدية ، سواء عند العرب أو عند الفيلولوجيين في أوربا، بل عند الشعوب جميعاً قبل ظهور علم اللغة الحديث بهذا المفهوم العلمي، إذ كانت الدراسات التقليدية تصب اهتمامها على دراسة لغة معينة لأهداف غير الدراسة ذاتها أحياناً مثل تعليم اللغة أو معرفة الصواب والخطأ في الاستعمال اللغوي أو فهم نص ديني إلى غير ذلك من الأهداف العلمية التي استبعدتها علم اللغة الحديث من دراسة اللغة، أو بمعنى أدق استبعدتها علم اللغة النظري من اهتمامه وجعل لها فرعاً مستقلاً من فروع علم اللغة هو علم اللغة التطبيقي .

وغني عن القول إنه لولا هذه الدراسات الجزئية للغات بعينها والتي قام بها علماء اللغة التقليديون في الشرق والغرب على السواء، ما استطاع علم اللغة أن يضع أسس الدراسة العلمية للغة، فهو بلا شك مدين لجهود هؤلاء العلماء الذين توافروا على دراسة لغاتهم بهمة لا تعرف الكلال وبشغف منقطع النظير كما فعل علماء العربية القدماء.

غير أن علماء اللغة عندما يتحدثون عن المنهج العلمي أو العلمية في دراسة اللغة ، لا يكتفون بهذا الفهم لمعنى المنهج العلمي والعلمية، وإنما يضيفون إلى ذلك جوانب أخرى في معنى " العلمية " في دراسة اللغة توصلوا إليها من مراجعة مناهج علماء اللغة القدماء في دراسة اللغات المختلفة، فوجدوها تقتصر إلى هذه الجوانب التي حصرها بعض علماء اللغة المعاصرين في ثلاثة أمور هي :

١- الدقة والوضوح *Explicitness* .

٢- المنهجية *Systematicness* .

٣- الموضوعية *Objectivity* ^(١) .

(١) D'crystal : Linguistics, penguin Books, London, 1974, PP.78-94.

❖ نواتج المنهج وعناصره

هذه الجوانب ، كما ترى ، قد تتصل بالدراسة العلمية بشكل عام، سواء أكان موضوعها اللغة أم غير اللغة، إلا أن كثيراً من علماء اللغة يرون ضرورة توافرها في الدراسة اللغوية بصورة خاصة؛ لأن الدراسات اللغوية التقليدية غالباً ما كانت تقتصر إليها .

وفيما يتصل بجانب الدقة والوضوح ، يضربون المثل بالمصطلحات العلمية التي تتألف عادةً من مفردات أو عبارات خاصة ينبغي أن تحدد دلالتها بصورة دقيقة وواضحة على ألا تختلط بغيرها من الكلمات أو العبارات التي يستعملها عامة الناس، وأهم من ذلك أن بعض هذه المصطلحات قد تداولها لغويون وعلماء قداماء ومحدثون ينتمون إلى مدارس لغوية مختلفة، وقد حددوا دلالتها بأشكال وطرق شتى، ولذلك لابد لمن يبحث في علم اللغة من إيضاح مثل هذه المصطلحات إيضاحاً دقيقاً لا لبس فيه .

فمثلاً لابد أن نوضح بدقة ماذا نقصد بمصطلح صائت [Vowel] أو صامت [consonant] أو مقطع [Syllable] أو اسم [Naun] أو جملة [Sentence] أو كلمة [Word]^(١).

ولتحديد مثل هذه المصطلحات اللغوية يفترض أولاً من وجهة النظر العلمية أننا نتمسك بأمرين :

أولهما : الثبات على المصطلح بالدلالة نفسها خلال الدراسة اللغوية بأكملها .

ثانيهما: المعايير التي يتم تحديد المصطلح بها .

الركيزة الثابتة الأولى في المنهج توجب وضوح الإطار الذي يعمل فيه اللغوي، والأسس التي يعتمد عليها والخطوات التفصيلية التي يتبعها في البحث، والثبات عليها جميعاً طيلة المدة التي يجري فيها البحث أو الدراسة .

Jiri,Kramsky, the Word as a Linguistic unit PP. 12-13, Mouton, The Hague, (٢)
Paris, 1969.

الفصل الثالث

- أما الركيزة الثانية للمنهج العلمي والتي تسمى الانتظام والثبات فهي متصلة بالركيزة الأولى، ولكنها تؤكد على تنظيم العمل بشكل معين والثبات على الأسس التي يعتمد عليها، وتطبيقها بشكل منظم، ليس على مظهر جانبي أو على نقطة واحدة أو نقطتين لغويتين، بل على الدراسة بأسرها، بحيث تمثل النتائج التي يمكن الحصول عليها رؤية شاملة غير مبتورة، ولكن وجهة نظر اللغويين المحدثين جميعاً هي أن اللغة ظاهرة ذات طبيعة فذة تختلف عن طبيعة أية ظاهرة أخرى من ظواهر هذا العالم، ولذلك فإن المنهج العلمي الذي يجب أن يطبق على دراساتها يجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة للغة.

وإننا إذا نظرنا إلى العلوم على اختلاف أنواعها وجدناها كلها تتجه نحو غاية واحدة، هي الوصول إلى حقيقة الشيء الذي تبحث فيه، وهذا يستلزم معرفة الشروط التي يجب توفرها في الأساليب العقلية المؤدية إلى الحقيقة، وعلماً بالأدلة التي بها يبرهن عليها، ودراسة هذه الأدلة وشروطها ومعرفة الصحيح منها والفاقد.

ومن هنا يتبين أن المنهج العلمي العام هو تطبيق القواعد المنطقية التي يتبعها العقل في كسبه للحقائق العلمية المنظمة؛ إذ المنهج العلمي هو أرقى مظهر من مظاهر التفكير المنتظم، فهو يستعمل بكل دقة جميع العمليات العقلية التي يراد بها كشف الحقائق وتبسيطها مثل عمليات التحليل والتركيب والتخيل، والملاحظة، والموازنة، والتجريد، والتعريف، والتصنيف، والتقسيم، كما يستعمل الاستدلال أو أنواع الحجج من استقراء وقياس وتمثيل. وبذلك يتمكن الباحث من اختبار كل ما يصل إليه من الآراء والنظريات، وما يفترضه من فروض، وما يستنتجه من استنتاجات، وما يدلي به من حجج.

ويكون المنهج في هذه الحالة هو الطريق الذي يسلكه الباحث في تبيان المعلومات والحقائق الكامنة والظاهرة وتوضيح البحث كوحدة واحدة لا انفصام فيها،

نوايت المنهج وعناصره

وبانسباق ثابت ومحدد. ويكون المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من ألفه إلى يائه .

وقد كان رواد علم اللغة الحديث، أو الدراسة الوصفية ينطلقون في دراساتهم من الملاحظات إلى الفرضيات، على النحو التالي:

- ١- ملاحظة الأحداث والمعطيات اللغوية .
 - ٢- صياغة بعض التعليمات للأحداث المتشابهة .
 - ٣- صياغة افتراضات تفسر هذه الأحداث على ضوء التعليمات السابقة.
 - ٤- التأكد من ملائمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي .
 - ٥- بناء نظرية قائمة على هذه الافتراضات .
 - ٦- اعتماد النظرية السابقة لوصف قضايا اللغة وتفسيرها^(١).
- أما الخصائص التي اتسم بها المنهج الوصفي، فاهمها ما يلي^(٢):

- ١- اعتماد معايير واحدة في تحليل التنظيم اللغوي .
- ٢- اعتماد القواعد الأكثر وضوحاً وتبسيطاً في تبيان عناصر اللغة ووصفها وتفسيرها .
- ٣- شمول المستويات اللغوية [الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية] كافة، واستنفاد القضايا اللغوية بالبحث .
- ٤- اعتماد الموضوعية للتحقق من الافتراضات اللغوية، لذلك لا يتبنى المنهج الوصفي هذه الافتراضات إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق .
- ٥- تناول اللغة على أنها موضوع من موضوعات الوصف، كالتشريح، لا مجموعة من القواعد كالقانون . فالباحث في تشريح الجسم الإنساني لا يقول:

(١) ميشال زكريا: الألسنية [علم اللغة الحديث] مبادئها وأعلامها ، ص ١٤١ ، بيروت ١٩٨٠م؟

(٢) السابق نفسه ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

الفصل الثالث

يجب أن يكون العظم الفلاني بهذا الموضع، أو يجب أن يكون العضو الفلاني بهذا الحجم أو الوزن أو الصورة، إنما يشرح شرحاً وصفيّاً موضوعياً ما يقع تحت نظره، وهكذا على الباحث في اللغة أن يذكر خصائصها دون أن يحكم بأن هذا القول جائز، وذلك لا يجوز؛ لأنّ همّه وصف الحقائق لا فرض القواعد^(١).

٦- اختيار مرحلة بعينها لوصفها وصفاً استقرائياً، واتخاذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء، وتسميتها قواعد . فالقاعدة في الدراسة الوصفية ليست معياراً، وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية^(٢).

والفكرة الرئيسة في قانون البحث العلمي هي أنه لا سابق دون لاحق ولا لاحق دون سابق . لناخذ على سبيل المثال عالم اللسانيات الأمريكي - نوم تشومسكي - فسوف نجد برهاناً على ما نقول، فعلى الرغم من أن هذا العالم قد رفض كل شيء أتت به البنيوية ، ولكنه في صميم أعماله التوليدية والتحويلية إنما هو بنيوي . إن ما فعله تشومسكي هو أنه قلب البنيوية رأساً على عقب وأتى بشيء جديد لم تلتفت إليه البنيوية وهو دراسة " اللغة " على أنها ظاهرة " فيزيائية - رياضية - آلية - بيولوجية " تعمل داخل الدماغ البشري .

ولا نريد هنا أن نسترسل في وجوه الخلاف بين المنهجين وأصحابهما، ولكننا يجب أن نعترف بأن ما قدمته هذه المدرسة اللغوية من خدمات وما طلعت به علينا من نظرات عميقة جداً للنظام اللغوي الكامل، قد فاقت كل ما قدم في التاريخ حتى الآن، وهذا ما ترف به جميع علماء اللغة المعاصرين مهما اختلفت اتجاهاتهم كما يعترف به علماء آخرون كثيرون من ذوي الاهتمامات المختلفة ، كما أن أبحاث هذه المدرسة لم

(١) انظر د/ تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) السابق نفسه ، ص ٢٦ .

❖ نوايت المنهج وعناصره

تتقطع أبداً ويساهم فيها معظم اللغويين المعاصرين. ولذلك فإننا نعتقد بأن الهوية الظاهرة الآن بين موضوعية المنهج العلمي الذي يعتمد على التجريب المتجرد، وبين ما يبدو مخالفاً لذلك في منهج هذه المدرسة .

وهذه الشروط صعبة التحقيق من الناحية العملية، ولكن يحسن بكل باحث أن يضعها نصب عينيه ويطبقها بقدر ما تسمح به الطاقة في طريقة بحثه عن أية حقيقة من الحقائق العلمية .

والتفكير العلمي هو التفكير المنظم الذي يلزم توظيف سماته في إنتاج الموضوعات وجمع مادتها وتنظيمها وتصنيفها ومناقشتها وعرضها على الدراسات السابقة في التخصص نفسه لاستخلاص آراء جديدة والوصول إلى نتائج تتناسب معها.

الموضوع :

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعاً وتصنيفاً وتقعيداً، وهو ضروري أيضاً حين يختار الباحث النظرية التي على هداها يقوم بالعمل، فينبغي أن تكون أسس هذه النظرية واضحة، وينبغي أن يكون واعياً بالاعتبارات التي استند إليها عند اختياره لها .

ويجب أن تكون المادة مستوفاة وملاحظتنا شاملة ، بحيث لا يفوتنا من موضوع البحث شيء .

ويجب أن تكون الغاية من البحث واضحة جلية؛ لأن غاية البحث إذا كانت غامضة تخبط الباحث شر تخبط، وأضاع وقته ومجهوده .

أما الغاية من أي بحث علمي فيعينها علمنا السابق بالمسائل المتصلة به، لأن العلم ببعض الشيء يلقي ضوءاً على النواحي المجهولة فيه، ويعين المسائل التي لا تزال تتطلب الحل .

الفصل الثالث

والحقيقة التي ينبغي مراعاتها هي أنه ليست هناك مناهج تصلح لكل شيء، وإنما هناك مبادئ عامة وأصول فنية يكون منها الباحث المنهج المناسب لموضوعه حتى تتجه خطته اتجاهًا سليماً رشيداً نحو غاية محددة ونتائج صحيحة .

يعتمد الوضوح على عدة أمور تشترك فيها الدراسات العلمية جميعاً كوضوح الفرضيات التي يعتمد عليها البحث، ووضوح الخطوات المتوسطة وخاصة إذا كانت هناك فرضيات أخرى تعتمد عليها .

فهناك مشكلة المصطلحات أو التعابير الفنية التي تتألف عادةً من مفردات أو عبارات خاصة ينبغي أن تحدد معانيها بشكل دقيق وواضح للغاية حتى لا تلتبس مع ما يمكن أن يفهم منها عند استعمالها استعمالاً عادياً بين عامة الناس .

وتحديد معاني هذه المصطلحات الفنية يفترض أننا نتمسك بأمرين :

أولهما : هو الثبات على المصطلح المعين بالمعنى نفسه خلال البحث اللغوي بأكمله . وثانيهما : يتعلق بالمعايير التي يجري تحديد معنى المصطلح بموجبها .

ومن الأمثلة التي تعطى عادةً على معايير غير دقيقة أو غير علمية؛ لأنها تعتمد على مفاهيم غامضة ذلك التعريف التقليدي للجملة بأنها " مجموعة من الكلمات تتألف من مبدأ وخبر وتؤدي معنى تاماً " .

فهذا التعريف يعتمد أولاً على مفاهيم يجب أن تكون محددة سلفاً مثل مفاهيم " الكلمة - المبتدأ - الخبر - المعنى التام " ، وهي من المفاهيم التي يعسر تحديدها، ولكن لا يجوز أن تؤخذ كمسلمات يعتمد عليها أي تعريف يقصد به التحديد والتوضيح. أما الأمر الآخر في هذا التعريف فهو أنه يعتمد على نوعين من المعايير :

المعيار الأول : لغوي ، أي أن له علاقة مباشرة باللغة، أو يعتمد على اللغة نفسها بشكل رئيس .

◆ نوايت المنهج وعناصره

المعيار الآخر : وهو " المعنى " ، فيعتمد على العالم الخارجي ، أي الخارج عن نطاق اللغة نفسها؛ لأن المعنى بالمفهوم العام هو العلاقة بين اللغة والعالم الخارجي. بالإضافة إلى ذلك فإن التعريف يدور حول نفسه، أي أننا إذا سألنا أنفسنا السؤال التالي : إذا كانت الجملة تؤدي معنى تاماً، فما هذا المعنى التام ؟ وستكون إجابتنا في الغالب : المعنى التام هو ذلك المعنى الذي تؤديه الجملة . وهكذا نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة .

ومن أمثلة استعمال المعايير المختلفة لتعريف المصطلح نفسه على أيدي مدارس لغوية عربية مختلفة، تعريف أجزاء الكلام .

فهم جميعاً متفقون على تقسيم الكلام إلى ثلاثة أجزاء : الاسم والفعل والحرف. إلا أن المعايير التي وضعها اللغويون القديما لتحديد كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة تختلف من مدرسة إلى أخرى . فنجد مثلاً أن ابن مالك يميزها في ألفيته المشهورة باستعمال معايير لغوية شكلية، أي لا علاقة لها بالمعنى فيعرف الاسم بأنه : تلك الكلمة التي تجر بحرف الجر وتتنون وتسبقها " ال " التعريف وتقع مسنداً إليه كما تقع منادى في الجملة .

وجميع هذه المعايير صرفية نحوية، أي لغوية تتعلق بشكل الكلمة وما يمكن أن يطرأ عليها من تغييرات، كما تتعلق بالوظيفة التي يمكن أن تؤديها الكلمة في الجملة . كما عرّف ابن مالك الفعل بالطريقة نفسها وعدّ الحرف ما عدا ذلك .

وهذه المعايير شبيهة جداً بتلك التي استعملها أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية الحديثة في أمريكا وأوروبا ، ولكن نحويين آخرين من العرب اتخذوا المعنى معياراً لتعاريفهم فقالوا : " إن الاسم هو ما دل على مسمى، والفعل ما دل على حدث وزمن، والحرف ما ليس كذلك " .

وقس على ذلك مصطلح الجملة الاسمية والجملة الفعلية، فالجملة الفعلية ليس بالضرورة أن تبدأ بفعل، وإنما يعتمد الإسناد فيها على ركن اسمي يقوم بوظيفة الفعل

الفصل الثالث

ويعمل عمله كالمصادر والمشتقات وأسماء الأفعال، لكن هناك دراسات تعد الجملة التي تبدأ باسم فعل جملة اسمية؛ لأن صيغة اسم الفعل صيغة اسمية على حين أن معناه هو معنى الفعل وزمانه هو زمن الفعل، فأحياناً نستعمل معياراً شكلياً أي الصيغة في التصريف وفي أحيان أخرى نعتد على المعنى وهو معيار آخر.

الموضوعية :

المقصود بالموضوعية في التفكير العلمي التزام الباحث بالشروط التي تجعله متفقاً مع العلماء فيما قرروه، ويأتي على رأس تلك الشروط التخلي عن التحيز خلال استعمال لغة ملائمة تعبر عن الحيطة والموضوعية في عرض الآراء والأفكار المختلفة، والالتزام بتصحيح إحساساته وتعديلها وتنظيمها، والتجرد والنزاهة وتجنب كل حكم من أحكام القيمة، والابتعاد عن الأهواء الشخصية والرغبات والميول والآراء المسبقة.

وتؤدي الموضوعية في البحوث اللغوية إلى الدقة في صياغة الآراء والتعبير عن الأفكار والاستنتاج السليم والملاحظة الواعية والقدرة على التفسير والتنسيق والتنظيم. ولا تمنع الموضوعية الباحث في اللغة من التدخل للتعبير عن آرائه واجتهاداته والاستدلال السليم على بعض النتائج المترتبة على البحث.

ومن هنا كان الائتلاف بين هذه الأشتات؛ لكونها خالصة العروبة، وخاضعة في النظر والدرس لمنهج واحد هو منهج الوصف القائم على تسجيل الواقع في إطار سياقه وطبيعته، بالنظر الواعي والمعالجة اللغوية الصرفة.

تراكمية العلم وتنظيم الماماة :

لا يجوز في التفكير العلمي أن نترك أفكارنا تسير حرة طليقة دون تخطيط أو تدبير، أو تمضي بطريقة أقرب إلى التلقائية والعفوية، بل لابد من العمل بطريقة منهجية منتظمة، مع بذل أقصى مجهود من أجل الوصول إلى أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها، وهذا يتأتى في ضوء الوعي التام الذي ينظم أفكارنا وينسقها وينظمها .

والتنظيم الذي يعد من سمات التفكير العلمي وخصائصه يصنعه العقل البشري، ويبعثه في العالم بفضل جهده المتواصل الدؤوب في اكتساب المعرفة، وهو يتأتى عن طريق اتباع " منهج " Method ، أي طريق محدد يعتمد على خطة واعية، والمنهج والعلم وجهان لعملة واحدة؛ حتى إننا نستطيع تحديد العلم ووصفه بأنه " معرفة منهجية " ؛ لذلك نجد فيلسوفاً ذا عقلية علمية جبارة مثل " ديكارت " يستنتج أن العلم ووصفه بأنه " معرفة منهجية " ؛ لذلك نجد فيلسوفاً ذا عقلية علمية جبارة مثل " ديكارت " يستنتج أن العلم ليس إلا منهجاً؛ لإيمانه الشديد بأهمية المنهج في العلم .

وتصف التراكمية الطريقة التي يتطور بها العلم ويعلو بها صرحه، وهي تدل على أن " المعرفة العلمية " تتغير باستمرار، ويطراً عليها الكثير من التطور، وحين تظهر نظرية جديدة يؤدي ذلك إلى إلغاء النظرية السابقة عليها، وتحويلها إلى شيء يهتم به المشتغلون بتاريخ العلوم .

وإذا كانت صفة التراكمية تنطبق على المعرفة العلمية، فإن الأمر يختلف مع المعرفة اللغوية ، بمعنى أن كل نظرية أو منهج جديد يظهر في علم اللغة ليس مقطوع الصلة بما سبقه من النظريات والمناهج، بل لابد من معرفتها والإلمام بها والإشارة إلى ما تضيفه النظرية أو المنهج الجديد، وربما يوضح اللغوي أو اللغويون جوانب القصور أو الضعف عند السابقين عليهم .

الفصل الثالث

وقد استطاع علم اللغة الحديث بفضل جهود رواده الأوائل وإضافات العلماء اللاحقين أن يجعل من دراسة اللغة علماً *Science* مثل بقية العلوم؛ وذلك بفضل المناهج التي استطاع التوصل إليها، والتي يصيبها التطور والتجديد والإضافات المستمرة على الدوام، ولكن يظل الباحث المعاصر مطالباً بمعرفة تلك المناهج، واختيار أحدها للتطبيق في اللغة، وربما يختار أكثر من منهج، وهذا يرتبط بطبيعة الموضوع أو الظاهرة أو القضية التي يدرسها ويحللها، ويحاول التوصل إلى القوانين التي تضبطها، والنظرية اللغوية العلمية التي تجدها وتوضحها وتقنها .

ولابد في " البحوث اللغوية " من وجود أمرين على قدر كبير من الأهمية ، أولهما : استقراء الحقائق الجزئية ، وثانيهما: استنباط الحقائق الكلية والقضايا العامة. والمقصود بذلك أن البحث في اللغة يقوم على أساس استقراء موضوع البحث والدرس، وهذا يتطلب من الباحث القيام ببعض " الإجراءات " يأتي على رأسها جمع النصوص والشواهد والجمال والعبارات الافتراضية، ثم تصنيفها وفقاً للموضوعات المتصلة بالبحث .

ويجب على الباحث الاحتياط حين جمع المادة؛ لأن الاستقراء لا يعني أن تكون مادة البحث خليطاً من الحقائق المفيدة وغير المفيدة، بل لابد من الانتقاء والاختيار والانتخاب القائم على الدقة والتروي .

وهكذا يمكن القول بأن صفة التنظيم تحتل مكانها عند نقطة بداية البحث العلمي، حيث تتمثل في اتباع العلم لمنهج منظم، وكذلك عند نقطة نهاية هذا البحث، عندما يكون العالم من النتائج التي يتوصل إليها نسقاً مترابطاً يستبعد أي نوع من التناقض داخله .

يمتاز العلم بأن حقائقه يرتبط بعضها ببعض في بناء نسقي؛ فليس العلم مجموعة مفككة أو مبعثرة من الحقائق أو القوانين التي لا ترابط بينها، بل هو مجموعة حقائق منظمة تنظيماً يسمح لنا بأن نستنبط بعضها من بعضها الآخر، أو أن نفسر

نهاية المنهج وعناصره

بعضها ببعضها الآخر، وهذا ما يسمح لنا بالتنبؤ، فما التنبؤ إلا استنباط حالة مستقبلية من حالات سابقة أو استنباط هذه الحالة من مبدأ أو قانون عام وصلنا إليه . وبدون هذا التنظيم النسقي لا يقوم علم، ومهما تكدست الحقائق فإنها لا تكون علماً^(١).

يبدأ العالم بحوثه دائماً من حيث انتهى العلماء السابقون وعندما ينتهي هو يبدأ العلماء اللاحقون، وعلى هذا يتطور العلم ويتقدم، ويكون البحث متصلاً . ومن أجل ذلك يجب على العالم أن يطلع على جميع البحوث العلمية التي تم إنجازها في مجال تخصصه، وعلى آخر ما وصل إليه العلماء قبل أن يبدأ بحثه، حتى لا يبدأ من نقطة بدأ منها غيره، وحتى لا ينتهي إلى ما انتهى إليه غيره، فلا يعمل على تقدم العلم^(٢) .

ولهذا وجب على كل باحث وعلى أي بحث أن يضع بنداً في مقدمة هذا البحث بعنوان الدراسات السابقة، وبنداً آخر بعنوان أهداف البحث والبنودان يسهمان معاً في بيان من أين بدأ هذا البحث؟ وإلى أي مدى سينتهي؟ وماذا سيحقق؟ .

المادة والتجريب :

لا يكون النشاط العقلي للإنسان علماً بالمعنى الصحيح إلا إذا استهدف فهم الظواهر وتعليلها، ولا تكون الظاهرة مفهومة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة، إلا إذا توصلنا إلى معرفة أسبابها، وتمكننا تلك المعرفة من أن نتحكم في الظاهرة على نحو أفضل، ونصل إلى نتائج عملية أنجح بكثير من تلك التي نصل إليها بالخبرة والممارسة. ويؤدي البحث عن الأسباب إلى التوصل لما يمكن أن نسميه بدقة التفسير للظواهر النحوية والقضايا اللغوية، وما يزال الباحث يدرس العلل والأسباب الفرعية حتى ينتهي في الظاهرة أو القضية إلى أسباب وعلل عامة، تضم حقائق الظاهرة الجزئية وتفسرها تفسيراً دقيقاً .

(١) انظر د/ محمد السرياقوسي : التعريف بمنهج العلوم ص ٧٠ .

(٢) د/ زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ١٤/٢ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١٩٦٦، م٤.

الفصل الثالث

ويتطلب البحث في اللغة والنظر في قضاياها ودراسة مشكلاتها دقة الصياغة حين التعبير عن الأفكار المختلفة، ووصفها بطريقة تجريدية دون أن ننساق وراء الأحكام المعيارية أو الجمالية؛ لذلك من غير المقبول في البحوث اللغوية وصف أحد أبيات الشعر بالجمال أو القبح بالجودة أو الرداءة دون أن نقدم الخصائص التركيبية التي تعلل هذا كله .

وعلى الرغم من وجود بعض الأحكام المعيارية عند النحاة العرب منذ المراحل المبكرة فإن تلك الأحكام كانت تعلل في ضوء قواعد التركيب النحوي للجملة العربية^(١).

لهذا صرفت النظرية اللسانية همها عن طريق التجريد والتعميم إلى كل ما هو عام ومشارك في إطار ما سمي باللسانيات التقريرية *Deterministic Linguistics* ، ولما كان التنوع حقيقة واقعة في السلوك اللغوي وجوهرًا ثابتًا في حقها - اطلعت بدراسته مجموعة من علوم اللسان حملت اسم اللسانيات الاحتمالية *Probabilistic Linguistics* ، وكانت الأسلوبية من بين أهم هذه العلوم .

على أن النظرية اللسانية حين ضحت - عن اختيار منهجي - بالتنوع اللغوي في إطار اللسان الواحد إنما فعلت ذلك لانصرافها إلى نوع آخر من التنوع لا مفر من اعتباره حين تكون الاستراتيجية البحثية منصرفة إلى تفسير الظاهرة اللسانية، ونعني به تنوع ما صدقات الظاهرة اللسانية إلى شفرات لغوية مختلفة كالإنجليزية والعربية والروسية وغيرها، بما هي تجليات لقدرة واحدة ينماز بها الإنسان من سائر الخلائق، وبما هي موضوعات لعمل العقل البشري وآلياته في الكسب والاختزان والاستدعاء والابتكار والتوظيف، ويجهد الباحث للوصول من خلال هذا التنوع إلى الجوامع اللسانية *Linguistic Universals* المائزة للسان بما هو خاصة للإنسان .

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان [نصوص ومعايير] من كتابنا المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، ط دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٤ م .

التنبؤ والتحكم :

لا يقف فلاسفة العلم كثيراً عند التنبؤ، ليس لضآلة أهميته ، بل لأنه الوظيفة أو المهمة أو الهدف الذي لابد أن يتحقق إذا ما كان المشروع العلمي ناجحاً، فليس له أوصاف أو شروط محددة عن وظائف العلم الأخرى بخلاف الشروط التي ينبغي توافرها في الوصف والتفسير . فالتنبؤ أو إمكان التنبؤ *Predictability* هو الحصاد الأخير للوصف والتفسير .

ويقول رايشنباخ إن المعرفة العلمية هي أداة التنبؤ، أي أن وظيفة العلم هي التنبؤ^(١) ، ويسمى فلسفته للعلم باسم " الفهم الوظيفي للمعرفة " ، بحيث لا تشير المعرفة إلى عالم آخر، وإنما تقدم عرضاً للأشياء في هذا العالم، بغية أداء وظيفة تخدم غرضاً، وهو التنبؤ بالمستقبل ، وهو بذلك يضع المبدأ الوضعي وهو " القابلية للتحقق في صيغة جديدة " .

والهدف المباشر للتفكير العلمي هو إقامة تنبؤات صحيحة لحوادث الطبيعة، والمحك الوحيد لصحة النماذج العلمية التي يقدمها تاريخ العلم أو مجالاته هو التنبؤ الناضج^(٢) .

يعد البعض التحكم الوظيفة الرئيسة للمنهج العلمي فما يميز رجل العلم عن غيره هو إيثاره للتحكم فهو المعيار الأصيل للعلم .

والتحكم والتنبؤ لديه يستعملان بمعنى واحد؛ لأن التنبؤ بتكرار وقوع ظواهر معينة إنما هو التحكم في ذلك التكرار في الوقوع إذا ما كان من الممكن إعادة بناء الظروف التي وقعت في نطاقها تلك التكرارات . ولا يلزم أن يكون التحكم فعلياً في

(١) M.Walker, the Nature of Scientific thought, preface, P122, Hall, New Jersey, 1963.

(٢) المرجع السابق : المقدمة .

الفصل الثالث

جميع الأحوال، ويكفي أن يكون تحكماً فرضياً *Hypothetical* إذا ما تعذر بناء الظاهرة بصورة عملية^(١). ويعني التحكم بذلك معالجة الظروف المحددة للظاهرة لكي تحقق تفسيراً معيناً للتنبؤ بمسارها، أو تحقق وصفاً منضبطاً يتدخل كافة الظروف أو الشروط ليستبعد ما هو عارض، ويبقى على ما هو جوهري ملائم لهذا الوصف.

ويؤيد هذا المعنى ما ذهب إليه "هايزنبرج" من أن ما نسميه بالعالم الموضوعي هو من صنع تدخلنا النشط وطرق مشاهداتنا المتطورة، وتجاربنا ليست كما يقول هي الطبيعة نفسها، وإنما هي الطبيعة بعد أن تغيرت وتبدلت باجتهادنا في سير البحث^(٢).

وعلى أية حال، فوظيفة التحكم تتعلق بقابلية معالجة موضوعات البحث التي تخضع للمنهج العلمي لإجراء المشاهدات والتجارب، وتطبيق الاستدلالات المنطقية عليها.

يفترض هذا أن المنهج العلمي ليس أداة تسجيل أو مرآة عاكسة لموضوعات البحث، وكأنها "أشياء قائمة هناك"، بل يعني أن المنهج العلمي مركب مؤلف من موضوعات الملاحظة، والقائمة بالملاحظة أي رجل العلم معاً على السواء.

الملاحظة والتجريب:

"الملاحظة" من الألفاظ التي لا يمكن تعريفها تعريفاً دقيقاً؛ لأن أي تعريف لها سيتضمن لفظاً مرادفاً لها أو يتضمن اللفظ نفسه، ولكن يمكن الإشارة فقط إلى معناها حين نقول مثلاً: إنها توجه الحواس والانتباه إلى ظاهرة معينة أو مجموعة من

(١) H. Becker, through values to Social Interpretation PP. 185-290, Duke University Press, Durham, 1950.

(٢) ف. هايزنبرج: المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ص ٧٢-٧٣، ترجمة د. أحمد مستجير، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م.

نوايت المنهج وعناصره

الظواهر رغبة في الكشف عن صفاتها أو خصائصها توصلنا إلى كسب معرفة جديدة عن تلك الظاهرة أو الظواهر .

والملاحظة، سواء أكانت بحثاً أو مع التجربة العلمية، هي توجيه الفكر إلى شيء من الأشياء أو صفة في شيء أو خاصية فيه بقصد معرفة حقيقته ، وللملاحظة غرضان :

الأول : إشباع الرغبة الطبيعية التي في الإنسان ، وهي حبه الوصول إلى حقيقة الأشياء .

الثاني : الانتفاع بنتائج الشيء الملاحظ في الحياة العملية .

وليس المراد من توجيه الفكر إلى الشيء الملاحظ مجرد مشاهدة الأشياء، وتأثر الحواس بما يصل إليها من المؤثرات الخارجية من أضواء وأصوات ومذوقات ومشمومات، بل الملاحظة عملية من عمليات العقل، أو مجموعة من العمليات العقلية، نجمل عناصرها فيما يأتي :

أولاً : توجيه الانتباه إلى ناحية خاصة أو صفة خاصة من صفات الشيء الملاحظ وإهمال ما عداها .

ثانياً : إدراك لمعنى الأثر الذي تنتقله الحواس بعد حصر الانتباه فيه، ويكون ذلك الإدراك بتأويل ذلك الأثر على ضوء الخبرات السابقة التي كسبها العقل في حياته .

ثالثاً : استنتاج ما يمكن استنتاجه بعد تأويل المدركات الحسية، وبعد إدراك العلاقات المختلفة التي بين الشيء الملاحظ وغيره من الأشياء والباحث في كل خطوة من هذه الخطوات الثلاث عرضة للخطأ .

فقد يوجه انتباهه إلى جهة غير مهمة، ويهمل الجهات المهمة من الشيء الملاحظ . وقد يخطئ في إحساسه، فتتقل الحواس ما ليس موجوداً بالفعل في العالم

الفصل الثالث

الخارجي . وقد يخطئ في إدراك الشيء المحسوس فيؤوله على غير حقيقته . وقد يخطئ في استنتاجه فيستدل استدلالاً خاطئاً، غير مستند إلى أساس صحيح . والملاحظة والتجربة أمران متتامان، ومن طبيعة واحدة، فليست الأولى سلبية بينما الثانية إيجابية، بل هما إيجابيتان، ويمثلان تدخلاً عقلياً لتنسيق عناصر الظاهرة المبعثرة المتناثرة.

وفي الملاحظة يتفاوت تدخل العقل بتفاوت القدرات والإمكانات، وليست العبرة في تكدر الملاحظات وتسجيلها ، بل بالقدرة على تنسيقها وربطها، وتفسيرها تفسيراً صحيحاً للإفادة منها في الفهم والكشف، وقد يرجع قصور الملاحظة غير العلمية عن فهم الظواهر وكشف العلاقات بينها إلى أنها ملاحظة غير موجهة كما أنها ترى الظواهر منفصلة عما عداها .

وأما التجربة فهي ملاحظة الظاهرة بعد تعديلها تعديلاً كبيراً أو ضئيلاً عن طريق التحكم في بعض ظروفها واصطناعها ^(١) . فإذا كان البحث بمثابة مشكلة يراد لها الحل، فإن الملاحظة تقوم بتحليل المشكلة ووصفها وصياغتها، وتقوم التجربة باقتراح الحل وتبسيط ظروفه، ثم تأتي الملاحظة في النهاية لتساهم في إثبات كفاءة الحل وتقدير قيمته . والملاحظة في حاجة إلى أدوات من الحواس والعقل على السواء لتحديد عناصر التجربة ومعالجة الوقائع .

وإذا كان مفهوم التجريب يرتبط بالملاحظة والاستقراء، فإن علينا أن نميز - كما يقول فلاسفة العلم - بين التجارب الإدراكية ومنطوقات الملاحظة التي يتحتم أن تصاغ في لغة نظرية . ومعنى هذا أن النظرية ينبغي أن تكون حاضرة في الملاحظة تختبرها وتسيرها . وتصبح الملاحظات الجديرة حقاً بالتسجيل هي تلك المتعلقة

(١) د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٧٩، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢،

❖ نوايت المنهج وعناصره

بالنظرية على وجه التحديد . " غير أنه مادامت النظريات التي تشكل معرفتنا العلمية قابلة للخطأ أو ناقصة دائماً، فإن الكيفية التي توجهنا بها إلى معرفة الملاحظات الملائمة للظاهرة المدروسة قد تكون مصدر أخطاء ، غير أنه يمكن حل هذا المشكل بتحسين نظريتنا وتوسيعها لا بتراكم قائمة من الملاحظات التي لا هدف لها ^(١) .

وبدون موضوع لا يمكن أن تكون الملاحظة هادفة وجادة؛ لأن الموضوع هو الإطار العام الذي تتبلور فيه الأفكار، وتستتبط منه الفروض مما يجعل الملاحظة أو المشاهدة مترسخة في الموضوع ومنطلقة منه ومثيرة له .

ولكي تكون الملاحظة صحيحة النتائج يجب أن تكون شديدة التنوع، كثيرة التعقيد، باللغة الدقة ما أمكن، فنحاة العرب الأوائل لم يقرروا أن العربية ترفع الفاعل وتنصب المفعول لمجرد سماعهم جملة واحدة من عربي واحد، بل إنهم استقرعوا معظم الكلام العربي، فلما رأوا اطراد هذه الظاهرة وضعوا قاعدتهم .

ويتسع مجال الاستقراء اتساعاً بالغاً عندما ننقل من مستوى فقه اللغة الوصفي للسان من الألسن إلى مستوى فقه اللغة العام لاستنباط القوانين العامة للغة، فعند ذلك لا تكفي ملاحظة لسان واحد - وهو الخطأ الذي وقع فيه علماء العرب والإغريق من قبل - بل لابد من ملاحظة كل الألسن في العالم، ما كان منها حياً لا يزال في أفواه البشر، وما اندثر منها فلم نعرفه إلا في النصوص والآثار .

ومن أبرز ما يؤخذ على منهج الملاحظة أن آلهة الوحيدة التي يستعين بها هي الأذن ، وهذا العضو لا يملك من الدقة ما تملكه أجهزة القياس الحديثة. هذا إلى أنه من السهل خداع الأذن في كثير من الأحيان ، كما أنها شديدة التأثر بالحالة النفسية للملاحظ، ويكثر أن تخدعه فتسمعه ما يريد أن يسمع، لا ما هو حادث في واقع الأمر.

(١) آلان شالمرز : نظريات العلم ، ترجمة الحسين سحبان ، وفؤاد الصفا، دار توبقال، الدار البيضاء

١٩٩١م ، ص ٣٤ - ٤٤ .

الفصل الثالث

وطريقة الملاحظة المباشرة هي التي لا يلتجأ فيها إلى التجارب ولا تستعمل فيها الأجهزة، بل يقتصر فيها على ملاحظة الظواهر اللغوية في حالاتها العادية، ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية .

وفي هذه الطريقة يشترك علم اللغة مع عدد كبير من العلوم الأخرى وبخاصة العلوم الطبيعية، وتعد أقدم طريقة استعملها الباحثون في علم اللغة، ولا تزال إلى الآن من أهم طرقهم، وإليها يرجع الفضل في معظم ما وصلوا إليه . فعلى ضوء الملاحظة استطاعوا أن يقسموا الظواهر اللغوية إلى أقسام متميزة، ويرجعوها إلى طوائف محددة، ويردوا الفروع إلى أصولها، فنظمت بذلك موضوعات العلم، ونسقت فروعها، وسهلت دراسته .

وتنقسم الملاحظة أقساماً كثيرة باعتبارات مختلفة :

فتنقسم باعتبار نوع الظواهر اللغوية التي يعالجها إلى قسمين :

[أ] ملاحظة صوتية [*Phonatic*] : وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت.

[ب] ملاحظة دلالية [*Semantic*] : وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة .

وتنقسم الملاحظة باعتبار نوع اللغات التي يتناولها البحث إلى قسمين :

[أ] ملاحظة اللغات الحية .

[ب] ملاحظة اللغات الميتة : وتتحقق بالرجوع إلى ما وصل إلينا عنها في المؤلفات والوثائق والآثار .. وما إلى ذلك .

وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحظ أو بغيره إلى قسمين :

[أ] الملاحظة الذاتية [*Subjective*] : وهي أن يلاحظ الباحث ما يصدر عنه هو من

ظواهر لغوية، ويدون ملاحظاته، ويحللها ليصل على ضوئها إلى تحقيق ما يرمي إليه .

◆ نواتج المنهج وعناصره

[ب] الملاحظة الخارجية [Objective] : وهي ملاحظة الباحث لما يصدر عن شخص آخر من ظواهر لغوية دون أن يكون لهذا الشخص الآخر أي دخل في الملاحظة .

وتنقسم الملاحظة الخارجية نفسها إلى قسمين أيضاً ، هما :

[أ] ملاحظة خارجية سلبية [Passive] : وهي التي يترك فيها الملاحظ على حالته الطبيعية، بأن يقتصر الباحث على الاستماع إليه وهو يتحدث حديثاً عادياً.

[ب] ملاحظة خارجية إيجابية [Positive] : وهي ما يعمل فيها الباحث على توجيه الشخص الذي تجري عليه الملاحظة وجهة معينة بأن يلقي عليه أسئلة خاصة في الموضوعات التي يهيمه بحثها، ليصل على ضوء إجاباته إلى الوقوف على ما يعنيه الوقوف عليه .

هذا ، وقد أخذ علماء اللغة على طريقة الملاحظة بمختلف أنواعها مأخذ كثيرة، وتبين لهم نقصها في كثير من الشؤون .

فمثلاً هناك ظواهر لغوية كثيرة لا يمكن فيها مطلقاً الملاحظة الذاتية، ومن ذلك : الظواهر اللغوية في أدور الطفولة الأولى، وذلك لأن الطفل لا يشعر بما يصدر عنه وما يقوم به من ظواهر لغوية شعوراً دقيقاً، ولا يستطيع أن يصفه وصفاً يعتد به .

الفرضية :

إن رحلة تكوين الفروض مرحلة أساسية بعد مرحلة الملاحظة والتجربة، وأول مرحلة من مراحل البحث الاستقرائي هي مرحلة ملاحظة الوقائع والظواهر والحوادث أو إجراء التجارب على ما من شأنه الوصول إلى الوقائع والظواهر والحوادث موضوع البحث، ولكن لا قيمة لتكديس تلك الملاحظات والتجارب أو مجرد وضع قائمة بها؛ لأننا حين نقوم بتلك الملاحظات والتجارب نقوم بها بقصد الوصول إلى

الفصل الثالث

قانون عام يفسر مجموعة معينة من الظواهر أو الوقائع . تسجيل واقعة ما ليس كل ما نسعى إليه، ولكننا نسعى أيضاً إلى تفسيرها، والقانون العام هو ذلك التفسير .

ومرحلة الوصول إلى القانون العلمي هي المرحلة الثالثة من مراحل البحث الاستقرائي تسبق تلك المرحلة مرحلة التفسير : تفسير الملاحظات والتجارب وهي ما نسميها مرحلة فرض الفروض .

إذا انتهى الباحث من دور الملاحظة ، سواء أكانت ملاحظة بحثية أو مصاحبة للتجربة، وتوفرت لديه الأمثلة الكافية في الموضوع الخاص الذي يبحث فيه، دخل في دور آخر من أدوار الاستدلال الاستقرائي وهو دور وضع الفروض العلمية؛ لأن العقل بعد ملاحظته الأشياء يحاول بطبعه وضع تفسير لها، ويواجه نفسه بالسؤال عن عللها، ولما كانت العلاقات العلية بين الأشياء لا تدرك بالحوس كما تدرك الأشياء نفسها، كان الإنسان مضطراً إلى افتراض تفسير يعلل به ما يلاحظه، فإن نجح في تفسيره أخذ به واطمأن إليه، وإن لم ينجح افتراض تفسيراً آخر، وثالثاً ورابعاً، حتى يصل إلى تفسير صحيح تبرره الوقائع والحوادث المشاهدة. وهذا التفسير الذي يفترضه الباحث ويريد به تعليل الحقائق المشاهدة هو ما نسميه بـ " الفرض " .

ومن هنا يمكننا أن نعرّف الفرض بأنه رأي نضعه على سبيل الحذر أو التخمين لتفسير علل الأشياء أو معلولاتها .

وغاية البحث العلمي الوصول إلى تفسير حقيقي للعالم وما يحدث فيه من الحوادث، ولكن ذلك لا يتحقق دائماً على الوجه الأكمل. فقد نضع فروضاً غير كافية لتفسير جميع الحقائق المراد تفسيرها، وقد تتناقض فروضنا مع بعض النظريات العلمية المسلم بصحتها . وقد نأخذ بفرض من الفروض، ثم يتبين خطؤه على ضوء كشف علمي جديد . وقد تكون فروضنا خطأ في الواقع ، ولكن لا يظهر خطؤها لنا لعدم وجود أدلة كافية تثبت فسادها، فنأخذ بها ظانين أنها الحقيقة وليست من الحقيقة في شيء .

◆ نوايت المنهج وعناصره

للفرضية مفهومان عند المتخصصين في مناهج البحث ، فالمفهوم الأول عندهم أن تفترض وجود ظاهرة معينة ، ثم تحاول من خلال هذا البحث تحصيل هذا الفرض ، والمفهوم الثاني محاولة إيجاد تفسير لظاهرة ما أي أنك تفترض حلاً معيناً أو مجموعة من الحلول ، وفرض كبير بين المفهومين اللذين يجمعهما مصطلح واحد هو الفرض .

ويبدو أن كلمة " فرض " تعني تخيل شيء يعبر عن علة لمجموعة معينة من الظواهر أو الحوادث موضوع الاختبار ، وأن تلك العلة عامل أساسي في إنتاج تلك المجموعة . حين نضع فرضاً إنما نضع علة تكون الظواهر أو الأشياء الملاحظة أو موضوع التجربة معلولات لها وآثاراً . ويمكن أن نسمي تلك المرحلة - مرحلة وضع الفروض - محاولة لتفسير الظواهر . ومعنى " التفسير " أن تتفق واقعة مع أخرى أو مع قانون .

يمكن تعريف الفرض إذن بأنه تكهن أو محاولة للتفسير ، وظيفته أن يربط بين عدد من الملاحظات والتجارب ويكشف عن بعض العلاقات الثابتة بين تلك الملاحظات التي يتضمنها سلوك طائفة من الظواهر أو الحوادث . وحين نضع تفسيراً قد يكون ذلك التفسير صادقاً أو كاذباً ، فإن كذب فإن علينا أن نحاول تفسيراً آخر يتفق مع الوقائع ، وإن صدق وأيدته الوقائع قيد البحث في الحاضر والمستقبل القريب أصبح ذلك الفرض قانوناً .

يعد الفرض تخميناً مبدئياً يستدل به الباحث على إيجاد علاقة بين متغيرين أو أكثر ، ولا يعد الفرض حكماً على الإطلاق إلا بعد إثباته ، ولذلك فالأشياء المثبتة لا داعي لصياغتها في شكل فروض ؛ لأن الأشياء المثبتة تعبر عن حقائق ، والحقيقة لا شك فيها .

لا يكون الفرض العلمي فرضاً بالمعنى الصحيح إلا إذا كان تفسيراً مؤقتاً للشيء المبحوث فيه ، وهذا هو الفرق بين الفرض والنظرية ، ولكن لا يسمى الفرض فرضاً أيضاً ، إلا إذا كان تفسيراً تؤيده الوقائع المشاهدة ، والنظريات العلمية المتصلة به

الفصل الثالث

المسلم بصحتها . فالفرض بهذا المعنى هو الخطوة الطبيعية التي يخطوها العالم نحو النظرية العلمية أو القانون العلمي، بل النظرية العلمية ليست شيئاً آخر سوى فرض ثبتت صحته .

أما كلمة " نظرية " فتستعمل في معانٍ كثيرة، تستعمل أحياناً كمرادف للفرض العلمي، كما يقال " نظرية التطور " أو " النظرية الذرية " أو " نظرية الجاذبية " ، وكلها في الحقيقة فروض لا نظريات . وتستعمل بمعنى القانون العلمي، أو بمعنى أي قضية علمية كلية، وأحياناً تستعمل بمعنى العلم نفسه، فيقال نظريات العلم الفلاني أي مادته .

وتستعمل كلمة " النظري " في مقابل العملي، فيقال هذا نظري وذلك عملي ، ولكن الذي يعنينا هنا هو المعنى الثاني، أي النظرية بمعنى القانون العلمي العام، الذي هو نتيجة مباشرة للفروض العلمية .

غير أنه ليس كل فرض يتحول إلى نظرية علمية بهذه الطريقة؛ لأنه ليس كل فرض يمكن إثبات صحته أو فساده بطريقة علمية حاسمة . فكثير من الفروض يظل على حالته الفرضية، ولا يرقى أبداً إلى مستوى النظرية أو القانون .

ومن أمثلة الفروض التي تحولت إلى نظريات، جميع القوانين العلمية التي ندرسها في كتب العلوم كقانون أرشميدس في الأجسام الطافية، وقانون بويل في الغازات، وقانون الأجسام الساقطة، وقانون العرض والطلب في علم الاقتصاد وغيرها . ومن أمثلة النوع الآخر، افتراض وجود التطور في الكائنات الحية، والقول بأن جوف الأرض ملتهب، والقول بوجود الجاذبية بين الأجسام ونحو ذلك، فإن هذه كلها مجرد فروض أي آراء ظنية لا يمكن البرهنة على صحتها بطرق قطعي، ولكنها تعززها الحقائق المشاهدة والنتائج الصحيحة المترتبة عليها، ولهذا أخذ بها العلماء أخذهم بالنظريات العلمية المقررة الثابتة لعدم وجود ما يناقضها .

◆ نوايت المنهج وعناصره

وتأتى الفروض العلمية ليستعين بها العلماء، كل في موضوع بحثه، لتفسير الظواهر التي يدرسها، ويجب عليه أن يقوم فيما بعد بالتحقق منها .

والفرق في هذا المجال بين العالم والفيلسوف : أن الفيلسوف يعرض فكرته كما لو كانت حقيقة مطلقة، ثم يستنبط منها كل نتائجها بالطريقة المنطقية [القياسية] وحدها . أما العالم المجرب فهو يحدد فكرته في صورة سؤال أو تفسير مبدئي للظواهر ، ثم يستنبط منها النتائج التي يفحصها ويتثبت منها دائماً عن طريق التجربة . ومما يلاحظ أن الفروض العلمية قصيرة العمر نسبياً، وذلك لأن معيار الصدق فيها هو الواقع، وليست اعتقادات الناس التي قد تجمع - أحياناً - على الخطأ .

ومن شروط الفرض العلمي :

- ١- أن يعتمد على معطيات الملاحظة والتجربة .
- ٢- أن يكون خالياً من التناقض مع نفسه .
- ٣- ألا يتعارض مع الحقائق الثابتة التي يقررها العلم .
- ٤- أن يحدد في صورة قضية واضحة، يمكن التحقق من صدقها بالتجربة .
- ٥- على الباحث أن يقتصد في وضع الفروض، التي يحاول بها تفسير مسألة غامضة .

إننا لا نستطيع أن نبدأ في دراساتنا اللغوية، وذلك بحكم طبيعة اللغة وعلاقتها بها من نقطة الصفر . فكل منا فرضياته المسبقة عن اللغة، ولا بد لنا أن نبدأ ببعض الفرضيات، كافتراضنا جميعاً مثلاً أن الجملة تتألف من مبتدأ وخبر [أو فعل وفاعل] فنحن نعرف مسبقاً ما نريد أن نبخته ، ولكن المهم هنا هو أن نحدد الإطار الدقيق الذي سنعمل من خلاله، وأن نلتزم بذلك الإطار التزاماً تاماً، وذلك لكي نصل إلى تحديد أدق لتلك المفاهيم المفترضة مقدماً، ونستبدل الغموض بالوضوح والدقة التامين .

الفصل الثالث

كما أن من المهم أن نحاول فحص أو اختبار كل فرضية بجميع الطرق العلمية الممكنة، كما أن السيطرة على تلك المتغيرات أشق بكثير، ولكننا حتى نستطيع المقارنة بين ظاهرتين علينا أن نحاول السيطرة على جميع المتغيرات الأخرى، لنلاحظ الترابط أو العلاقة بين هاتين الظاهرتين ، وكيف تتغير إحداها بالنسبة للأخرى .

إن البحث اللغوي يعتمد في معظمه على المقارنة أو المقابلة، وعلينا أن نسأل الأسئلة الصحيحة، وألا نترك مجالاً واحداً للمقارنة لا نعدها فيه . ومثال ذلك : أن عند كل منا انطباعاً مسبقاً عن علاقة تقوم بين الفعل والزمن . وعرف بعض النحويين العرب الفعل بأنه ما دل على حدث وزمن . وأشبه هذا التعريف موجودة ومتداولة في قواعد كثير من اللغات .

وفي مثل هذه الحالة يمكن أن نرضى بهذه الفرضية التقليدية المتعارف عليها، بحيث أصبحت تبدو وكأنها حقيقة مسلم بها . ولكن يجب ألا نفعل ذلك ، بل علينا أن نحاول تأكيد تلك الفرضية أو تعديلها أو رفضها كلية وذلك بوضعها تحت المجهر، أي بصياغة الأسئلة المناسبة التي يمكن أن تظهر حقيقتها .

فيمكن أن نسأل الأسئلة التالية على سبيل المثال : هل هنالك علاقة مباشرة بين صيغة الفعل والزمن بأن تدل صيغة الماضي على الزمن الماضي، وصيغة المضارع على الزمن الحاضر [أو المستقبل] ؟ وهل هذه الدلالة الصرفية ثابتة في السياقات النحوية المختلفة، أي في الجمل المختلفة؟ وهل هنالك طرق لغوية أخرى غير الفعل للدلالة على الزمن ؟

إن الإجابة على أسئلة عن هذا النوع تبين لنا بوضوح تام أن فرضيتنا السابقة لا يمكن قبولها على إطلاقها . بل علينا أن نعدلها بحيث تتماشى مع الواقع اللغوي، بدلاً من أن نتشبهت بها ونحاول تبرير التغيرات التي تطرأ على العلاقة بين صيغة الفعل والزمن، كما فعل بعض النحاة العرب مثلاً عندما حاولوا تبرير إشارة الفعل المضارع المنفي بالحرف " لم " مثل " لم يذهب " إلى الزمن الماضي، بأن الحرف " لم " حرف

نوايت المنهج وعناصره

قلب، أي أنه يقلب الحاضر إلى الماضي . بينما كان الأخرى بهم أن يرصوا السياقات المختلفة التي تقع فيها كل صيغة من صيغ الفعل، ثم يشيرون إلا دلالاتها الزمنية في تلك السياقات، بأن يقولوا مثلاً إن صيغة المضارع بعد حرف النفي " لم " تشير إلى الماضي وهكذا . أي أن تعريف أو تحديد الدلالة أو العلاقة اللغوية التي تشير إليها صيغة من الصيغ يجب أن تكون نتيجة للدراسات لا سابقة لها .

وفي واقع الأمر فإن الدراسة الوصفية لعلاقة صيغة الفعل بالزمن في اللغة العربية [وفي كثير من لغات العالم الأخرى ، بل ربما فيها جميعاً] تشير بوضوح إلى عدم وجود ثبات في تلك العلاقة، بل إن السياقات اللغوية هي التي تتحكم فيها، بالإضافة إلى " الظروف " والكلمات الأخرى المستعملة في الجملة، فإذا نظرنا إلى الجمل التالية مثلاً :

- بعثك الدار بألف دينار .

- غفر الله لك .

- إذا زرتني أزورك .

- وحيلتك لا نكثت عهدك ما دمت حياً .

تجد أن الفعل الماضي في الجملة الأولى يدل على الزمن الحاضر، أما الأفعال الماضية في الجمل الأخرى فتدل جميعها على الزمن المستقبل . كما أن صيغة المضارع تدل على الزمن الحاضر في مواضع معينة، وعلى الزمن المستقبل في مواضع معينة أخرى، بل إنها تدل على الزمن الماضي في مواضع أخرى كالجمل التالية :

- زرتك ولم تكن في البيت .

- قطفت الثمرة ولما تنضج .

- لو ينتبهون إلى الشرح لاستفادوا ^(١) .

(١) رشيد الشرتوني: مبادئ العربية ج ٤ ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، ط ١٠ ، ص ١٠ - ١١ .

الفصل الثالث

علاوة على ذلك، فإن دراسة تحليلية من هذا النوع تظهر لنا أن هنالك معاني أخرى يدل عليها الفعل بالإضافة إلى الحدث والزمن، فهي تبين لنا إشارة فعلية إلى علاقات زمنية مختلفة كالعلاقات التالية :

صيغة " كان " فعل تشير إلى الحدث البعيد التام أو المنقطع .

صيغة " كان قد فعل " تشير إلى الحدث القريب التام أو المنقطع .

صيغة " مازال يفعل " تشير إلى اتصال زمن الحدث الماضي بالحاضر^(١).

وهنا نصل إلى نتيجة كبرى أو ما يشبه القانون العام وهو أن هناك زمناً صرفياً . وآخر نحوياً يعتمد على التركيب ومكوناته . وموقع الصيغة التي تحمل الزمن في وضوح هذا التركيب وعلاقات أخرى غيرها . وهذه الأمثلة جميعها تدل على ضرورة فحص أي من المسلمات أو الفرضيات التي يحملها الباحث عن لغته مهما بدت مقنعة بناء على دراسات قديمة .

التحليل :

تنقسم السمات والعناصر إلى قسمين بعضها يتعلق بإمكانات الباحث ومؤهلاته واستعداداته، وهي كل ما سبق، وبعضها الآخر هو إجراءات يمارسها عند البحث. فالتحليل أولى الخطوات التي يجب أن يقوم بها الباحث وهي تعد من القسم الثاني، أي الإجراءات التي يقوم بها . أما ما سبق من عناصر فهو يرتبط بطريقة تفكيره وإعداداته هو ، وليس إعداد البحث، أما التحليل فهو خطوة أولى في إعداد البحث، وقدرة الباحث عليه ومدى دقته فيه يعتمد على إمكانات الباحث التي تتجلى في العناصر والسمات السابقة ، فهي التي تؤهله للقدرة على التحليل السليم .

(١) د/ تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص ٢٤٥ .

❖ نوايت المنهج وعناصره

ويعد التحليل Analysis من الأسس المنهجية في الدراسات اللغوية، فهناك ما يسمى بـ "مستويات التحليل اللغوي" التي يتناول خلالها الباحث اللغة في عناصرها الصوتية والتركيبية والدلالية، وتعرف تلك الدراسات ما يسمى بأصغر عنصر صوتي، وأصغر عنصر صرفي ... وهكذا .

وهناك محور آخر للتحليل وهو تحليل النصوص في جميع مستويات اللغة من شعر جاهلي وقرآن وحديث شريف وشعر ونثر وفنون أخرى كالراوية والقصة والمسرحية والمقالة وتصنيفها إلى وحدات أصغر فأكبر بدءاً من الصوت وانتهاء بالتركيب أو الأسلوب أو النص محاولة للوصول إلى القواعد التي تنظم ارتباط هذه الوحدات بعضها مع بعضها الآخر وتآلفها إما لمعرفة خصائص اللغة أو هدفاً إلى اختبار قواعد النحاة القدامى أو استنتاج خصائص النص المدروس أو تجنب اللحن من ناحية، أو الحيدة عن قواعد النحاة وفضولهم من ناحية أخرى .

ويجب أن نخطو في البحث خطوات منظّمة، تكون كل خطوة بالنسبة إلى التي تليها بمثابة المقدمة من النتيجة، مبتدئين بالبسيط صاعدين منه إلى المركب . ويعني التحليل تقسيم المشكلة التي يراد حلها إلى أبسط عدد ممكن من الأجزاء البسيطة، وذلك لإمكان حلها على خير وجه .

ينحصر المنهج بأجمعه في أن نرتب وننظم الأشياء التي ينبغي توجّه العقل إليها لاستكشاف بعض الحقائق. ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة، إذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة إلى قضايا أبسط، وإذا بدأنا من الإدراك البديهي لأبسط الأشياء فإننا نجتهد أن نرقى بالدرجات نفسها إلى معرفة سائر الأشياء .

الفصل الثالث

الاستقراء :

هناك نوعان من الاستقراء استقراء خارجي للموضوعات التي تعني بها البحوث أو الظواهر العامة في اللغة، وهذا النوع من الاستقراء يمكن أن يجري قبل الشروع في التحليل، والنوع الآخر استقراء داخلي، ويعني باستقراء الظواهر اللغوية أو النحوية داخل الموضوع المختار، أو داخل النص الذي يجري تحليله، وهذا النوع لابد أن يكون بعد خطوة التحليل بحيث يتسنى للباحث إجراء عملية التصنيف داخل البحث.

ولذلك فهناك استقراء لعموم الظواهر بهدف الوقوع على موضوع جدير بالبحث قبل التحليل واستقراء آخر وهو الذي نعني به الآن، ويتم بعد اختيار الموضوع والاستقراء على الظاهرة المدروسة .

ينقسم الاستقراء إلى تام وناقص؛ فالتام هو ما يتصفح فيه جميع أفراد الظاهرة. والناقص ما يتصفح فيه بعض أفراد الظاهرة، وذلك إما لاستحالة تصفح جميع الأفراد أو لأي مانع آخر .

فالاستقراء التام هو الحكم على الكلي بما حكم به على جميع أفراد، والاستقراء الناقص هو الحكم على الكلي بما حكم به على بعض أفراد . تسمى قاعدة الاستقراء التام أو الإحصاء أو التحقيق ، بأن يعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً " والغرض من هذه القاعدة هو مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التي تكون سلسلة من الاستدلالات، فإذا تأكدنا من اتصالها جاز لنا أن نحكم حكماً صحيحاً ، ويصبح هذا الحكم بالغاً من اليقين ما لم تبلغه البداهة . ويجب أن تكون عملية الاستقراء التام متصلة غير منقطعة، إذ لو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التي تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة، ولما تبقى شيء من اليقين، ثم يجب أن يكون الاستقراء

نوايت المنهج وعناصره

التام وافياً، حتى نستطيع أن نبليغ به اليقين؛ إذ أننا في هذه القاعدة عرضة لتضليل الذاكرة، وإذن يجب مع إحاطتنا بكل سلسلة القضايا أن ننتبه إلى تميز كل واحدة على الأخرى، حتى لا يتطرق الغموض والإبهام إلى معرفتنا .

ويلاحظ على ما سبق أن قواعد المنهج الثلاثة الأخيرة كلها متصلة بعضها ببعض، ففي عملية الاستقراء التام نجد التحليل والتركيب كما أن الاستقراء التام يحقق التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف .

إذا كان الاستقراء العلمي الصحيح هو الاستقراء الناقص الذي نبتدئ فيه بفحص الجزئيات ، وننتهي إلى القوانين العامة، فعلى أي أساس أو أسس نعتمد في الحكم على الكلي .

وللاستقراء التقليدي مراحل ثلاثة :

[١] الملاحظة والتجربة . [٢] وضع الفروض . [٣] تحقيق الفروض .

ما نقوله عن المرحلة الأولى يكاد يصور موقف كل من تحمس للاستقراء التقليدي، فهي الأساس العام للثورة على المنطق القديم . ومشكلة الاستقراء عبارة مألوفة تجدها في الكتب التي تتناول المنهج الاستقرائي وتقويمه، وتدور هذه المشكلة حول أحد أسس الاستقراء المسمى بمبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة أي افتراض أن المستقبل سوف يشبه الحاضر والماضي إذا اتفقت الظروف المحيطة نفسها بظاهرة ما في المستقبل مع تلك الظروف المحيطة بحدوثها في الحاضر والماضي. تدور المشكلة بمعنى آخر حول تحليل هذا الافتراض، ما إذا كان يمكننا الاعتماد عليه أو ينبغي رفضه .

لكي يصل العلماء المعاصرون في أبحاثهم نريد أن نعرف أي معنى للاستقراء يستعملون ؟ ثم هل المنهج العلمي المعاصر يستعمل الاستقراء فقط ، أم أنه يضيف إليه نوعاً آخر من الاستدلال ؟

الفصل الثالث

ويحتاج القياس إلى مقدمات كلية، وطريق الوصول إلى هذه المقدمات هو الاستقراء، فإنه قبل أن ندخل الحالات الجزئية تحت القوانين الكلية، لابد أن نعلم تلك القوانين . وطريق العلم بها هو الاستقراء ، فالقياس إذن يعتمد على الاستقراء، والاستقراء من هذه الناحية متقدم على القياس .

ولكن الاستقراء من ناحية أخرى يعتمد على القياس؛ لأنه لا يكفي أن نتصفح بعض الجزئيات لنصل منها إلى حكم عام، بل لابد من التحقق من صدق هذا الحكم العام. وطريق التحقق من صدق الحكم العام أن نطبقه على حالات جزئية جديدة لم نكن تصفحناها من قبل، وهذا هو القياس بعينه . ففي الاستقراء إذن مرحلة لا غنى عنها، وهي مرحلة تحقيق الفروض العلمية. وفي هذه المرحلة يستعمل الاستدلال القياسي .

إننا آمننا بأن المنهج الصالح في دراسة عناصر البحث اللغوي هو المنهج الاستقرائي الوصفي الذي يعترف بأن اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية بها تستقصى الملامح المميزة لكل مجتمع : فلا نحاول أن نفرض معايير اللغويين العرب المتقدمين ولا آراء الباحثين المعاصرين كما تفرض أحكام القانون، بل نقدم أو نرغب في القيام بوظيفة اللغوي في وصف الحقائق، ونقد الوثائق، وتمحيص النصوص، والموازنة بين الآراء قديمها وحديثها، ومعتلها ومغاليها، لنستخلص بعد ذلك بتأن وروية، ثم نلم شتات هذه الأحكام .

فإذا جئنا إلى الاستقراء ، وهو أساس المنهج الحديث، وجدناه يعني ملاحظة عدة حالات [عينة] وإجراء التجارب عليها للوصول إلى قانون عام ينطبق عليها، وعلى غيرها مما يشبهها، وهنا يتدخل الفرض العلمي الذي يقوم على الخيال والإبداع الشخصي للباحث، وعناه أن المنهج الحديث يتطلب إمكانيات وقدرات أكثر مما يتطلب المنطق القديم .

◆ نوايت المنهج وعناصره ◆

فبينما يبدو هذا الأخير ساكناً استاتيكيّاً ، نرى المنهج الجديد متحركاً ديناميكيّاً؛ لأنه ينزِع دائماً إلى البحث عما هو مجهول: اكتشاف علاقة جديدة بين الظواهر أو تفسير الغامض منها .

من خصائص العلم أنه ينزِع إلى الاقتصاد في المجهود والتفكير . وهذا ما نجده متمثلاً في المنهج الحديث الذي يعتمد على الاستقراء أي دراسة مجموعة قليلة من الظواهر، لاستخراج حكم عام [قانون] ينطبق عليها وعلى غيرها. ومعنى هذا أنه كلما زادت معرفة الإنسان بالطبيعة، انحصر ما لديه من قوانينها في مجموعة قليلة تتيح له اختصاراً شديداً في وقته ومجهوده .

ومما يلاحظ أن المنهج الحديث قد أخذ يستعين في آخر مراحلِه برموز الرياضيّة حتى يزيد من اختصار القوانين نفسها . ويعتمد الاستقراء على الاعتقاد في مبدأ الحتمية، الذي يقرر " أن للطبيعة نظاماً مطرداً لا يكاد يتخلف . وهذا يعني أن ما يحدث الآن قد حدث مثله بالأمس، وسوف يحدث مثله في المستقبل .

ومن هنا أمكن للإنسان أن يتنبأ بحدوث ظواهر الطبيعة [العاصفة في البحر عقب صفير الريح ، سقوط المطر عقب تلبد السماء بالغيوم] ، ومن المعروف أن التنبؤ يعتمد على تفسير الطبيعة تفسيراً علمياً يصاغ في صورة قوانين . أما التفسير بالصدفة فليس إلا دليلاً على عجز الإنسان وجهله، وهي ترتبط غالباً بالخرافات . ولاشك في أن الخرافات تزول كلما انتشر العلم، واتضحت أدلته وبراهينه .

وليس من شك في أن الإنسان أحد عناصر الطبيعة أو العنصر الذي يتعامل مع عناصر الطبيعة أو العنصر الذي يتعامل مع عناصر الطبيعة في أن اللغة خصيصة من خصائص الإنسان يتميز بها عن سائر الكائنات وقواعدها أو ضوابطها وقوانينها لها قابلية لأن تخضع لما تخضع له كافة قوانين عناصر الطبيعة التي يعيشها الإنسان .

الفصل الرابع

البحث اللغوي

البحث اللغوي

الفصل الرابع

ونعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستعمل الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية :

- ملاحظة الظواهر اللغوية - التجريب والاستقراء المستمر .
- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير .
- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها.
- استعمال النماذج والعلاقات الرياضية الحديثة - التحليل الرياضي الحديث للغة - الموضوعية المطلقة .

وبما أن اللغات البشرية لها ارتباطاتها الإنسانية والطبيعية المتفرعة، كذلك فإن لعلم اللسانيات فروعاً متعددة يختص كل منها بناحية جزئية من هذا الكل الذي اسمه "اللغات". فاللسانيات النظرية تبحث بالنظريات اللغوية ونماذجها المتفرعة عنها، وكيفية معالجتها للبنية اللغوية في الماضي أو الحاضر .

واللسانيات علم موضوعه اللغة، ومن بدائه المعرفة أن يحدّد العلم موضوعه تحديداً مفهوماً . أما نقد نماذج الحدّ وضبط القواعد التعريفية بمنطلقات نظرية، فمن فلسفة العلم وهي القائمة على النّظر في أصول المعرفة النوعية التي هو منضو تحت قوامها، لذلك يتعاقب على قضايا الحدّ العلم نفسه ، ثمّ أساسيته النوعية .

وتحديد موضوع العلم غير تحديد العلم، ولئن بدا للنّظر الأول أن حدّ العلم يسبق حدّ موضوع العلم، فإنّ البناء المعرفي يقتضي أن تترتب الأمور من حيث المنطق ترتباً يخالف ما هي عليه من حيث الحاصل، وفي هذا المقام يتقدّم تعريف العلم لموضوعه على تعريفه لذاته؛ لأنّ العملية الأولى ينجزها العارف بالعلم، فهي إجراء داخلي، أمّا الثانية فيضطلع بأمرها ناقد العلم حالماً يستكشف مقولاته ونواميس استدلاله، فهذه العملية من الإجراءات الخارجية .

البحث اللغوي

ولئن تيسر للعالم أن يعرف الظاهرة التي هي موضوع علمه دون أن يردف إلى ذلك بالضرورة عملية تحديد العلم الذي ينكب على تلك الظاهرة، فإن نقد الأسس التي ترتكز عليها المعرفة النوعية الخاصة بعلمه لا يتسنى إلا بالاستناد إلى ضبط خصائص الظاهرة التي يتخذها العلم موضوعاً له، معنى ذلك أن حدّ موضوع العلم قد يستغني عن حدّ العلم، ولكن حدّ العلم ذاته لا يكون أبداً في غنى عن حدّ موضوع العلم، وتأويل هذا أن اللسانيات يتعين في حقها أن تعرف الظاهرة اللغوية أكثر مما يتوجب عليها أن تعرف نفسها، ذلك أن تحديدها للحدث اللغوي هو الذي يعطي ذوي النظر المعرفي المادة التي منها يستخلصون تعريفهم لعلم اللسانيات من موقع النقد التأليفي الكاشف لأصول المعرفة المخصصة .

وكان مصطلح " العربية " يدل على النظرة الشاملة لدرس العربية وتحليلها، ويؤكد ذلك ويعززه إضافة كلمة " علم " بعد ذلك إلى هذا المصطلح ، فأصبح " علم العربية "، والعلم يدل على هذه النظرة الشاملة القائمة على أصول ومبادئ نظرية وتحليلية .

كيف تتحول اللغة من أداة وظيفية إلى أداة تنظيمية ؟ وما الذي يتقيد به العقل في اشتقاقه نظاماً معرفياً من نظام وقائعي هو في هذا المقام نظام علامي تواصلية ؟ ثم كيف تتحدد معالم المنهج العلمي الذي يسمح بإدراك البنى التركيبية في سكونها الملحوظ بداهة وفي صيرورتها المستنبطة بالاستقراء التاريخي ؟ بل قل كيف تتحول الكتابة باللغة إلى قراءة في اللغة ؟

إن هذه القضايا المعرفية لئن تجوزنا بسطها فلا نزعم القدرة على فضتها من موقع عالم اللسان بوجهته المخصصة .

لقد تسنى للسانيات أن تلتحق بالمعارف الكونية ؛ إذ لم تعد مقترنة بإطار مكاني دون آخر ولا بمجموعة لغوية دون أخرى، ولا حتى بلسان ما دون آخر، فهي

الفصل الرابع

اليوم علم شامل لا يلتبس البتة باللغة التي يقدم بها، وفي هذه الخاصية على الأقل تدرك اللسانيات مرتبة العلوم الصحيحة بإطلاق .

أما على الصعيد الأساسي في فلسفة العلوم ونظرية المعارف ، فقد كان للسانيات فضل تأسيس جملة من القواعد النظرية والتطبيقية ، أصبحت الآن من فرضيات البحث ومسلمات الاستدلال حتى عنت مصادرات عامة، وأبرز هذه القواعد - فضلاً عن النزعة العلمية المتخّطية لحواجز النسبية والمعيارية بغية إدراك الموضوعية عبر الصرامة العقلانية - اثنتان هما قاعدة تمازج الاختصاص، وقاعدة التفرد والشمول، فأما تضافر المعارف فإنه يعدّ أساساً من أسس البحث الحديث، وقد سنّت اللسانيات شريعته لما تتبعت الظاهرة اللغوية حيثما كانت حتى ولجت حقولاً مغايرة لها، وكان من ثمار هذه الممارسة المستحدثة بروز علوم هي بالضرورة نقطة تقاطع علمين على الأقل ، فسميت معارف متمازجة الاختصاص، ومن بينها اللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية، والأسلوبية .

وأما مبدأ التفرد والشمول فإنه ثمرة من ثمار اللسانيات، وصورة ذلك أن المنهج اللساني ينصهر فيه التحليل والتأليف فيغدو تفاعلاً قاراً بين تفكيك الظاهرة إلى مركباتها والبحث عما يجمع الأجزاء من روابط مؤلفة، فهو منهج يعتمد الاستقراء والاستنتاج معاً، بحيث يتعاوض التجريد والتصنيف ، فيكون مسار البحث من الكل إلى الأجزاء، ومن الأجزاء إلى الكل حسبما تمليه الضرورة النوعية .

ولكن إذا أردنا فعلاً معرفة جوهر اللسانيات فإننا نستطيع القول : إن هوية هذا العلم تنسم بصفتين اثنتين : الأولى هي العلمية [تطبيق المقاييس العلمية على اللغات] والثانية هي الاستقلالية [هذا العلم له مبادئه وقوانينه وأنظمته الخاصة به] .

هاتان السمتان اكتملتا بظهور علماء لسانيين في القرن العشرين أمثال دي سوسور وبلومفيلد وسابير ومارتينيه وتشومسكي وغيرهم .

البحث اللغوي

وتتضافر في الألسنية النظريات والفرضيات والمناهج الحديثة لتتولى وضع كتب تتبع في تنظيرها مبادئ محدودة ، وفي حيز التطبيق إرشادات معينة . وقد ضيقَت الألسنية حقل التنظير، وتجنبَت إثارة السؤال المكرر ألا وهو : هل يخضع اللسان لتنظيم واضح ؟ ومن البديهي أن اللسان يخضع لتنظيم قائم بذاته، وأنه على الألسني أن يعمل فكره لإيجاد نظرية تصلح لتحليل اللسان الذي يدرس، ومن ثمة لإخضاعه لمنهج يتوافق وتلك النظرية مما يقودنا إلى المسلمات التالية :

١- تقدم نظريات الألسنية طريقة موحدة لكتابة الأقوال والكلام بشكل أصواتي عام، اصطلح عليه الألسنيون واعتمده علماء العالم كافة، وتحدد الكتابة الموحدة الإشارات الصوتية التي تدخل في لحمة الأصوات الإنسانية والتي لا يتجاوز عددها ٨٠ صوتاً، أثبتت في لائحة عالمية .

٢- يقترن الكلام أو الأصوات بنظريات الدلالة العامة، وكان علم الدلالة الجزء الهزيل من النظريات الألسنية ، وقد أصبح بفضل نظريات الإعلام والتواصل والمعلوماتية مزوداً بمؤشرات سليمة، منها أن المتكلمين بلغة واحدة يتبينون المعنى الواحد في الكلام الواحد أو الجملة الواحدة .

٣- تحدد النظرية الشكل الذي يجب أن تراعيه كتب اللغة، لكي تكون قادرة على تعداد أوصاف الكلام الظاهرة وعلى ربطها بمضامينها المعنوية المضمر، وتقوم كتب اللغة بكشف قواعد اللغات الطبيعية، وتستطيع بالتالي أن تبين الخلاقات التي تفصلها عن قواعد اللغات الاصطناعية [لغات المنطقة ولغات المعلوماتية ، ولغات الأدمغة الإلكترونية ، ...] .

٤- من المعلوم أن العلماء يرتّبون قضاياهم، بحيث يكون أساسها الفرض، ثم يأتي دور المنهج، وأخيراً دور الروز الذي أوكل لنفسه مراقبة أمرى التنظير والتتبع، وذلك لقبول الفرضيات أو رفضها، واختبار سلامة المنهج أو فساده، وللنظر في صلاحية كتب اللغة وهو يلفظ بعض الكتب ويطلب

الفصل الرابع

بإطراحها وبإبعادها عن الاستعمال، وينقد بعضها الآخر نقداً علمياً، ويحدد أفضلها ويشجع على نشرها وانتشارها .

والبحث اللغوي الحديث يوجب علينا منذ البداية [فيما يوجب] أن نحدد البيئة اللغوية للظاهرة المدروسة تجنباً للأحكام لهذه الظاهرة . ورائدنا في هذا السبيل هو أن وحدة الحكم على الظاهرة اللغوية المعنية يجب أن تبنى على أساس وحدة الظاهرة نفسها في الذات والصفات، أو الخواص، فإذا ما تعددت أو اختلفت هذه الخواص وجب تعدد الأحكام، طبقاً للمبدأ الذي ينص على وجوب تعدد الأنظمة في معالجة الظاهرة أو الظواهر التي تختلف خواصها . أما أن تخضع هذه الخواص المختلفة كلها لحكم واحد فهو عمل تعسفيّ ويُعرض الدراسة للتعقيد والاضطراب .

ما هذا الذي يجري على جبهة اللغة، ثورة في التنظير اللغوي تصاحبها تكنولوجيا متقدمة لا تقل ثورية في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي، وعلوم المعرفة، وتكنولوجيا الأعصاب على معالجة اللغات الإنسانية بواسطة الكمبيوتر، وذلك بهدف إكساب الآلة المهارات اللغوية من اشتقاق وتصريف وإعراب واختصار واستخلاص وفهرسة، بل تأليف للنصوص أيضاً ؟

إنّ مسألة هل اللغة موضوع بالإمكان تحليله التحليل العلمي مسألة تُثار حالياً في مجال الألسنية . وما لفت انتباه الألسنيين إلى هذه المسألة هو الاعتقاد بأنه لا يكفي أن نستعمل في مجال تحليل اللغة الأدوات والوسائل والأساليب العلمية الدقيقة المستمدة من الرياضيات أو علم المنطق الحديث لكي نُقر بوجود مجال علمي يتناول اللغة وتدعوه بالألسنية أو علم اللغة الحديث . فهذه الوسائل العلمية التي نتبينها في الكتابات الألسنية لا تكون في حد ذاتها الدليل الواضح على تشكّل علم يبحث في اللغة وقضاياها البالغة التعقيد .

فالمسألة هنا ليست في تحديد الوسائل الرياضية التي تعتمد عليها الألسنية، بل هي في إمكانية تشكّل الألسنية علماً تجريبياً يبحث في موضوع معين هو اللغة . وهذه

المبحث اللغوي

المسألة تشير أكثر من تساؤل ، وما يهمنا هنا هو السؤال الأساسي التالي : هل اللغة هي موضوع عتيد لعلم معين ؟ وذلك لأننا لا نستطيع أن نضع علماً يبحث في اللغة ما لم تكن اللغة في ذاتها خاضعة للموضوعية .

بإمكاننا إعطاء إجابة مقبولة عن هذا السؤال إن كل إنسان سوي نشأ وترعرع في بيئة معينة قد اكتسب لغة هذه البيئة . نقول إنه قد اكتسب كفاية لغوية تتيح له أن ينتج عدداً لا متناهاً من جمل لغته .

فعملية تكلم اللغة إذا ترتد إلى هذه الكفاية اللغوية التي هي المعرفة الضمنية لدى متكلم اللغة بقواعد لغته والتي تقود عملية إنتاج العدد اللامتناهي من جمل لغته . وترجع علة إمكان دراسة اللغة دراسة علمية وعدم تحقق ذلك إلا حين تدرس مستقلة عن مظاهرها أو تحقيقاتها الفردية، إلا أن الكلام يتحقق في صور لا حصر لها .

وليس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور في الواقع، فالمفردات والعبارات والجمل [في أية لغة] لا حصر لها ولا سبيل إلى دراستها، أما الطرق التي تبني بها المفردات أو العبارات أو الجمل فتقع تحت الحصر ويمكن دراستها، ولهذا كان موضوع الدراسة العلمية للغة النماذج التي يأتي الكلام مطابقاً لها .

فاللغة - لا الكلام - هي التي يمكن أن تدرس؛ لأنها طائفة من العلامات اللغوية المتفق عليها، وطائفة من القواعد التي تنظم هذه العلاقات ، فنحن حين ندرس إذاً سوف ندرس نماذج وقواعد لا منظومات .

وليس وصف اللغة بأنها ظاهرة اجتماعية في مواضع عدة بمنفصل عن اعتبار أنها كغيرها من الظواهر الاجتماعية وقائع موضوعية ذات وجود خارج عن شعور الأفراد، ويعني ذلك في وضوح أن دراستها دراسة علمية يمكن أن يتحقق تحققاً كاملاً، مثلاً يتحقق لعالم الطبيعة أن يدرس الظواهر الطبيعية دراسة علمية .

ومبدأ القول بالمشترك بين لغات البشر أن الناس جميعاً يتفقون في أنهم على اختلاف لغاتهم يمكن لهم خلال بضع سنوات من التعرّض لها في محيط الاكتساب أن

الفصل الرابع

يُمَيِّزُوا نظاماً مَجْرَداً يَصْدُرُونَ عنه في استعمال اللغة استعمالاً خلاقاً متجنداً لا ينحصر؛ إذ يستطيع كل واحد من أبناء اللغة، كل لغة، أن يتلقى في الموقف المناسب على وجه الفهم ما لا ينحصر من جمل جديدة لم يكن سمعها من قبل. كما يستطيع أن يصوغ في الموقف المناسب ما لا ينحصر من جمل جديدة لم يكن قالها أو سمعها أو وكَفَ عليها من قبل. ويستطيع أن يقرّر بتلقائية مكتسبة مواتية الجمل الجائزة في مقاييسه ومقاييس بينته اللغوية من الجمل غير الجائزة أو الجمل المتحفظ عليها^(١).

ولكن البحث عن المشترك يتخذ الآن شكلاً آخر تفصيلياً يتمثل في قرّر كل ما يمكن فرزه من لغات العالم - على اختلافها وبقطع النظر عن تصنيف العائلات اللغوية الثقليدي - وتحديد الخصائص المشتركة التي تجسّد عناصر الاتفاق وأصول التوحد. وقد وُضِعَتْ في ذلك تآليف واستتبّطت فيها بعض أصول ذلك التوحد.

الأمريكيون يجدون لهذا الاتجاه أصولاً عند ديكارت والنحويين العقلانيين الفرنسيين من مدرسة بور رُوِيال، وذلك أن هؤلاء ذهبوا إلى أن اللغة الإنسانية تقوم على أساس من بنية فكرية عامة لدى الناس جميعاً.

والأبحاث اللغوية والفلسفية في هذا التقليد - عندهم - مدينة للنحو اللاتيني المعياري، والعقائد الرياضية لعصر التنوير^(٢). وهي - عندنا - مما أدركه المبرد، وابن الخباز^(٣)، بل قرّره الفارابي^(٤) تقريراً صريحاً.

(١) N.chomsky: Topics in the theory of Generative Grammar P.10, Mouton, the Hague-Paris 1969 and in current in Linguistics, Vol 3 P.1-60.

(٢) انظر في هذا: جون سيرل: تشومسكي والثورة اللغوية، الفكر العربي، العددان ٨-٩، ص ١٣٥، وزكريا إبراهيم: مشكلة البنية ص ٧٥، مكتبة مصر بالفجالة ١٩٧٦ م.

(٣) ابن هشام: شرح شذور الذهب ص ١٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٦٠ م.

(٤) انظر عبد الرحمن الحاج صالح: اللسانيات، المجلد الأول، ١/٥٤، ٥٧، ١٩٧١ م.

البحث اللغوي

وقد وضع بانيني [Panini] الهندي نحو السنسكريتية بلغته، ومنهجه، وفي سياقه الثقافي التاريخي الخاص، ثم خلف بعده في المعاصرين من صنف نحوه في "النحو الوصفي" ^(١)، ومن التمس فيه تقنية [Technique] وصفية ^(٢)، ورأى تشومسكي أنه يمكن عذّه قطعة من النحو التحويلي ^(٣). هذا على افتراق ما بين "الوصفية" و "التحويل"، ولكنه تاريخ اللغة لا ينفك عن صورته في نفوس مؤرخيها.

ويتصل بهذا المشتبه في لغة البحث مشتبه منهجي ذو طبيعة أخرى وذلك أننا نقبل في العادة أن يفترض الباحث أن أمثلة الكلام تكون أولاً وأن القواعد التي تصفها أو تفسرها تكون ثانياً. وإذن فقد تكلم العرب كما تكلم غيرهم قبل أن يضعوا قواعد كلامهم. ومعلوم أن امرأ القيس وأقرانه قد تقدّموا على سيبويه وأقرانه من هذه الجهة في الترتيب الزمني، ومن هذه الجهة في ترتب "القواعد" على "النصوص".

ونقبل في العادة أن يفترض الباحث أن كتب النحو تكون أولاً، وأن "الأصول" التي توضع وفقاً لها تلك الكتب تكون ثانياً. وإذن فقد ألف سيبويه والمبرد وابن السراج قبل أن يستخرج ابن جني وابن الأنباري "أصول" النحو.

وهكذا يصبح التسلسل واضحاً للنظرة الأولى!، ولكن تقوم عند هذه النقطة ملاحظات تغرينا بترك التسليم بهذا التسلسل على علته وتثير تساؤلات عن أمثلة الكلام التي كانت تصدر عن العربي: هل كانت تصدر عن العربي؟ هل كانت تصدر بلا "قواعد" تلقائية؟ وتساؤلات عن قواعد سيبويه لتلك الأمثلة: هل وضعها بلا "أصول" نظرية استظهرها وصدر عنها؟

ويعرض في سياق التداخل مثل التساؤل: هل تصدر "القواعد" عن أمثلة الكلام بالضرورة التلقائية كما تصدر أمثلة الكلام عن "النظام - المثال" الكامن في

(١) د/ محمود السمران: علم اللغة ص ٣٤٧، ٣٦٣.

(٢) V.N. Misra: The Descriptive Technique in Panini, Mouton the Hague-Paris 1966.

(٣) N.Chomsky: Aspects of the theory of Syntax P.V, The M.I.T press, 1965.

الفصل الرابع

عقول أبناء اللغة، ثم يكون الفرق بين المثال اللغوي الكامن في العقل ومجموعة القواعد التي تشكّل النحو ناتجاً عن تدخل اللغة في الحالة الثانية ؟

وهل يكون أمر العلاقة بين الأصول التي يصدر عنها النحويّ والأصول التي يستخرجها أصحاب النظرية موازياً للعلاقة الأولى - علاقة القواعد التي يصدر عنها أبناء اللغة بالقواعد التي يستنبطها النحويّون - مع استعمال لغة المصطلحات ؟

إن الصورة التقريبية التي استوت ملامحها عن النظرية النحوية تستمد من تلك المظاهر الثلاثة : أمثلة الكلام وكتب النحو وكتب الأصول، وتستند إلى التداخل المتكامل بينها .

إن الصعوبات الملاحظة في تدريس لسان ما يمكن أن تكون قرينة من القرائن أو مؤشراً خاماً يشير إلى أن القواعد النحوية المعتمدة ليست لائقة ولا كافية بوصف ذلك اللسان، ولكن هذه الصعوبات ليست دليلاً علمياً في حد ذاتها على عدم كفاية ذلك النحو المعتمد. فإن أريد إثبات عدم ملاءمة تلك القواعد النحوية للخصائص الحقيقية لذلك اللسان الموصوف وجب إثبات ذلك بالرجوع إلى مقتضيات وصف الألسنة البشرية أي جملة فرضيات متناسقة أو نظرية علمية [هي التي نسميها علم اللسانيات] وهذا يقضي بتوضيح هذه الأسس والفرضيات .

ولقد حدد تشومسكي مهمة عالم النحو - وهو بصدد مناقشة آراء يسبرسن - يقول تشومسكي : " إن الاهتمام المحدد للنحو هو أن يحدد طبيعة الفكرة التجريدية التي تمثل خيطاً رابطاً بين عالمي الأصوات والأفكار مع الاحتفاظ بالحقائق اللغوية الواقعية التي تنظمها غريزة الكلام في كل مجتمع أو في كل أمة، وعليه أن يحدد طريقة اللغة الخاصة في حل مشكلة الجمع بين عالمي الصوت والفكرة، وعلى مستوى أعمق من التحليل . وعليه أن يبحث تأسيس المبادئ العامة التي تحكم هذه النظرة المجردة .

المبحث الثاني

وعليه أن يبحث تأسيس المبادئ العامة التي تحكم هذه النظرة المجردة . وعليه أن يحاول استخلاص المبادئ الكبرى التي تركز عليها قواعد كل اللغات ^(١) .

يعمد البنائيون - أصحاب المذهب البنيوي - إلى الطريقة المنطقية المألوفة في تحليل الكلمات ؛ إذ تعاد إلى مكونات تعريفاتها، وهم يسعون إلى نتيجة تمنح إدراكاً للفونيمات الأساسية في معنى كل لفظة - خاصة عند أولئك الذين يرون أن أصغر جزء في الدلالة ليس الكلمة، بل تفرعات أصغر منها - وبذا يطورون الفكرة القديمة، ويربطونها بأخرى جديدة وهي [الاستبدال] وإمكانية تغيير الدلالة وانتقالها من مجال إلى مجال آخر مع كل تبديل في تلك الفونيمات - أي أصغر الوحدات الدلالية غير القابلة للتحليل إلى أصغر منها .

ويرى " هيلمسليف " أن النظريات الفونولوجية " علم وظائف الأصوات وتطبيقاتها " يمكن أن تنقل إلى عالم " الدلالة " ^(٢) . ويضرب المثل ههنا بالناقاة = الإبل + الأنوثة ، وتغيير " الإبل " بـ " الأسدية " . الأسدية + الأنوثة = لبوة ، وتغيير " الأنوثة " فتغدو : الأسدية + الذكورة = السبع .

ولاشك أن العربية تتميز بخصائص تجعل التطبيقات فيها محفوفة بالمحاذير والمزالق، فالاشتقاق ومعاني المشتقات تبرز أثناء تحليل مضمون الكلمات، وكذلك تستوقفنا الأفعال وما لها من سمات في حياتها، ولقد رأينا فيما سبق صلة المنطق بالدراسات اللغوية العربية القديمة ، إلا أن هذا التناول المقترح يمثل محاولة مختلفة عما كان من قبل، وهو يألف مع طرائق أخرى لدراسة المعاني وتحليلها، وذلك بمتبع تطورها التاريخي - في حدود العربية عندما يطبق عليها - ومناقشتها في سياقاتها ومواقعها في الكلام .

^(١) Chomsky, Essays on form and interpretation, P. 28, North Holland 1977.

^(٢) George Mounin La Semantique, P.P.39-42, Paris. Col clef, 2 meed, 1975.

الفصل الرابع

وتعالج مشكلة الخطأ في اللغة على أنها في تاريخ الدراسة القديمة تعني تحكماً معيارياً لا ينظر إلى الاستعمال، ويحتكم إلى القواعد المدونة، والتي تقتصر على حدود زمنية سائلة . ويرغب بعض الدارسين في تحقيق جديد يبتعد بالأبحاث عن ذلك التحيز للقاعدة^(١) ، وهذا الرأي يقودنا إلى نقطتين في البحث اللغوي، الأولى منهما: مسألة التعيد والمعيار المقابلة لما يسميه بعضهم^(٢) بـ " المنهج الوصفي " ، والثانية هي اللحن ، وهي تعدّ ركناً من أركان " الدلالة " في الحياة العربية اللغوية .

و " المستوى الصوابي " لدى بعض الدارسين لا يُعدّ من خصائص منهج الدرس اللغوي، لأنه - كما يرى ذلك الباحث - لا يخص اللغة وحدها، بل ينداح ليشمل الأطر الاجتماعية الأخرى ويتكفل المجتمع بتطبيقه وفرضه على الأفراد، واتخاذ مرجعاً عند الخلاف، والاحتكام في الاستعمال، أي أنه يوجد في كل شؤون الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي [العادات والتقاليد واللغة والملابس ... إلخ]^(٣)، وإننا نعرض لهذا كيما نميز هذه الفكرة عما نوجه النظر إليه في تأصيل مشكلة الصواب والخطأ، فالأمر إنما يتعلق بالإحكام العلمي الذي يمنحه التفكير الفلسفي والدرس المنطقي عند المصنفين في العربية، فالترجمات على اختلاف أشكالها بين مختصر أو مطول، أو شرح لأصول يونانية أو سريانية داخلت المواد المدروسة التي تصب في قنوات جديدة لابد لها من انضباط وترتيب، كذلك إن الحياة العقلية الإسلامية بلغت مراتب عالية من مراجعة الأشياء جميعها، والتصرفات والأفكار على أساس مما قدمته العقيدة، فهناك دائماً الصحيح الموافق، والمتجانب عن السويّة السليمة، فهذا يمثل نحواً من التكامل في الحياة والتفكير، وإن التصنيف في العلوم لا يخرج عن الإطار العام لهما .

(١) د/ محمد فرج عيد : مستوى الصواب والخطأ، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم، القاهرة.

(٢) د/ محمد عيد: في أصول النحو العربي ص ٦٦، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

(٣) د/ تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٢٦٧، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨ م.

البث اللغوي

وحرصنا على إظهار الفرق بين الفروع العلمية يحتمه المنهج العلمي، ولكن التقيب في المادة العربية القديمة يجعل من الصعب وضع النتائج الحديثة للتقسيم على أنها فاصل دقيق في المعالجة؛ إذ كانت جهود علماء اللغة متداخلة في كثير من الأحيان، ومتبادلة التأثير فيما بينها .

إن النتيجة المستفادة تكمن في إدراكنا لجذلية العلاقة بين المعرفة والحياة من حولها ، فهي لا تثبت على حال واحدة، بل تتحرك متجددة حتى الأبحاث اللغوية والدراسات الأدبية لا بد لها من أن تجمع بين الأصالة القديمة واللبوس الجديد، وإلا آلت إلى حدود مجردة كما هي عليه الآثار العتيقة في الكتب المتأخرة في العصر الوسيط العربي . وإن ما نراه من الاشتجار بين علم الأصوات اللغوي، وعلم الصوت الفيزيائي نموذج لما نشير إليه؛ لأنه في نهاية المطاف يعود بالتحسين على طرائق التعليم والخبرة اللغوية .

وعلم الدلالة فرع جديد نسبياً - جزءاً مستقلاً لا أبحاثاً ودراسات متفرقة - ويفيد من معطيات علوم عدة وينعكس على أنظمة - التعليم والترجمة ووسائل الاتصال الرمزية والفنية من الرواية والمسرحية وشريط الخيالة والتلفاز .

ويتطلب المنهج العلمي الحديث زيادة وتفصيلاً في جوانب غير التي كانت تكتفي بها المدرسة التقليدية ، فبعض اللغويين الأوروبيين ينصّ على أن جهد الباحث الاشتقاقي الحديث لم يَعدْ يقتصر على إيجاد الأصل الذي تقود إليه الكلمة [أو كلمة مركبة] ، بل إن النظرة الحديثة تقود إلى تتبع الكلمة في كل فترة زمنية كانت فيها جزءاً من اللغة، وفي كل نسق من العلاقات كانت داخلة فيه دون التوقف عن وضع الأسئلة التي تكشف الاشتقاق [التقليدي] .

وأول مجموعة من العلاقات هي التعلق بوحدات الحقل الدلالي الذي تتصل به الكلمة، وتشير العبارة الأخيرة إلى الدراسة البنيوية المجددة . وإذا ما أردنا مناقشة [الاشتقاق] العربي في ضوء الاتجاه التاريخي - كما يراه دارس الفرنسية - فإننا لا

الفصل الرابع

نكاد نجد مواضع الالتقاء إلا إذا أردنا تحليل المادة الفصيحة في أطوارها الأولى، وفي حياتها الجاهلية القديمة، ذلك أن الصيغ والقوالب الصرفية والاشتقاقية لا تقبل التصرف بها، بل إنها تحتفظ بخصائص تشترك في دلالة المادة التي تتشكل ضمنها .

وتقليبيننا صفحات الدواوين والمعاجم والكتب يثبت أن الصيغة لها شكل لا يتغير، وأن التطور الطارئ على اختصاص هذه الصيغة - أو تلك - بوظيفة معينة طفيف وأمثله قليلة يورد بعضها المستشرق "فليش" من وجهة نظره ؛ إذ يقول "إن صيغة فعّال التي لم تكن في لغة الشعر القديمة ، وفي لغة القرآن سوى اسم فاعل للمبالغة - قد تحولت بتأثير الأرامية إلى التعبير عن أسماء الحرف : نجار، بناء ، فخّار ، وزادها القياس في هذه الوظيفة التعبيرية الجديدة خصوبة وسعة حتى لتستعمل لقباً : كلاب : مربى الكلاب ، جمال : حادي الإبل ، كل هذه الأمثلة لأسماء الحرف "فعّال" لا تلحظ فيها أي علاقة بسلسلة الاشتقاق"^(١)، ولكننا نخالف هذا الرأي ؛ لأن الوشائج غير خافية بين المبالغة والكثرة في صيغة "فعال" ، والاختصاص بحرفة - تقوم على دوام العمل في ضرب محدد من الأنشطة مما يبرز صورة التكرار والتكثر خاصة عندما نعلم إن الانتشار المشار إليه لم يتم إلا بعد التطور الذي شهده المجتمع العربي الإسلامي باتصاله بالأمم الأخرى وبنمو مظاهر الحضارة .

وثمة مثل آخر يسعى فيه "فليش" إلى إثبات إمكانية تطور بعض الصيغ فيتبعها - من ثم - تغير في مجالها فيقول "وليس مما يدعو إلى الدهشة أن نجد كلمة [يبرود] - وهي اسم بلدة سورية - وهي فعل قديم قد أصبحت اسم ذات بما طرأ عليها من طول في أحد مصواتها، والفعل من هذه الكلمة ذاتها هو يبرّد .

(١) هنري فليش: العربية الفصحى ص ٧٩ ، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ، الكاثوليكية، بيروت،

١٩٦٥م .

البحث اللغوي

وكان من الطبيعي وقد دخلت هذه الكلمة في نطاق الأسماء أن يطرأ عليها طول في أحد مصوتاتها [الثاني] ، وربما كان ذلك لغاية بيانية نظراً لبرودة شتائها^(١).

وأعتقد أن حديث " فليش " ههنا قد جانبه الصواب إلى حد كبير، فانتقال الصيغ الفعلية إلى الأسماء معروف في أمثلة ونماذج قديمة [أحمد ، تغلب ، يزيد] وهي محدودة، وتحري تعليقات القدماء في كتب الاشتقاق أو الأسماء قد يوضح السبيل في حركة الصيغة تاريخياً، إضافة إلى أن الاسم المتناول ينتمي في الغالب إلى أصول آرامية / سريانية ، على الرغم من توافق الفعل والتسمية بين العربية وتينك اللغتين الساميتين^(٢).

وتعرف المنطقة الجغرافية التي تقع فيها البلدة بالبرد الشديد معظم أيام السنة [منطقة القلمون وسط سورية بين مديني دمشق وحمص] ، مما جعل البرد والمكان الأهل مقترنين، ومن الظواهر اللغوية بين أهل المنطقة مدّ حركة الضم في الكلمات، وقد تكون هذه الظاهرة قديمة فتحملنا على تصور لتغير في الصيغة ثم تحولها من الفعلية إلى الاسمية فيقولون : يبرد ثم - بالمد - يبرود : أي كل من يقيم هناك يبرد برداً شديداً ، ومن ثم التصقت اللفظة محرفة بالمواضع " الأكثر شهرة على أنه موضع سكن " ، وتمكنت من مكانتها في الاستعمال، وهناك أمثلة أخرى مثل : يقطين ، وينبوع ، ويعقود .

ونحن نرى أن النشاط الأوربي للبحث عن أصول كلماته وكيفية صياغتها تطورياً وتاريخياً يقابله عندنا الجهد الذي يمكن بذله في تفسير العديد من الصور والأوزان والاشتقاقات، وذلك بالتنقيب في النصوص القديمة والإشارات مع المقارنة [المتأنية] باللغات السامية، وإن غياب بعض الأصول في العربية المدونة [التي وصلت

(١) قاموس سرياني/ عربي ، كوستاز [لويس] ٣٧ ط الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٣ م .

(٢) انظر قاموس سرياني/ عربي : كوستاز ص ٤٠٩ .

الفصل الرابع

إلينا [قد يقابله استعمال في العبرية القديمة مثلاً أو المدونة [التي وصلت إلينا] قد يقابله استعمال في السريانية ، وإلينا نستعمل " تَلَمَذَ " صيغة فعلية ولدينا الاسم : تلميذ ، أما الثلاثي فغير معروف إلا أنه موجود في السريانية^(١) ، وقد يكون للتحكم المعياري ههنا مكانة لا ينال منها كثيراً النقد الموجه إلى الدرس الأوربي، وذلك لاختلاف في طبائع اللغات، والنقطة التي تحول أو تحوّر يجب أن توزن بالقيم الصرفية الاشتقاقية العربية .

وأما المصطلح الآخر المتداول في علم اللغة ودراساتها فهو **derivation** الاشتقاق القياسي، وهذا الأفراد إنما هو لواحد من استعماليه، فهو يطلق أحياناً ليرادف الاشتقاق التاريخي، فيعني بهذه الصورة العامة تطور صياغة الوحدات المعجمية، والغالب عليه أن يفيد: طريقة صوغ الكلمات بإضافة اللواحق والسوابق على جزء ثابت [**radical**] وبذا يقابل ضرباً آخر من أبواب الصياغة هو التركيب **composition** ، وقد تضاف أنماط فرعية تلحق بالاشتقاق القياسي الرئيس كأخذ الفعل من الاسم **border- bord** .

وهذه الصياغة الإلصاقية قد تكون من حيث الشكل أقرب إلى الإطار الاشتقاقي العربي مع فروق جوهرية ، فالإلصاق يحفظ [الثابت] المشترك على حالته ، وقد يضيف تلك السوابق واللواحق على أي جديد ويجلبه، بينما تتميز العربية بحيوية الأبنية وحركتها بإضافة الأحرف الزائدة بين حروف الأصل مما يشعر بابتداء هذه الأشكال وفق خصائص في القالب يتفاعل مع الدلالة التي يحملها، وكذلك نلاحظ أن ثمة حدوداً لانطلاق الاشتقاق من المصادر أو الأصول وسبكها على هيئة تتوالى بعدها الصيغ.

ويقول فليش " هذه المفردات - وأخوات لها - تكون ما نطلق عليه : أسرة الكلمات؛ إذ إن لها جميعاً [ثابتاً] مشتركاً ... وهذه المجموعات من أسرات الكلمات

(١) انظر قاموس سرياني ، كوستاز ص ١٧٣ .

البحث اللغوي

إنما تكشف عن ميكانيكية لغوية، ولكن تبقى بالنسبة إلى الاستعمال العام تدريبات يصفها النحويون أو المدرسون؛ لأن الثوابت المستبعدة ليست سوى وحدات نحوية قلما يكون لها واقع في وعي الفرد المتكلم^(١).

ويلتفت "فليش" إلى الطريقة العربية الاشتقاقية فيعطيه ميزاتها في الصياغة "النظام العربي نقيض ذلك - الإلصاق - تماماً، إنه يستعمل أصلاً لا جزءاً ثابتاً، والأصل مكون من صوامت [صوامت فحسب] تتصل بمجموعها فكرة عامة أقل أو أكثر تحديداً، ويتم تحويل هذه الفكرة إلى الواقع في كلمات مستقلة بالمصوتات التي توضع في داخل الأصل: فالمصوتات إذن هي التي يعبر عنها الأصل"^(٢). وإن فليش يضيف في فقرات لاحقة ضروب الزيادات الأخرى من الحروف الصامتة سواء بالتضعيف أو الإدخال^(٣).

وإننا في دراستنا للتطور الدلالي - وعظم مادته قديم : جاهلي أو إسلامي متقدم - نفيد من نتائج هذه الآراء النظرية في الاشتقاق وأبعاده في البحث اللغوي العربي كي لا تتداخل المفاهيم - العلمية بشكل يؤدي إلى الاضطراب، فالمقارنة تجدي عندما لا تصطدم بالحقائق الأساسية وتعطلها.

فما هو - على صعيد فلسفة العلم ونظرية المعارف - المحصول المبني الذي جاءت به اللسانيات في تعريفها للغة إذا ما قورن بما استقر عليه العرف لدى رواد الفكر اللغوي القديم وقد أجملنا القول فيه.

(١) هنري فليش : العربية الفصحى ص ٥١ - ٥٢ ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٥ م.

(٢) السابق نفسه ص ٥٢ .

(٣) السابق نفسه ص ٥٦ ، هنري فليش ص ٥٦ .

الفصل الرابع

لقد خرجت اللسانيات باللغة من دائرة عدّها ظاهرة انعكاسية كالكتلة من القيم تصدر عن ذاتها لتعي نفسها بنفسها وهو مدار تعريف الكلام من زاوية علاقة اللغة بالفكر، وحيث فكّ هذا الحصار المتوارث فإنّ اللغة أصبحت تنزّل قبل كلّ شيء في إطارها الأدائي الذي هو الحوض الحيوي لها، ويمكن أن نقدر على هذا الأساس أنّ اللسانيات قد أبرزت تعريف اللغة بوظيفتها التي هي الإبلاغ، ثم لما عملت على تفسير تحقق هذه الوظيفة انكبّت على فحص المقومات التكوينية فأردفت إلى التعريف الوظيفي تعريف اللغة بنيوياً فاكتملت حلقة الدائرة منطقياً من حيث أسس الحد .

فباللغة تعرّف كلياً بالغاية التي تتحقّق بواسطتها، وبهذا الاعتبار ينتهي كلّ تصور للغة أو إدراك لها إلّا في سياق ترابط يعقد بين طرفين يتحاوران بالكلام ويتفاعلان فيه .

وإذ تُعرّف اللغة بغايتها ينتقض في حقّها أن تكون هي نفسها غاية : إنّما هي وسيلة أداء، هي مطيّة تركيبها الرسالة الدلالية الجامعة بين شخصين على أقلّ التقديرات العددية .

وهكذا كفّت اللغة عن أن تكون ماهية مجردة وأصبحت ظاهرة بشرية شأنها شأن سائر الظواهر الإنسانية غير المادية ، كما كفّ الفكر البشري عن عدّها " روحاً " يتجسّد في الكلام الذي هو الاستعمال التعبيري لها .

المعارف اللغوية وظواهر اللغة :

من أهم مبادئ العلم الحديث أن يفرق بين نوعين من الأحكام التي ينتهي إليها، أولهما : الأحكام التي تتعلق بموضوع خاص، وثانيهما : تلك التي تتعلق بموضوع عام يشمل عدداً من الموضوعات الخاصة المتشابهة .

وعبارة العلم الخاص تعني مجموعة الأحكام والحقائق التي تنطبق على أي موضوع من الموضوعات المشتركة في النوع .

ويختلف العلماء المحدثون عن سابقهم في أن هؤلاء الآخرين كانوا أكثر اهتماماً بالوصول إلى الأحكام العامة منهم بتحليل الموضوعات الخاصة والدراسات التحليلية الموضوعية من أغنى ثمرات العصر الحديث .

وهكذا ترى أن العلم الحديث يعترف بأنه عاجز عن الوصول إلى أحكام الكون العامة ، وأن وسيلته للحكم العام هي أن يعرف الحقائق التي تتعلق بالأشياء الخاصة، وستكشف له هذه الأشياء الخاصة عن قوانين ، تحكمها قوانين أشمل منها كذلك .

وقد يأتي اليوم الذي يصل فيه العالم الحديث إلى القانون الشامل، ولكنه يستطيع الادعاء بأنه قد كشف عن حقيقة الكون، أو حقيقة جزء من أجزائه أو مظهر من مظاهره بمجرد الملاحظة .

ولقد مرت الدراسات اللغوية بأدوار عديدة وانفعلت بتيارات عقلية متنوعة، منها المحافظ ومنها المجدد، ومنها ما تأثر بالأفكار الدينية ، ومنها ما تأثر كذلك بأساليب البحث العلمي الحديث، الذي تعددت فروعه منذ عصر النهضة والذي يقفز اليوم إلى آفاق واسعة في سرعة تجعل من الشاق على اللغوي متابعته والإلمام به . ومن أجل ذلك نزعنا الدراسات اللغوية إلى التخصص وانتهت إلى مقررات منهجية وموضوعية .

الفصل الرابع

إن المنهج الصالح في دراسة اللغة هو المنهج الاستقرائي الوصفي الذي يعترف بأن اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية كالعادات والتقاليد والأزياء ومرافق العيش، بل هي بين الظواهر الاجتماعية كلها دليل نشاطها، ووعاء تجاربها، وبها تستقصى الملامح المميزة لكل مجتمع^(١).

لا شيء في الحياة يؤكد خصائص المجتمع، ويبرزها على وجهها الحقيقي كاللغة المرنة المطواع التي تعبر بألفاظها الدقيقة الموحية عن حاجات البشر مهما تتشعب، حتى تصبح الرمز الذي به يعرفون، والنسب الذي إليه ينتسبون^(٢) ! .

هذا المملاك الاجتماعي الذي لا تزال اللغة الإنسانية تسلكه في أرقى المجتمعات وأبسطها يسمح لنا بتوسيع المجال أمام العرف لتحديد مقاييس اللغة ومعايير استعمالها، فلا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ والتراكيب إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع على أنها رموز للدلالة .

" ليست هذه الألفاظ العامة التي نستعملها : كالشجرة ، والإنسان ، والبشرية، والحرية، أشبه بالرموز الرياضية ؟ ليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم ؟ أو لم تكن الرموز الرياضية والاقتصادية وسيلة للرقى في الميدانين الفكري والاقتصادي؟ وكذلك اللغة ، فهي لم تقتصر على كونها معبرة عن التفكير، بل كانت كذلك أداة نمائية وارتقائه ... " ^(٣).

لقد ظل العالم غافلاً عن تلك الرموز اللغوية حتى أواخر القرن السابع عشر، فكان يحاول تأويل نشأة اللغات في بساطة حتى أوشك كثير من العلماء أن يجزموا بأن العبرية لغة الوحي ، هي لغة الإنسانية الأولى التي تشعبت منها لغات العالم المعروفة كلها .

(١) Block and trager : outline of Linguistic Analysis, P.5 .

(٢) J. Vendryes : Le Langagee Paris, 1923 .

(٣) محمد المبارك : فقه اللغة، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٧٧-١٣٧٩هـ / ١٩٥٨م - ١٩٦٠م .

البحث اللغوي

لقد بات لزاماً علينا تجديد البحث في دراسة اللغة، فليس يعيننا أن نتقصى أصل اللغة الغامض المجهول، وليس علينا أن نعلل كل صوت لغوي أو رمز دلالي أنه على وجه الحكمة كيف وقع، وبأي لغة يُنطق، بل يعيننا أن نتابع التطور اللغوي كيف حدث ؟ بعد إحصائه واستقرائه وملاحظته ومقارنته بعض مظاهره ببعض، وعلينا أن نبدأ بجمع ما يمكننا من الخصائص عن اللغات الإنسانية المختلفة لنخرج أخيراً بالسنن العامة والقوانين الثابتة في علم اللغة العام ؛ وفي ضوئها نحدد خصائص لغتنا المدروسة بطريقة وصفية استقرائية كصنيعنا في دراسة اللغة العربية .

لقد كان للعالم اللغوي [فرديناند دو سوسير] فضل التمييز بين مصطلحين للدراسة اللغوية ، هما المنهج التطوري، والمنهج التزامني، ويقصد بالأول البحث في الظواهر وفقاً للتطور الزمني المتعاقب، ولذا يقرن به مصطلح آخر هو : التاريخي ، ويقصد بالآخر دراسة مختلف الظواهر في مدة زمنية محددة، ويُطلق على هذا المنحى : الوصفي ، إلا أن ثمة محاذير تجعل استعمال ما حدده دو سوسير هو الأكثر دقة، ومن ثم غدا متعارفاً عليه في الأبحاث اللغوية في المعاهد والمراكز العلمية . وكان العلماء قبل ذلك، أي ما قبل المحاضرات التي ألقاها هذا العالم ثم طبعت في كتاب مع مطلع هذا القرن [١٩١٥م] يقبلون على الدرس التاريخي التطوري، ولا يكادون يغادرونه إلى سواء، لذا فقد عرف علم اللغة هذا التيار وكثرت المباحث فيه، ويُعد القسم التطوري من الأقسام الناضجة والمستقرة، وتنتعت أحياناً بالتقليدية إذا ما قورنت بالنزعات ذات الاتجاه البنيوي الذي لم يطوَّع بالدرجة الكافية في الدلالة، بحيث تستخرج القوانين والأحكام العلمية كما هو الشأن في علم الأصوات، وعلم وظائف الأصوات، وعلم التركيب اللغوي .

وإننا إذ نذكر جهد دو سوسير ههنا في توجيهه لعلم اللغة نحو مرحلة تنوعت فيها الجوانب ولم تَعُدْ قاصرة على تحكيم النظر التاريخي والاشتقاقي، إنما نقصد إلى إبراز قَدَمِ النظرة التاريخية والتطورية .

الفصل الرابع

إننا بحاجة إلى التعمق النظري في [التطور] ، ثم إنشاء أبنية تفصل قضايا اللغة العربية القديمة والمحدثة، ومسائل الأدب في النتاج الشعري، وفي الضروب النثرية منه، وهناك العديد من المشكلات الدائرة حول المعاجم ومناهجها، كل هذا يتطلب تركيزاً على موضوعات الدرس اللغوي الحديثة، واعتماد هذا المنهج منطلقاً لنا، ومحوراً أساسياً؛ لأن أي تقدم سيؤسس على نتائجه ، فاللغة العربية تتميز بأنها [فصحى] أي بمصطلح الأوروبيين [كلاسيكية مستمرة] مع تغير وتطور ضمن حدود لا تتجاوزها، بينما الأمر مختلف في معظم اللغات الحية، التي يمكن نظرياً أن تتغير صفحة وجهها بشكل يباين الثاني سابقه مباينة كبيرة تقرباً من أن تكون لغة أخرى [تغدأ أمد] ، وإن أكثر العناصر اللغوية قابلية للتغير في اللغات الإنسانية هي دلالات المفردات ، وذلك كما يقول " فندريس " في كتابه " اللغة " : " فالمفردات على العكس من النظام الصوتي عند الفرد، لا تستقر على حال ؛ لأنها تتبع الظروف، فكل متعلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به، فالإنسان يزيد من مفرداته، ولكنه ينقص منها أيضاً ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج" (١).

ويعدّ كلام فندريس هذا مقدمة للمفردات ودلالاتها في اللغة عامة . وإن المعارف الأجنبية الحديثة تسدي إلينا النفع عندما نسترشد بها لاستخراج أدوات العمل الجديد ومناهجه من خلال التراث نفسه، والمزاوجة دائمة لا تقف عند أي من القطبين : الأصالة، وروح العصر ومعطياته التي تتقدم دوماً .

والمصطلح [شكلي Formal] يراد به : معايير أو خصائص لغة ما يمكن أن تستعمل في التحليل اللغوي أساساً لتصنيف وحداتها وأنماطها أو نماذجها ، مثل : صيغ الكلمات أو نماذج الجمل أو ترتيب عناصرها .. إلخ .

(١) فندريس : اللغة ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ترجمة الدواخلي وقصاص .

البحث اللغوي

واللغويون قد يقابلون الخصائص الشكلية بالخصائص الدلالية، وفي هذه الحالة تكون كلمة [شكل] مقابلة لكلمة [معنى] ، وقد يقابلون الخصائص المادية للغة المنطوقة أو المكتوبة، وفي هذه الحالة تكون الكلمة [شكل] مقابلة لكلمة [مادة]^(١).

لعل أهم مناهج البحث في اللغة، المنهج المعياري التقليدي، والمنهج الوصفي الاستقرائي. وإذا كان المنهج الأول قد ساد الدراسات اللغوية القديمة، وبخاصة في اللغة العربية منذ نشأته في اليونان على أيام أرسطو حتى أواخر القرن الماضي، فإن الثاني يعد المنهج الأكثر أهمية وموضوعية ، والأكثر جذباً للانتباه والدراسة في العصر الحديث. أما تسميته بالمنهج الوصفي التقريري الاستقرائي ، فقد جاءت ردة فعل على المنهج التاريخي التعليلي المعياري القديم، الذي كان مسيطراً على الدراسات اللغوية العربية والأوربية .

نشأ المنهج الوصفي عند الغربيين^(٢) في أوائل القرن الماضي ، وأخذ ينمو ويتطور تطوراً سريعاً في السنوات الأخيرة، فكثر البحوث فيه، وتشعبت الدراسات التطبيقية بشأنه .

(١) F.P. Dinneen, An Introduction to General Linguistics P.P 67,68, Holt, Rinehar and winston, (١) New York, 1971.

(٢) انظر مثلاً: د/ علي عبد الواحد وافي : علم اللغة .

د/ كمال بشر: دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، وعلم اللغة العام، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١م .

د/ إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧١م. ودلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م.

د/ ريمون طحان: الأسمية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م .

د/ عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٧٩م .

د/ عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠م .

الفصل الرابع

وعندما اطلع الدارسون عندنا على هذا المنهج بدعوا يكتبون فيه محاولين تطبيقه على دراسة اللغة العربية . كل ذلك أدى إلى إعادة النظر في المعطيات اللغوية، وبخاصة المفاهيم الأساسية العائدة للدراسة اللغوية [مفهوم الكلمة والجمله والصرف والتركيب .. إلخ] .

وما أسلفناه من سيطرة منزعين منهجين على الحركة العلمية في القرن الماضي - وهما منزع الوعي بنواميس الصيرورة التاريخية ومنزع البحث عن القوانين المتحركة في نظام الظواهر عبر حركة التاريخ - نراه ينطبق على العلوم اللغوية إذ ذاك، بل لعل هذه العلوم هي التي استوعبت على أكمل وجه ذينك المنزعين، ففي حين نراهما متفاوتين في تأثيرهما وفقاً لانتفاء القطاع المعرفي إلى حقل العلوم الطبيعية نراهما منصهرين تماماً في ميدان البحوث اللغوية طيلة القرن التاسع عشر، وهذا ما جعل المؤرخين اليوم يسمون تلك البحوث غالباً بـ " اللسانيات التاريخية " ، فإن راموا التدقيق أطلقوا عليها مصطلح اللسانيات المقارنة .

ولئن خرج عن مقصدنا الإفاضة في مضمون علوم اللغة كما سادت في القرن الماضي - وهو ما غدا اليوم من شائع المعرفة بين المختصين - فإن إلحاحنا على طابعها المنهجي المميز هو الذي يبرز لنا أولاً مقوماتها الأساسية، ويعيننا ثانياً على أن نتبين بالمفارقة ما ارتكزت عليه اللسانيات المعاصرة في فلسفتها المنهجية .

والحقيقة أن ما أفاض فيه اللغويون من دراسات النحو المقارن كشفاً للقرابات اللغوية وتصنيفاً للألسنة البشرية بين أسر وفصائل ، وإحكاماً لشجرة الأنساب عن طريق التدرج السلائي بحثاً عن الأصل الأوحد المضيئي إنما كان امتثالاً أميناً لتصور مبدئي يخص علاقة الإنسان بالوجود والكون والطبيعة والتاريخ مما طفت فقاقيعه على سطح الوعي الفلسفي والعلمي والاجتماعي فأثمر ظواهرية هيغل ، ومادية ماركس، ووضعية كونت، واجتماعية دوركايم، وتطورية داروين .

البحث اللغوي

إن منزع البحث التاريخي في مسلكه المقارن قد استوى بيننا على يد اللغوي فرانز بوب ، ثم استقام متكاملًا على يد شلايشر ، فكيف ترابطت أسس الفكر اللغوي في أبعاده المعرفية العامة ؟

لاشك أن القرن التاسع عشر قد كان وريث مخزون فكري يمتد على قرون تعود جوهرياً إلى التراث الأرسطي ، ومن خلال التطرق لقضية موضوع العلم تحول الضابط المعرفي بين المعيار والاستعمال أن القدماء كانوا يعتنون كل تغيير يطرأ على قواعد اللغة يعد انتهاكاً لأبدية قوانينها، وهذا ما يفسر النظرة الصفوية التي طبعت هذا الفكر اللغوي في أبعاده الإنسانية عبر كل الحضارات، وكان الرأي المطرد حول وظيفة اللغة يتمثل في أنها تعمل على كشف ما في الفكر البشري من معان وتصورات، وذلك ما جعل وظيفتها التعبير عن عملية التفكير بما يفضي إلى تطابق مضمون اللغة مع الفكر ذاته، وعدّ الأقدمون الكشف عن مخزون العقل هو علة وجود اللغة .

لقد حقّق المنهج التاريخي المقارن فوائد جمة ، ومن طريف ما حصل أن جل الثمار المتأتية منه قد تحققت بالصدفة أكثر مما تحققت بالقصد، بل إن الفكر اللغوي خلال القرن التاسع عشر قد أثمر مكتسبات معرفية لم يقصد إليها من حيث لم يدرك ما كان ساعياً إليه، ويكفي أنه بعد كدّ طويل قد انتهى إلى رسم شجرة الأنساب بين أهم الألسنة البشرية في خريطة تعتمد التعاقب السلالي بمختلف انسلخاته، ويكفيه أنه على صعيد التنظير المنهجي قد أتاح الجزم بأن تغيير اللغة لا يتعلّق بإرادة الإنسان بقدر ما هو وليد اقتضاء داخلي في ذات اللغة، ولئن اطرّد الظن بأن الإنسان يغيّر اللغة فإنه أصبح من الاعتقاد الجازم أن اللغة هي بنفسها تتغير، ومعنى هذا أن تبدل الألسنة تحكمه علل طبيعية أكثر مما تستثيره الأسباب الحضارية .

والمهم بالنسبة إلينا هو التأكيد على ما زعمناه من أن البحث اللغوي قد مثل الصورة المتكاملة للمناخ الفكري الذي نشأ فيه، ذلك الذي قد أذعن في الوقت نفسه

الفصل الرابع

لمنزح الوعي بصنيع التاريخ في صيرورة الإنسان ولمنزح البحث عن النواميس المسيطرة على هذه الصيرورة، وليس للإنسان من هوية إلا بفضل بعده اللغوي وليس للتاريخ من ظواهر إلا في خضم جدل العقل الذي مادته وموضوعه من اللغة .

فمن خلال اللغة يستنتج علم اللغة قوانين موضوعه، فعلم اللغة يجب أن يهتم بوصف وتاريخ كل اللغات [سانكروني / دياكروني] فعليه أن يستنتج قوانين عامة انطلاقاً من اختلاف اللغات، فاللغات نظام من الدوال [الرموز] ترتبط بطريقة اعتباطية، ونحاول التعرض لبعض المفاهيم التي ناقشها سوسور في [محاضرات في علم اللغة العام] ، فقد قدم هذا الكتاب للغويين مجموعة من المصطلحات الجاهزة التي درس بها سوسور اللغة .

لقد حدث تطور خطير في تاريخ الدرس اللغوي حين تم اكتشاف اللغة السنسكريتية لغة الهند المقدسة، على يد سير وليام جونز Sir William Jones ، ووجد الأوروبيون في التراث الهندي الكثير من الدراسات العلمية الدقيقة المنظمة، وهي دراسات تعتمد على " المنهج الوصفي " Descriptive Method الذي لم يبن على أسس من المنطق، وإنما اهتم بالنظر في الاستعمال اللغوي وتسجيله وتحليله على نحو ما ورد في النص، دون الإغراق في الجدل، أو الخوض في التعقيدات والتعليقات الفلسفية والمنطقية .

وبدأت الدراسات اللغوية الحديثة بمقارنة اللغة السنسكريتية باللغة اليونانية واللغة اللاتينية ؛ لذلك من الطبيعي أن نقول إن " علم اللغة " بدأ عمله العلمي بالدراسة المقارنة باللغات الهندية الأوروبية Indo European في القرن التاسع عشر .

وقد أشار اللغوي السويسري دي سوسير Ferdinand de Saussure إلى المراحل التي مر بها الدرس اللغوي فيما ورد في محاضراته تحت عنوان " نظرة حول تاريخ علم اللغة " ، ورأى أنه مر بثلاث مراحل قبل أن يحدد موضوعه الحقيقي الصحيح، وتلك المراحل هي :

البحث اللغوي

١- دراسة ما يندرج تحت مصطلح " النحو " Grammar ، وقد نشأت تلك الدراسة مع اليونان، وسيطر عليها التفكير المنطقي، وكان هدفها إعطاء القواعد التي تفرق بين الصواب والخطأ حين استعمال الصيغ الإعرابية ؛ لذلك نستطيع أن نقول عنها إنها دراسة " معيارية " لم تهتم بالملاحظة الفعلية للواقع اللغوي .

٢- ظهور مصطلح Philology في مرحلة مبكرة، وهو يهتم بالدراسة اللغوية للنصوص في ضوء بعض الأصول والتقاليد العتيقة التي تعود إلى مدرسة الإسكندرية القديمة، وقد أخذت تلك الدراسة في الازدهار في أوروبا في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين . ونشير إلى أن مصطلح " فقه اللغة " Philology قد ارتبط في بدايته بالحركة العلمية التي قام بها وولف Friedrich August Wolf سنة ١٧٧٧م ، واستمرت حتى عصرنا هذا، ولكن " اللغة " لم تكن الموضوع الأساسي للدراسة؛ لأن فقهاء اللغة الأوائل اهتموا بتحقيق النصوص القديمة لإجراء بعض البحوث عليها، وخاضوا في بحث التاريخ الأدبي، والتاريخ الاجتماعي، وإن كان الفضل يعود إليهم في التعرف على الخصائص اللغوية للعصر وبعض الكتاب والشعراء في ضوء النصوص القديمة باللغات الأوروبية، خاصة نصوص التراثين اليوناني واللاتيني .

٣- اكتشف اللغويون إمكان مقارنة اللغات فيما بينها، وكان ذلك بداية جديدة في البحث اللغوي تعدد الأصل أو الأساس لما يسمى بـ " فقه اللغة المقارن " Compative Philology ، وهي تدين بالفضل للسير وليم جونز الذي اكتشف اللغة السنسكريتية على نحو ما أشرنا، فقد درس بوب Franz Bopp [١٧٩١ - ١٨٦٧م] سنة ١٨١٦م في مؤلف عنوانه " نظام التصريف في

الفصل الرابع

اللغة السنسكريتية " العلاقات التي تربط تلك اللغة باللغات الجرمانية واليونانية واللاتينية وغيرها .

وقد استمر الدرس اللغوي في تطوره، ولكن كانت هناك ظاهرة واضحة في القرن التاسع عشر شكلت حدود فقه اللغة، وأدت إلى التمييز بينه وبين علم اللغة فيما بعد ، هي أن دراسة السنسكريتية كانت أساس البحث اللغوي، وكان دارس اللغة يشرح أية ظاهرة لغوية أوربية في ضوء السنسكريتية دائماً، وعالم فقه اللغة المقارن الذي يجهل تلك اللغة شأنه في ذلك شأن عالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات .

وإذا كان دي سويسر قد أرخ للدرس اللغوي في المراحل الثلاث السابقة، فإن علم اللغة Linguistics بدأ يأخذ مكانته بعده علماً Science على يد دي سويسر نفسه؛ وذلك في محاضراته التي ألقاها في جامعة جنيف بسويسرا في السنوات [١٩٠٦ - ١٩١١م] والتي نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦م بعد وفاته بثلاث سنوات تحت عنوان *course de Linguistique generale* ، وصدرت له عدة ترجمات إلى العربية بدءاً من سنة ١٩٨٥م .

عرف الأوروبيون دراسة النصوص القديمة وبخاصة النصوص المقدسة منذ قرون عديدة، وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، أخذوا في استعمال كلمة *Philology* [فيلولوجيا] للدلالة على دراسة النصوص المقدسة . وهي صيغة يونانية الأصل مركبة من لفظين : *Philo* = حُب ، *logos* = كلمة " حب الكلمة أو اللغة " ترندت كثيراً في أقوال رجال الدين المسيحي بنوع خاص بمعنى تفسير الكتاب المقدس *Philologia Sacra*، وانتشرت في بعض البيئات الأوربية ثم نُقل اللفظ إلى الإنجليزية *Philology* والفرنسية *Philologie* ... إلخ ، واتسع مدلولها فأصبحت تدل على خدمة النصوص والكتابات القديمة : المخطوطة أو المنقوشة أو المطبوعة والعمل على شرحها وتحليلها وتحقيقها في حدود ما سمحت به تلك العصور الوسطى من معارف تاريخية ولغوية وأدبية وفكرية وتطور هذه المعارف حول النص المدروس فتتوارد في

البحث اللغوي

شرحه وتحقيقه وفقاً لما تتطلبه أجزاء النص من تناولها بالتفسير والتعليق دون تصنيف هذه المعارف تصنيفاً نوعياً .

وهكذا بدأت الطريقة الفيلولوجية [أو المنهج الفيلولوجي] في مراحلها الأولى في أوروبا وتذكرنا هذه الطريقة بتلك التي سار عليها كما كان علماء العربية في دراسة النص القرآني وشواهد اللغة التي نزل بها القرآن الكريم . وطريقة العرب سبقت الطريقة الفيلولوجية في شرح النصوص المقدسة بزمان بعيد .

ومن المحتمل أن يكون التشابه بين الطريقتين ثمرة التقاء تاريخي قديم في هذا المجال بين شعوب الشرق والغرب . وقد لفت هذا التشابه بعض الباحثين المعاصرين ؛ إذ يقول أحدهم : " إن دراسة النصوص وفهمها وتحليلها وإعرابها هو علم يعرف في الإنجليزية باسم **Philology** أي علم تحليل النصوص ومثاله ما نرى من كتب شواهد النحو وما نرى من كتاب الكامل للمبرد من أعراب وشروح وتوجيهات لبعض النصوص^(١)، ويقول باحث آخر : " إن العلوم العربية نشأت منذ البداية متصلة مترابطة .

ثم تطورت بعد ذلك ... من خلال المناخ العقلي الذي نشأ وتطور في ظل القرآن^(٢)، ويواصل الباحث حديثه فيقف عند علماء القرن الرابع الهجري أحمد بن فارس [المتوفى ٣٩٥هـ] في كتابه " الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " ومن بعده عبد الملك بن محمد الثعالبي [المتوفى ٤٢٩هـ] في كتابه " فقه اللغة وسر العربية " ثم يقول " مما لا شك فيه أن هذه التسمية - يعني تسمية فقه اللغة - التي اختارها في مقابل اللفظة الأوروبية **Philology** = فقه اللغة .

(١) تأليف ج. فندريس : اللغة ص ١٨ ، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، القاهرة ١٩٥٠ م .

(٢) د/ عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ص ٣٣ ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

الفصل الرابع

مع قيام عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي حدثت عوامل كثيرة أدت إلى تطور المنهج الفيلولوجي ، فاختلقت سمات عرفها المنهج في مراحلها الأولى، فقد تعرض على مدى تاريخه الطويل تحت تأثير هذه العوامل لارتداد آفاق علمية جديدة لم يلبه له بها عهد سابق فقامت حركة ناشطة بين علماء أوروبا لإحياء تراثهم، وبعث الحركة الوطنية، والتعرف على شعوب العالم ولغاتهم، والإفادة مما قدمته الكشوف الجغرافية للأوروبيين من لغات كثيرة، وقيام البعث التبشيرية المسيحية بالتعرف على لغات هذه البلاد وقيامهم بترجمة الكتب المسيحية المقدسة إلى غير ذلك ، هل هذه العوامل التي دفعت علماء أوروبا إلى إعادة النظر في تراثهم ومعارفهم التي انتهت إليهم والاجتهاد في تفسير الكتابات والنصوص التي عرفوها أو توارثوها على أسس أكثر دقة وشمولاً ؟

واستغرقت هذه الحركات العلمية الناشطة من الزمان ما يزيد على ثلاثة قرون [أي إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي] وفي أثناء هذه المرحلة الطويلة أخذت الدراسات المقارنة في داخل المنهج الفيلولوجي تنمو متجهة نحو منهجية علمية واضحة حتى صارت كلمة **Philology** تشمل في بعض معانيها - وتستعمل عند بعض الأوروبيين بمعنى - المقارنة اللغوية ، وقد أدت المقارنات اللغوية دوراً مهماً في المنهج الفيلولوجي ؛ إذ اتخذت أساساً في تحقيق نقوش اللغات السامية وكتابتاتها وفهم نصوصها بمقارنتها مع اللغات السامية الأخرى، وكانت المقارنة ضرورية للتعرف على اللغات التي كشفت في القرن التاسع عشر عن طريق مقارنة الصيغ الواردة في نقوشها بما هو معروف في اللغات السامية الأخرى وخصوصاً العربية والعبرية والآرامية والحبشية، ومن ثم حظيت المقارنات اللغوية باهتمام العلماء من أصحاب المنهج الفيلولوجي^(١).

(١) د/ محمود فهمي حجازي : علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث واللغات السامية ص ٣٢ ، ٣٣ ، ط الكويت ١٩٧٣ م .

البث اللغوي

ووجد المنهج الفيلولوجي منافساً له من أصحاب تصنيف العلوم ، فبعد أن كانت العلوم مجموعة من المعارف المرتبطة بعضها مع بعض في المنهج الفيلولوجي، ثم قامت حركات تدعو إلى تصنيف العلوم بحيث يكون لكل علم منها فروعاً ومناهج ومجالاته الخاصة وأهدافه، وقام العالم السويسري دي سويسر المتوفى ١٩١٣م بالدعوة إلى استقلال علم اللغة وسماه باسم خاص وهو Linguistics ، وذلك بعد أن كانت المعارف اللغوية مندرجة مع غيرها في المفهوم الفيلولوجي ، أعلن " دي سويسر " أن اللغة علم يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها ، معنى أن " علم اللغة " لا يستهدف خدمة النصوص كما كانت اللغة من قبل ، فعلم اللغة يبحث اللغة المكتوبة والمنطوقة ، ولا يقتصر على دراسة النص كما أنه يلتزم بمناهج محددة، ومستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية يسير عليها اللغويون في دراستهم اللغوية لكي يصلوا إلى حقائق اللغة ذاتها ، ولما كان المنهج الفيلولوجي لا غنى عنه للباحثين في النقوش والنصوص القديمة، وكانت قد رسخت أصوله لدى العلماء في أوروبا، رأى أصحاب علم اللغة الحديث في أوروبا [أن دراسة النصوص وتحقيق مخطوطاتها وفك رموز الكتابات القديمة، فكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بأبحاث متخصصة فيها هي أعمال علمية جلية تقوم عليها دراسات تاريخية أو لغوية أو أدبية، ولكن هذا العمل الفيلولوجي يخرج عن ميدان علم اللغة^(١).

وعلى هذا استقل العمل الفيلولوجي بعلم خاص هو علم " النصوص القديمة " وظلت المقارنات اللغوية منذ ذلك الحين تعمل في مجالين، وتندرج تحت علمين : فاستخدمت في المنهج الفيلولوجي لخدمة النصوص كما كان من قبل، ثم أضيفت باسم المنهج اللغوي المقارن إلى مناهج علم اللغة الحديث، منهجاً لعلم اللغة المقارن مستعملة التحليل اللغوي للكشف عن أواصر القرابة ودرجاتها بين اللغات السامية، وتأصيل

(١) د/ محمود فهمي حجازي: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ص ٣٢.

الفصل الرابع

السمات المشتركة بينها وتحديد خصائص كل لغة منها وما استحدثته من سمات تميزها عن غيرها من اللغات السامية الأخرى .

من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ؛ لأنَّ جُلَّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً . وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى ، حتى غدا العلماء يسردون البحوث اللغوية التي تُسلك عادة في علم اللغة ثم يقولون : وفقه اللغة يشمل معظم البحوث السابقة، ولاسيما إذا قورنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة^(١).

وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضريبن من ضروب الدراسة اللغوية ، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناها تافهة لا وزن لها، فاسم علم اللغة عند الغرب " *Linguistique ou Science du Langage* " أي العلم المختص بالكلام أو اللغة، واسم فقه اللغة عندهم " *Philologie* " وهي كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما *Philos* بمعنى الصديق، والثاني *Logos* بمعنى الخطبة أو الكلام، فكان واضح التسمية لاحظ أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه .

وعندما نطرح جانباً كل أثر للمباحث التي لا تتعلق باللغة تعلقاً وثيقاً ، نستطيع أن نعرّف فقه اللغة بأنه منهج للبحث استقرائي وصفي يُعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة ، الشقيقة أو الأجنبية ، وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتركيبها، وعناصر لهجاتها ، وتطور دلالتها، ومدى نمائها قراءة وكتابة.

والبحوث الأساسية المذكورة في التعريف تتعلق بعلوم ثلاثة :

(١) د/ علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ١٣ .

البحث اللغوي

١- التاريخ ، لمعرفة موطن اللغة الأول، وروابط القربى بينها وبين اللغات الإنسانية الأخرى، وتتوَع لهجاتها ، وتطور خطها وكتابتها .

٢- علم الصوت، لبحث لهجات اللغة وأصواتها، ومعرفة أنواع التطور الصوتي فيها .

٣- علم الدلالة، لبحث تطور ألفاظها وما تفيده من المعاني .

ولقد انحصرت مناهج العلماء في القرن التاسع عشر في دراسة اللغة من وجهة النظر التاريخية، فأعلن كبارهم : " أن علم اللغة تاريخي " ^(١)، وأضاف كثير منهم إلى الناحية التاريخية معرفة التطور الذي أصاب اللغات في مختلف العصور .

أما القرن العشرون فقد طبع بطابع الوصفية ، وتناول العلماء فيه اللغات بدراسة خصائصها الصوتية والتعبيرية، فكانت مباحثهم مجموعة مستقلة من المواد المتداخلة كالأصوات والتشكيلات والمعجمات والدلالات وما يمكن أن يسمى " علم الاجتماع اللغوي " ^(٢).

في ضوء هذه الدراسة الوصفية انطلقوا يعالجون الأصوات الإنسانية بالبحث العميق، فقارنوا بين الحروف وصفاتها، ودرسوا أعضاء جهاز النطق وأخضعوا ذلك كله للملاحظة المباشرة، والعرب برزوا في ذلك منذ قرون في علمي التجويد والصرف. وبحثوا في اشتقاق الكلمات وأصولها وصيغها، وأبنيتها، وسماعها وقياسها ، ثم عنوا بدراسة معاني الألفاظ ودلالاتها ملاحظين ما بينها وبين الاشتقاق من اتصال وثيق .

ومما سبق ندرك أن المنهج الفيلولوجي في أوربا قد مرّ بمرحلتين على الأقل ، فالمرحلة الأولى ظهرت في العصور الوسطى حين بدأ استعمال كلمة **Philology** بمعنى دراسة النصوص القديمة وبخاصة النصوص المقدسة، والمرحلة الثانية بدأت مع

(١) Firth, Personality and Language, in Society Sociological Review, vol. II, Sect. Two, 1950, P.37.

(٢) المصدر نفسه .

الفصل الرابع

عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر، واستمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر. وفي هذه المرحلة الطويلة نعرض المنهج الفيلولوجي في وضع مبادئ للدراسات المقارنة وقبل نهاية هذه المرحلة قام العالم السويسري دي سوسير، فدعا إلى نظريته في اللغة، فأقام بها علماً قائماً بذاته يستقل بفروعه ومجالاته ومناهجه وأهدافه. وجعل من فروعه " علم اللغة المقارن " وله منهجه الخاص : المنهج اللغوي المقارن .

وقد أدى استقلال علم اللغة عن غيره من العلوم إلى اعتبار " المنهج الفيلولوجي " تابعاً لعلم آخر مستقل هو " علم النصوص " وترتب على تصنيف العلوم أن أصبح " المنهج المقارن " يعمل في مجالين تابعين لعلمين مختلفين : مجال العمل الفيلولوجي وميدانه " علم النصوص " ، ومجال علم اللغة الحديث Linguistics وميدانه " علم اللغة المقارن " وكان من أثر هذا " التقسيم الثنائي " أن اتخذت المقارنات اللغوية عند أصحاب النظرية الحديثة - اصطلاحين : أحدهما : comparative philology ومكانه في علم النصوص . والثاني : Comparative Linguistics ومكانه في علم اللغة الحديث لم يلقوا بالاً إلى هذه التفرقة الحاسمة لسبب أو لآخر . فمنهم - من الأوروبيين والغرب - من يتخطى حدود المصطلح باستعماله بدلاً عن الآخر .

وقد نجد في بحوث أوروبية خلطاً بين Linguistics & Philology أو بين الفيلولوجيا المقارنة، وعلم اللغة المقارن . وكذلك صنع اللغويون العرب وبعض جامعاتنا حين أطلقوا فقه اللغة على علم اللغة وفقه اللغة المقارن على علم اللغة المقارن . هذا على الرغم مما قام به أصحاب المناهج الحديثة من جهود في تحديد كل من هذين المصطلحين . وفي التنبيه إلى أهمية الفوارق الحاسمة التي تفصل بينهما بعد

الكتب اللغوية

أن أصبحت المصطلحات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلوم تحددت بمناهجها ومجالاتها وأهدافها ^(١).

لكنّ ظهور فرديناند دو سوسير جعل اللسانيات واضحة الحدود، من حيث الاختصاص الذي صار يشمل جميع قطاعات اللغة على حدّ سواء، كالأصوات والصرف والنحو والمعجم والدلالة، ومن حيث المناهج التي نضجت وآتت أكلها كالمنهج التاريخي والمقارن والوصفي .

والحقّ أنّ اللسانيات ينبغي أن تكون عامل " تحديث " لا عامل هدم، وأن يكون ما يفد منها إلى درسنا على سبيل الإضافة والإثراء وليس على سبيل المسخ والإلغاء .

فمن الإفادة المرجوة مثلاً تحديث مناهج الدرس اللغوي، وتخليص هذا الدرس مما لحق به من معطيات خارجة عن مجال اللغة، وابتناء علوم لغوية جديدة على هدى من الأنظار الحديثة كعلم الأصوات وعلم الدلالة والمعجمية مما لم يعرف في درسنا ضبطاً منهجياً أو إطاراً معرفياً [إيستيمولوجيا] مع كثرة الجهود وسعة المعطيات ، كما يمكن لفقه اللغة العربية أن يفيد من الكثير من نتائج الدراسات اللسانية المقارنة، والدراسات الفيلولوجية لمعرفة مكان العربية بين أخواتها عبر التاريخ، وأن يفيد من نتائج الدرس التأصيلي [Etymologie] لمعرفة مصادر المعرّب معرفة صحيحة، ونحو ذلك كثير .

لكنّ هذه الإفادة لا تعني بحال من الأحوال إلغاء لأي ضرب من ضروب المعرفة اللغوية عندنا كالنحو والصرف وفقه اللغة ومعطيات الدلالة والمعجم، بحجة التجديد أو مجازاة العصر ، كذلك ينبغي التنبيه على أنّ أي استمداد من المناهج الحديثة لا يجوز أن يؤدي إلى تجاوز لخصوصية العربية الفصحى وما يحيط بها من ظروف تاريخية وحضارية وقومية .

(١) د/ عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ص ٩-١١ ، ٢٥ - ٢٩ . د/ محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٢ - ١٤ ، ط بيروت ١٩٦٦ م .

الفصل الرابع

أما اللسانيات فضرب جديد من ضروب الدراسة اللغوية يعتمد مناهج ووسائل محدثة لا تقتصر على هذه اللغة دون غيرها . لذلك لا نجد بأساً من إضافة هذا الدرس إلى علومنا اللغوية؛ لأنّ فيه فوائد لا تتكر شريطة أن يكون للعربية مكان في هذا الدرس حتى لا تبقى اللسانيات علماً أجنبياً لا يتعدى دورنا فيه حدود الترجمة .

وقد ظهر من هذا الدرس شيء يمكن أن يتابع ويبنى على أساسه . فالدرس اللساني العربي المقترح لا يمكن أن يكون صحيحاً من وجهتنا ما لم يكن مسبوقاً بكشف دقيق لإنجازات علماء العربية في كلّ مجال من مجالات درسهـا، وفهم واع لمناهج الدرس اللساني المستجلب ومقاصده .

ومن مسوّغات هذا البحث أنّ الناظر في اللغة من حيث هي ظاهرة إنسانية تتشخص في عيّنة دالة من أمثلتها يشبه من بعض الوجوه ابن اللغة الذي يتعرّض لها ، أو لعينة من أمثلتها ، خلال بضع سنوات من سنواته الأولى؛ ذلك أن ابن اللغة - لا شك - يستخلص لنفسه نظام لغته، ويميّز حدود الوحدات اللغوية فيها - على مستوى البنية الصرفية - ولا يخلط خلط من تلتبس عليه تلك الحدود، ويميّز دلالات الألفاظ ووجوه استعمالها، ويميّز أصول تركيب الجمل ، فلا يركب جملة إلا أن تكون مقبولة لدى سائر أبناء اللغة .. إلخ . ويتفق أبناء اللغة في ذلك على حد سواء .

إن قدرنا من ذلك ينبغي أن يكون من حظّ الباحث في اللغة، ولعلّه يستوي في هذا القدر أن يكون الباحث من أبناء اللغة، وأن يكون ممّن صرفوا همهم وطاقاتهم إلى النظر فيها من أبناء غيرها . فإذا كان لابن اللغة فضل على غيره من هذه الجهة في أنّه يستطيع أن يتكئ على " حدسه " في كثير من صور التقدير، فإن لغير ابن اللغة حدساً آخر من لغته، وهي لغة إنسانية يجمعها بكلّ لغة أخرى قدر مشترك، وفضلاً في أنّه ينظر في لغة غيره من خارج دائرة الإلف، ومن بُعد كافٍ يهيئ له رؤية أوضح .

غير أن النظرة الموضوعية المنصفة تقودنا إلى تسجيل بعض نواحي القصور في المنهج الذي اتبعه القدامى من علماء العربية، وفي طرائق التعيد التي اختاروا.

البحث اللغوي

وذلك - بالطبع - إنما يصح إطلاقه فيما لو أخذنا مناهج البحث اللغوي الحديث دليلاً للعمل وأساساً للمناقشة ، وإلا فإن جملة ما أتى به هؤلاء في حد ذاته عمل علمي رائع، وبخاصة إذا ما أخذنا في الحسبان ظروف حياتهم وأدوات معاشهم آنذاك ، حيث كانت وسائل المعرفة محدودة وعدد البحث وأجهزته معدومة .

لقد غاب عن علماء العربية أن اللغة ظاهرة يصيبها التطور والتغير، فنظروا إلى العربية كما لو كانت شيئاً جامداً لا يتحرك : نظروا إليها في وضعها الضيق في الزمان والمكان، فلم يحفلوا بماضيها، ولم يفسحوا المجال للتفكير في مستقبلها وما عساه أن يكون . وكان من نتائج هذه النظرة أمران بارزان، ظهرت آثارهما في القواعد التي سجلوها، وفي مسار هذه اللغة منذ زمن التعميد حتى وقتنا هذا . وما زالت هذه الآثار تمثل مشكلات أمام الباحثين .

ففي المستوى الصرفي على سبيل المثال ، في ظاهرة الإبدال التي عالجوها كلها أو جلّها بمنهج الافتراض ، على حين أنها سهلة المأخذ طيّعة التحليل فيما لو نُظِرَتْ في إطار الأصل التاريخي لها في اللغة العربية ذاتها، أو في أخواتها الساميات [أو العربيات] . ويتمثل الأمر الثاني الذي أصاب العربية في مسارها الطويل في فرض القيود الصارمة على حركتها وتفاعلها مع الظروف المتجددة في كل مجالات الحياة من حولها .

لم نقصر - يوماً - في إظهار الحمية على لغتنا القومية ، وضرورة الحرص عليها، ومداومة تطويرها ، إلا أننا في الوقت ذاته نعاني حالة مزمنة من غياب إرادة الإصلاح اللغوي . لقد استرخينا واستكنا إلى ما آلت إليه لغتنا ، وكأن لغات الشعوب تنمو بشكل تلقائي، وتبرأ في عللها دون تدخل من أحد، إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلتصق جبيننا الحضاري ، أزمة على جميع الصعد تنظيراً وتعليماً، نحواً ومعجماً، استعمالاً وتوثيقاً ، إبداعاً ونقداً .

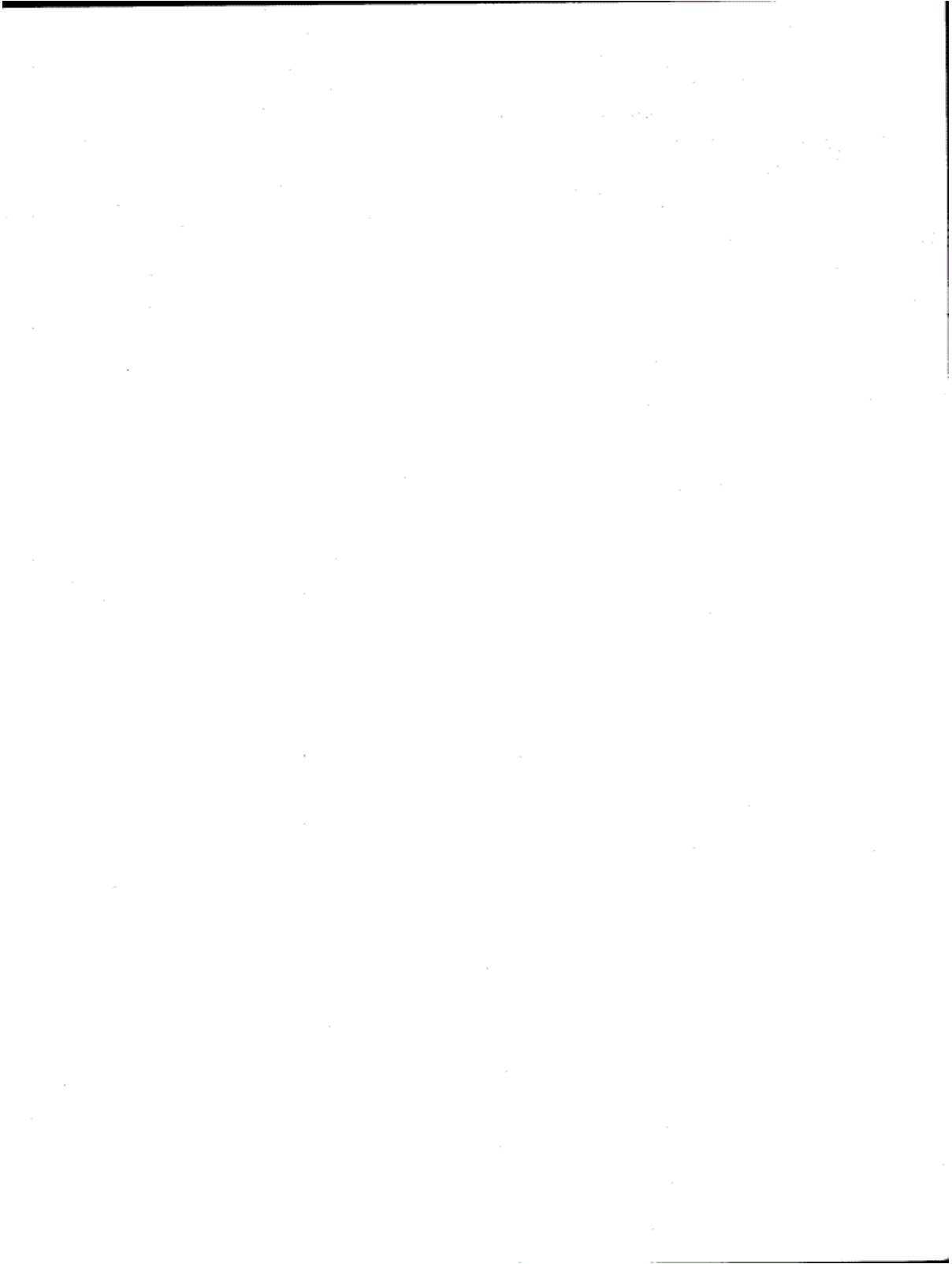
الفصل الرابع

وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى هذه الأزمة بعداً فنياً متعلقاً بمعالجة اللغة العربية آلياً بواسطة الكمبيوتر ، ولا يخفى على أحد أن وضعنا اللغوي الراهن ينذر بفجوة لغوية تفصل بيننا وبين كثير من الأمم التي تولى لغاتها القومية أقصى درجات الاهتمام ، بصفتها - أي اللغة - شرطاً أساسياً للحصول على عضوية "نادي المعلومات العالمي" .

هكذا نستبين - وقد اتضحت مادة العلم في مراتبها التصورية عبر تجلياتها - كيف يفضي بنا البحث من خلال المفهوم العام الذي هو اللغة إلى كشف خصائص الظاهرة ، من حيث هي لسان ، ومن حيث هي كلام ؛ لأن العلم تبيان يستوجب المرور بالنوعى والفردى على قدر ما يقتضيان هما الآخران إدراك العام قبل النفاذ إليهما . ذلك أن اللسان هو بمثابة خروج اللغة من حيز القوة إلى حيز الفعل على مستوى البناء والتنظيم والتكامل مثلما أن الكلام هو خروج باللسان من مجال الصورة البنائية إلى الإنجاز الفيزيولوجي والنفسي . فإذا كانت اللغة تصوراً فإن اللسان تصنيف والكلام نموذج .

ولما كان اللسان مجالاً لتحقيق الظاهرة فإنه يمثل بالنسبة إلى اللساني علاقة اللغة بالحياة الجماعية، ويساعده بذلك على تصور الصلة بين المستوى التجريدي والمستوى الواقعي، كما يعينه على إدراك خصائص اللغة من خلال الفروق القائمة بين الألسنة . فاللسان جملة من القواعد تواضع عليها المجتمع بكل أفرادهِ حتى إن الواحد منهم يولد فيجد اللسان قائماً أمامه كالقانون الجماعي الصارم الذي يتعين الرضوخ له عبر إنجازه بما ترضاه الجماعة .

على هذا الأساس يُعدّ اللسان الجزء الاجتماعي من اللغة ؛ لأنه يخرج عن مناط الأفراد فلا يملكون إبداعه ولا يقدرّون على تعديله ؛ إذ هو موجود بمقتضى عقد ضمّني صامت بينهم، لذلك لم يرتبط اللسان بالفرد ؛ لأنه متجاوز له من حيث هو سابق إياه وباق بعده فلا يزول بزواله .



الفصل الخامس

كيفية صنع البحث اللغوي

ومراحل إعداده



الفصل الخامس

أولاً : الاستعداد :

البحث يدل على ملكة صاحبه العقلية واللغوية، وعلى ثقافة الباحث وتجاربه
وذكائه وقوة بصيرته، ومن خلاله تتضح قدرته في الصبر والمثابرة، وتظهر إرادته
القوية وعزمته الثابتة وجراته وصراحته في إبداء آرائه، وتظهر شخصيته في سعة
اطلاعه، وتتبع المعلومات والأخبار وفقاً للموضوع المختار، وتظهر قوة حافظته في
ربطه بين أجزاء الموضوع الذي قرأه في أوقات مختلفة، وتصميمه على الوصول إلى
هدفه المنشود بدون يأس لرفض المشرف - على البحث - لفكرة استساغها، وقد تغير
جزئيات البحث وتعاد كتابته، فعليه ألا يضعف، ويصيبه الشك في قدرته على تكرار
المحاولة، حتى يتثبت من كل ما قرأ وتوصل من أحكام .

ومن الأمور التي تظهر شخصية الباحث في بحثه وتدل عليه هي تجنبه للخطأ
اللغوي والنحوي والصرفي ، حتى تكون لغة البحث سليمة وفصيحة، وأن يكون ملماً
بالقواعد اللغوية .

وتتضح شخصية الباحث من خلال اختياره للموضوع ، وأيضاً في عدم انقياده
لغيره من أفكار الباحثين السابقين له دون مناقشة أو دراسة دقيقة وافية .

يجري على جبهة اللغة ثورة في التنظير اللغوي تصاحبها تكنولوجيا متقدمة لا
تقل ثورية في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي، وعلوم المعرفة، وتكنولوجيا
الأعصاب على معالجة اللغات الإنسانية بواسطة الكمبيوتر، وذلك بهدف إكساب الآلة
المهارات اللغوية من اشتقاق وتصريف وإعراب واختصار واستخلاص وفهرسة ، بل
تأليف للنصوص أيضاً .

[١] اختيار عنوان الموضوع :

ومن مهمة الباحث أن يحدد أهدافه، ومنهجه بوضوح لكي يصل إليها بأقصر الطرق وأفضلها، ولكي تتضح أهداف البحث ينبغي أن يكون الباحث ملماً بأسباب اختياره للموضوع . فقد يكون الهدف وقائياً وقد يكون علاجياً أو إنشائياً ، وقد يكون الهدف ابتكارياً أو استطلاعياً ، وتتعدد الأهداف بتعدد البحوث وتختلف البحوث باختلاف موضوعاتها وأهدافها . فقد يكون الهدف تصحيح أخطاء وملابسات علمية سابقة، وقد يكون إثراء لما هو قائم، أو أنه تجديد وابتكار .

إنّ يتحدد البحث بتحديد معالمه، ومعالم البحث هي : الموضوع ، والأهداف، والفروض، والمنهج، وأن يكون للبحث العلمي ميدان بشري، وأن يكون له زمن البداية والنهاية ، وأن يقوم به باحث ماهر تتضح أمامه أهمية البحث ومعالمه الأساسية والفلسفة التي يحتوي عليها ؛ لأن البحث هو تفتيش عن غائب حاضر [غائب عن الإثبات ، وحاضر في الذهن] ؛ لأنه النشاط العلمي المنظم في التعرف على الحقيقة.

يتخير الباحث عنوان الموضوع الذي يسير فيه بحثاً عن جوانبه المضئنة وكنوزه الكثيرة، فيكون موضوع اهتمام يشد اهتمام القارئ إليه لمحاولة معرفة الكثير عنه، فيسعى وراء الفكرة والدراسة التي أراد تفصيلها من خلال ذلك العنوان، وشموله للموضوع، وجاذبيته تعمل على دوام هذا العمل وشهرته، وتبعده عن النسيان الذي قد يكون لبعض العناوين الضعيفة أو غير المشوقة .

غير أننا في البحث اللغوي لا نهتم بالجاذبية أو التشويق وربما ملنا إلى ارتباط اسم الباحث بعمل جاد تحتاجه الدراسات اللغوية ويعالج أهم قضاياها، ويؤدي هذا كله إلى ذبوع صيت البحث والباحث وارتباط العمل باسم الباحث أو كلاهما بالآخر .

الفصل الخامس

وتحديد موضوع البحث ليس بالأمر الهين مما جعل بعض الباحثين يسميه بمشكلة البحث التي تستوجب من الباحث بذل الجهد العلمي من أجل إيجاد حلول تخرجه من الحيرة التي هو فيها، وتدفعه إلى البحث عن معالجات لموضوع دراسته . إذن الخروج من المشكلة تكون بدايته بتحديد موضوع البحث، وتبيان معالمه الأساسية من تحديد الأسباب إلى وضوح الأهداف .

إذن الحيرة هي نتيجة الشك ، وعدم وضوح التخمينات تجاه الموضوع المستهدف بالبحث، وهي مرحلة مهمة في التفكير الإنساني عند انتقاله من الشك إلى اليقين . ويقال للإنسان الذي يضل طريقه بأنه حيران نتيجة عدم تحديده الاتجاه الصائب الذي يود السير فيه . وعليه فإن أول مشكلة تواجه الباحث كيف يتخلص من الحيرة التي تعوق تفكيره في أن يحدد موضوع بحثه ؟

وكيف ينتقل من الشك إلى اليقين بأن مشكلته تكمن في القلق الذي يحيط به والغموض الذي يتطلب منه صبراً لاستطلاع ما كتب عن الموضوع قدر الإمكان في مجال تخصصه، والاطلاع على المعارف المتوافرة لتساعده على صياغة وتحديد مشكلة بحثه، والتي تنقله من الضلالة إلى الهداية ؟

وهكذا يتعلم الهداية والحكمة كما يقول الله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ ^(١) . ولهذا الحيرة مقبولة لأن بعدها هداية وتعلم حكمة . ولا تتضح مشكلة البحث إذا لم يلم الباحث بفلسفة الموضوع الذي يود دراسته ، أو أنه لم يعرفها على الإطلاق، وتتضح فلسفة البحث بإجابة الباحث على السؤال لماذا اختار هذا الموضوع بالذات ؟ ولماذا لم يختار غيره ؟

(١) سورة الجمعة : من الآية [٢] .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

الاختيار الجزافي لموضوع البحث وصيغته :

واختيار موضوع البحث هو أول خطوة يخطوها طالب البحث، ولا تكون عادة إلا بعد تفكير طويل وقراءة واعية . وقد جرت عادة طلاب البحوث في دراساتهم العليا أن يتلقوا من أساتذتهم توجيهات في هذا الشأن . وعلى الطالب أن يضع نصب عينيه وهو يختار لنفسه موضوعاً لبحثه أن يكون الموضوع مفيداً فائدة محققة، ينتفع به في مستقبل حياته ، وتنتفع به جماعات المتخصصين من الباحثين، وأن يكون بعض جوانب الموضوع - على الأقل - غير مطروحاً لدى الدارسين من قبل، أو غير مدروسة لديهم دراسة كافية ، فهو لا يزال بحاجة إلى مزيد من الإحاطة والمتابعة للوصول إلى نتائج أكثر دقة وشمولاً ، ومن هذا ندرك أن اختيار الموضوع يتطلب من الباحث أن يقرأ كثيراً قبل أن يستقر على اختيار موضوعه، وأن يقرأ أكثر قبل أن يصوغ عنوان الموضوع في عبارة محددة . وصياغة العنوان ليست من السهولة بمكان ، وهي - بعد - تبعة يلقيها الباحث على كاهله ، ويلتزم بها في النظر والتطبيق عند رسم الخطة ، وتحديد أهداف البحث وهو التزام شاق، ولذلك ينبغي أن يجيل الباحث فكره طويلاً في العنوان الذي يصوغه قبل أن يستقر على وضعه ، وأن يكون يقظاً حريصاً على صيغة ذات معنى محدد، خالية من الإبهام والغموض، لا تحتمل أكثر من معنى، ولا تقبل شيئاً من التأويل . وليس بغريب بين طلاب الدراسات العليا أن يتبين لأحدهم بعد أن سجل عنوان بحثه في سجلات الكلية ، وقطع في بحثه شوطاً أن عبارة العنوان تقتضي شيئاً من التعديل والتحوير ، بل ليس بغريب أن يكون تغيير حرف واحد في عنوان البحث - كواو العطف أو حرف الجر - سبباً في إحداث تغيير جوهري في خطة البحث وأهدافها .

وصفوة القول إن اختيار موضوع البحث ، وتحديد صيغته كلاهما يتطلب من الباحث كثيراً من التأمل والدقة والاحتياط، ولا يجوز لطالب البحث حين يختار لنفسه موضوعاً أن يلقي الكلام على عواهنه ، وأن يصوغ عبارة العنوان بصورة جزافية.

الفصل الخامس

ويكون التحليل موضوعياً عندما يلتزم الباحث بالموضوع، ولا يحيد عنه، من خلال المنهج العلمي الذي حدده، وفرضيات البحث وأهدافه، وينصب التحليل على رؤية الباحث الخاصة، أو عواطفه واتجاهاته الخاصة، أو لمصلحة جهة معينة، أو فرد بعينه، بل ينبغي أن ينصب التحليل على الموضوع الذي تتضمنه الفرضيات حتى وإن كانت النتائج المتوصل إليها لا تثبت صحة تلك الفرضيات التي حملته وهذا على وهن.

ولذلك ينبغي على الباحث أن يبين الأسباب التي دفعته إلى تحديد واختيار موضوع بحثه، والأهداف التي يسعى إليها من أجل تبيان القضية التي تربطه بالموضوع، فإذا كانت الظاهرة خاصة بالجهود اللغوية أو النحوية، فإن الموضوع قد يتأثر بإعجاب الباحث بأحد النحاة واللغويين الذين يثيرون إعجاب الباحث، فيكون بحثه منحرفاً عن جادة الصواب والموضوعية، أما إذا تحرر الباحث من الإعجاب، فتكون القضية التي تربطه بالموضوع علمية فتتجه باستقامة نحو الأهداف العامة. فيتأثر الموضوع سلباً بالإعجاب، ولذلك ينبغي على الباحث أن يراعي تأثير ذلك على المعلومات أثناء التحليل الموضوعي.

التحليل الموضوعي هو تحليل غير مقفل؛ لأنه قابل للجديد مما يجعل أحكامه غير مطلقة، ولا نهائية إلا بالثبت، ولذلك لم يضع التحليل الموضوعي سقفاً للتفكير الإنساني المبدع؛ لأن الأحكام المطلقة في الزمن الحاضر قد تقع في شك الزمن المستقبل، وأن ما نصل إليه اليوم من نتائج اكتشافات لم تكن نهاية المطاف العلمي، بل إنها استمرارية لما سبق، ونقطة انطلاق لما قد يقع من إبداع واكتشاف، واختراع بالبحوث العلمية الجادة.

والتحليل الموضوعي هو الذي لا توضع أمامه إشارة [قف]، بل يفسح المجال أمامه من أجل اكتشاف العلاقات بين المتغيرات التي تؤثر في الموضوع؛ لأن كلمة [ممنوع] لا ينبغي أن تكون في قاموس التحليل العلمي.

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

والباحث الموضوعي هو الذي يلتزم بالموضوع أثناء الدراسة والتحليل [التشخيص] والعلاج، برؤية علمية تبرز إبداعاته ومواهبه التي لا تسمح للأناية والشخصانية بالظهور على حساب الذات العامة للمجتمع . فإذا انتشرت رقعة الموضوعية بين الباحثين العلميين كانت ظاهرة أو حالة، وإذا انتشرت الأناية بين الباحثين أصبحت هي الأخرى ظاهرة، وإذا انتشرت الذاتية على حساب الموضوع كانت هي الأخرى ظاهرة .

إذن هذه ظواهر، ولم تكن أساليب كما يعتقد البعض، وتكون علمية عندما تلتزم بالموضوع، وتكون ذاتية عندما تتفصل عنه^(١).

وأخيراً ليست العبرة في اختيار عنوان البحث أن يكون هذا العنوان مشوقاً أو فيه مراعاة للذوق أو يجذب انتباه القارئ ، بحيث يدعو إلى قراءة تفاصيله، فكل هذه أسباب تعد أشكال تجارية، ولكن العبرة في اختيار عنوان للبحث هو أن تراعى الدقة في اختيار كل حرف في عنوان البحث، بحيث يأتي العنوان مشتملاً على كل تفاصيل البحث دون أن تقلت من هذا العنوان أية ظاهرة يحتويها البحث أو أي مبحث أو فصل يخرج عن هذا العنوان .

والخلاصة أن العنوان يساوي ١٠٠٠/١ من البحث كله، والعنوان بطبيعة الحال إما أن يكون جملة أو جملتين على فرض أن مساحة البحث ألف جملة أو ألفا جملة، فإذا ضربنا العنوان في ألف نتج البحث كله، وإذا قسمنا البحث كله على ألف نتج العنوان، ولكن قد يحدث أن يجد الباحث بعد أن فرغ من رسالته أن فيها ما يزيد على العنوان، ولذلك فأمامه وسيلتان : الوسيلة الأولى أن يلجأ إلى المشرف بطلب يعدل فيه عنوان الرسالة لتكون مطابقة لما جاء في كتاباته ، ولكن هذه الوسيلة تعد خسارة كبيرة على الباحث ؛ لأنه يكون قد فرغ من كتابة رسالته ، فإذا جاءت هذه

(١) انظر الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء السوفياتيين، إشراف م. روزنتال، ب. يودين، ترجمة سمير كرم، ط٥، بيروت، دار الطليعة، ص ٥١٠ .

الفصل الخامس

الخطوة في بدء التسجيل أو في منتصف مرحلة التسجيل فيمكنه اللجوء إليها، وإذا لم يكن الأمر كذلك فعليه أن يلجأ إلى الوسيلة الثانية : وهي أن يكتب في مقدمة الرسالة مبررات ظهور هذه الزيادة أو أسباب اضطرابه إليها، وأنه كان يقصد من العنوان شيئاً، وأن المنهج الذي اختاره أو النص الذي اختاره أو الآراء التي استمدها وناقشها وعالج قضاياها هي التي اضطرت به إلى هذه الزيادة التي تخرج عن العنوان .

ولا بد لكل بحث أن يوفق إلى الجديد من الآراء أو النتائج التي يجب أن يتوصل إليها الباحث، وإلا أصبح بحثه معاداً مكرراً .

[٢] الدراسات السابقة :

وباستطلاع الدراسات السابقة نلاحظ أن العلوم بمختلف ميادينها ومجالاتها وروافدها تصب في محيط المعرفة الذي يثري بكل بحث علمي جديد، وتثري البحوث هي الأخرى بما ترتوي به من ينابيع المعرفة، وهكذا تثري البحوث الجديدة بالدراسات والبحوث التي سبقتها، وتؤثر فيها ؛ لأن المعرفة واحدة، وإن اختلفت ميادينها ومجالاتها . فلكي يجد الباحث مكاناً لبحثه بين البحوث التي سبقت، عليه أن يطلع عليها قبل كتابة بحثه أو إجراء دراسته حتى لا يضيع جهده هباءً، فإذا كان بحثه تكراراً لبحوث سابقة لا يلتفت الباحثون إليه، ولا يجد مكاناً له بين البحوث والدراسات التي سبقت في ميدان تخصصه، أو في ميادين أخرى ذات علاقة، أما إذا تم الاطلاع بوعي فإن الموضوع يتحدد بانتباه، ويجد الباحث مكاناً لبحثه بين البحوث السابقة، وتعد مرحلة استطلاع الدراسات السابقة مهمة مرتين :

الأولى : قبل أن يحدد موضوع بحثه ، أي أثناء الحيرة التي تصاحبه عند البحث عن موضوع بحثه، فعندما يكون الاستطلاع واعياً بالقراءة النقدية، وتفسير النتائج والمعلومات المتوصل إليها من قبل سابقه . ومن خلال شكله العلمي الذي يحفز على البحث عن الحقائق والحلول يستطيع الباحث أن يحدد موضوع بحثه بوضوح .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

والثانية : بعد أن يحدد الباحث موضوع بحثه، عليه أن ينتبه إلى نقاط الضعف التي وقع فيها سابقوه، من أجل أن يعرف عن بيئة كيفية تجنبها في بحثه لو واجهته أثناء جمع المعلومات، أو أثناء تحليلها وتفسيرها، واستخلاص النتائج منها ، ومن خلال مراجعة البحوث والدراسات السابقة بوعي وانتباه قد يكتشف الباحث أن الذي سبقه لإحدى الموضوعات لم تكن نتائج بحثه صادقة لفقدانها العلاقة بين فرضياتها ونتائجها، أو أن الخطوات التي اتبعها الباحث لا تؤدي إلى النتائج المتوصل إليها نتيجة لتعيز الباحث، أو أن النتائج المتوصل إليها والموصى بها قد تم بطلانها بنتائج بحث آخر جديد ، أو أنه يكتشف أن تفسيراته مخطئة، لتناقضها مع القوانين الطبيعية والاجتماعية التي تحكم الطبيعة والمجتمع . ونظراً للتطور والتغير المستمر فإنه ليس بالضرورة أن بعض البحوث السابقة لا يكتشف فيها عيب، فالتقدم العلمي والتقنيات الحديثة ساعدت وتساعد على إعادة بعض الدراسات السابقة من أجل تصويبها وتطويرها . ونظراً لأن العلوم تربطها علاقات بعضها مع بعضها الآخر بمختلف تخصصاتها ومجالاتها ، لذلك يكون للاطلاع العام أهمية تفيد الباحث في استكمال جوانب بحثه وتهيئ لبحثه مكاناً مرموقاً بين البحوث .

والإلمام بالدراسات السابقة يتيح للباحث ولغيره معرفة مقدار الجديد الذي جاء به هذا البحث الجديد ومدى أهمية ما أضافه إلى العلم .

يعد الموضوع مادة للبحث، ويعد البحث وسيلة لدراسة الموضوع، والمجتمع هو الميدان الذي تجري فيه دراسة الموضوع المتعلق به، من أجل التعرف عليه، وعند دراسة الموضوعات تتصل الأفكار وتترابط في نسج منهجي ينظم وحدة الموضوع ويظهره في شكله اللائق ليحتل مكانته بين البحوث الناجحة التي سبقته، وتتصل الأفكار والموضوعات من أجل اكتمالها، وتحلل علمياً عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط التي تنقله من الكل إلى الجزء أو من الجزء إلى الكل عند محاولته التعرف على العلل والأسباب الكامنة والظاهرة .

الفصل الخامس

ولا يمكن أن يكتمل الموضوع بدون اتصال أفكاره ولا يمكن أن يحل بدون معرفة نقاط اتصاله . والباحث كمتقصر للحقائق لا يسترسل في دراسته أو تشخيصه أو علاجه للظواهر ما لم تكن أفكاره متصلة وإمامه بالموضوع متكاملًا ، وهكذا تتكون الظواهر والمشاكل من علل وأسباب متصلة ، ومن الصعب أن تحلل أو تفسر الموضوعات قيد البحث ما لم يراع الباحثون ذلك الاتصال الذي يربطها فيما بينها .

وتقوم طريقة الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها، وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها . ومع أهمية هذه الطريقة في دراسة علم اللغة، ومع أن العلماء قد وصلوا بفضلها إلى معظم ما وصلوا إليه من حقائقه - فإنها كثيراً ما تكون عرضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب .

وبكلمة أخرى إن ما نعينه بالتراث اللغوي العربي هو هذا الركام المعرفي المتناثر في تاريخ الحضارة العربية، ونحن لا نستطيع معرفة النظرية اللغوية العربية بأبعادها الكاملة إلا إذا أعدنا تركيب الفكر اللغوي العربي بعد سير دقيق وعميق لكل ما قاله العرب حول المسألة اللغوية .

إن الشرعية العلمية التي تدفعنا إلى تنفيذ هذا العمل ليست نابعة من تجميع ركام معرفي لا يربطه رابط معين وإنما من حقيقة أن هذا الركام المعرفي انطلق من مبدأ فلسفي متماسك وواضح من أجل تفسير الكون والحياة ككل .

فالنظرة الفلسفية الإسلامية أرادت أن تفسر لنا مشكلة الإنسان على الأرض، ولأن اللغة مكون جوهري من مكونات الإنسان فإنها أرادت معرفة هذه اللغة وسيرها وتفسيرها وربطها بالنظرة الفلسفية الكونية .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

صحيح أن تاريخ العالم والحضارات مملوء بالنظرات اللغوية التي تناولت اللغة درساً وتمحيصاً، إلا أن معظمها لم ينطلق من منطق فلسفي شامل وعام . من هنا فإن تجميع الركام المعرفي اللغوي هذا يفقد صفته العلمية .

إن شرعية إعادة بناء الركام اللغوي العربي القديم تأتي من حقيقة أن العرب القدماء أرادوا تفسير الظاهرة اللغوية كما فسروا بقية الظواهر الإنسانية والطبيعية من أجل خدمة النص القرآني، وبمعنى أدق، من أجل خدمة المنطلق الفلسفي الإسلامي.

ومعنى هذا أننا نرى الإبقاء على نظام التقعيد القديم الموروث بحاله، وحسابه أثراً علمياً شاهداً على العصر الذي وضع فيه، ومنبثاً عن رؤية واضعيه وطرائقهم في التفكير آنذاك، وأهدافهم من صنع ما صنعوا وشغلوا أنفسهم به .

إنه موروث تاريخي ألقى إلينا به الأجداد، منتظماً لأنماط ثقافتهم وألوان حضارتهم ، وليس من الحكمة أو الصواب هدمه، أو خلخلة بنيانه بنزع بعض لبناته، أو استبدال بعضها ببعض . فذلك إن حدث ضياع لمعلم من معالم الحضارة العربية، وتشويه لهندسته وإساءة إلى تكامله .

فلننطلق إذن إلى تشييد بناء جديد لقواعد العربية، يتواءم مع ثقافتنا ورؤيتنا لحقائق اللغة، ويناسب حاجتنا الحاضرة المتجددة . أما الأولى بنا، - بل والضروري لنا - أن يركنوا إلى البناء القديم، ويقفوا على جوانبه وأبعاده، ويتعرفوا حقائقه وأسراره، تعميقاً لمعارفهم، وتأسيساً لمحاولتهم اللغوي . وفي ذلك تأكيد لمواقعهم العلمية ووصل للحاضر بالماضي ، وهو طريق راشد من طرق الحفاظ على الهوية، وسبيل من سبل الكشف عن الذات من البدء إلى النهاية .

وإنما التيسير العلمي الدقيق يكون في نظرنا بتيسير التقعيد، أي باتباع منهج جديد، من شأنه أن يتخلص من الصعوبات أو الاضطرابات التي جلبتها عوامل خارجية ليست من صلب اللغة، وإنما وقعت بالصنع لا بالطبع عوامل تلف اللغة بالمشكلات، وأهمها - في سياقنا هذا - رؤية القائمين بالتقعيد وطرائقهم في تشييد

الفصل الخامس

البناء وهندسته على وجه يجعل الانتفاع به سهلاً ميسراً للشادين أو الراغبين في الالتجاء إليه والاحتماء به .

التيسير إذن إنما يكون في التععيد لا في القواعد ، وذلك يقتضي منا رسم خطة دقيقة تقود إلى هندسة بناء للقواعد جديد . وبالوصول إلى تلك الجزئيات يتحقق على يد الباحث نتائج بقدر ما أعطاه الله من موهبة لغوية، وقدرة في المثابرة على البحث، والاستقراء الطويل وسعة الاطلاع ودقة التأمل في معنى اللغة، فيصل الباحث إلى بحث له أصالته ومكانته في العقول، وليؤدي رسالته على الوجه الأكمل .

وليس الابتكار في البحوث مقصوراً على كشف أشياء جديدة فقط، وإنما الترتيب للمادة ترتيباً جديداً مفيداً، أو الاهتداء إلى أسباب جديدة لحقائق قديمة، أو تكوين موضوع منظم من مادة متناثرة - يعد ابتكاراً .

[٣] الاستقصاء والتحليل :

للبحث اللغوي طرق مألوفة ، فالباحث إما أن يدرس شخصية نحوية ولغوية أو يتناول الجهود النحوية أو اللغوية لأحد القدامى أو المحدثين، كما أنه يمكن أن يتناول إحدى ظواهر الفكر اللغوي أو النحوي دون ارتباط الظاهرة بشخصية معينة، فيتعرض في هذه الحالة لجميع من كتبوا في هذه الظاهرة كأن يتناول دراسة الجملة عند نحاة الكوفة أو المصادر عند نحاة العربية ، أو القراءات القرآنية وخصائصها الصوتية والتركيبية بصفة عامة ، أو يتناول ظاهرة بعينها ، أو باب نحوي عند أحد النحاة ، أو عدد منهم مثل دراسة الحال في مطولات كتب النحو، أو طرق تقسيم الكلام في مختصرات كتب النحو، أو نظم قواعد النحو عند متأخري النحاة، أو أن يتناول الباحث ظاهرة صوتية أو صرفية أو تركيبية في أحد النصوص ، سواء أكانت شعراً أم نثراً أم كانت في القرآن الكريم وفي هذه الأحوال وعلى اختلاف موضوعات البحث يقوم الباحث بما يلي :

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

- ١- مطالعة ما كتب في الظاهرة قبل هذا البحث .
- ٢- حصر ما جاء في الدراسات السابقة وتلخيصه والإلمام بنتائجه .
- ٣- جمع ما كتب عن الشخصية النحوية من كتب التراجم أو الكتب التي ألقت حول المدارس النحوية، وكذلك جمع الآراء النحوية واللغوية للشخصية المدروسة إن كان البحث عن شخصية بعينها أو ظاهرة في الفكر النحوي أو اللغوي .
- ٤- إن كان البحث حول ظاهرة بعينها في نص فيجب أولاً البدء بتحليل النص وذلك باستخراج الظاهرة مع وضع ترقيم لكل نموذج والتعليق عليه أولاً بأول أو ترك فراغ لاستكمال التعليق عليه، وذكر ما قيل عن هذه الظاهرة عند السابقين والمعاصرين .
- ٥- جمع المتشابه في مواضع متقاربة ليتم بعد ذلك تصنيف الموضوع الواحد إلى عناوين فرعية ووضع كل مجموعة من المواد المحللة تحت هذا العنوان الفرعي .
- ٦- عرض المادة المحللة مع التعليق على آراء النحاة واللغويين في القديم والحديث ومقابلة هذه المادة ببعضها ، بحيث يتم إبداء الرأي أولاً بأول ومناقشة الآراء أولاً بأول واستخراج نتائج مبدئية أولاً بأول .
- ٧- بعد استكمال الإجراءات السابقة تركيب المادة مع بعضها المحلّل مع رأي الباحث مع آراء السابقين ، بحيث تصنع نسيجاً واحداً تكتنفه الوحدة ويسوده المنهج الواحد، بحيث لا يبدو أي تناقض في الظاهرة الواحدة أو في العنوان الفرعي الواحد أو في الفصل الواحد .
- ٨- النظر في جميع الفصول أو الفروع، بحيث يحدث اتساق ويبتعد التناقض أو التنافر على مستوى الفصول جميعاً أو البحث بأكمله .

الفصل الخامس

٩- محاولة صوغ المقدمة والخاتمة وإعادة النظر في النتائج من خلال الاتساق الحادث في الفصول جميعاً .

١٠- ضرورة إزالة أي تناقض أو تناقض قد يبدو بعد وضع المقدمة والخاتمة والنتائج، بحيث يكون هناك وحدة في الفكر والهدف بين المقدمة والخاتمة والنتائج من ناحية، وفصول البحث كلها وما بها من آراء من ناحية أخرى.

حين يقرأ الباحث عليه أن يطيل الوقفة عند كل ما يقرأ ، وأن يستوعب الأفكار والآراء ويعملهما، ثم يتون الخلاصة، وينصرف إلى رأي قد يعرض له فيحمله، ويتبين الحقيقة بعدما تبدي على جنباتها من تيارات عرضية قد توهمه بصحتها، فعليه ألا يمر على تلك الفكر من الكرام دون فهم أو تأمل واستقصاء، فالاستقصاء ضروري ، فقد تجر الفكرة إلى فكرة أخرى، والرأي إلى آراء، فيجب على الباحث ألا يترك نفسه في حيرة واضطراب في حكمه وتحليله واستنباطه .

ونعني بهذا الملحظ المباحث الخاصة بالتراجم عن النحاة واللغويين ، فهناك بحوث تدور حول البحوث النحوية واللغوية لبعض الشخصيات ، فقد أنجزت كثير من البحوث والرسائل في هذا الميدان، وتنشأ ملكة الباحث في القدرة على التحليل من طول انكباب الباحث على آثار القدماء والمحدثين، ولا بد أن تتكون عنده حاسة خفية تمكنه من تذوق النص تذوقاً سليماً، حيث يشعر بأنه أثر فيه بروعه . ولشخصيته وما يمتزج فيها من المشاعر تأثير واضح، ومن أجل ذلك يدخل في تذوقه غير قليل من معتقداته وأخلاقه وأفكاره، ويعمل الباحث هذه الأحاسيس، وينتقل من التذوق إلى العلل والأسباب انتقالاتاً يحل في تضاعيفه أفكار البحث وأثره تحليلاً يوضح عناصره ومدى تأثيره في النفوس .

كيفية صنع البحث اللغوي

ثانياً : الإعداد [الخطوات والمراحل] :

إن البحث العلمي يساهم كما نعرف في تقدم الأفراد والمجتمعات ، ولكنه يتطلب إمكانات مادية، وبشرية قادرة، ومقتنعة بأهميته ، ومتطلعة إلى نتائجه .

إن أهمية البحث العلمي تستوجب أيضاً توفير الظروف الزماني والمكاني المناسبين للموضوع وللباحث، لما يتطلبه البحث من تحكم، وانتباه وتركيز، وعزله علمية [خلوة علمية] .

إن اطلاع الباحث على ما يتوفر لديه من معارف وتجارب اجتماعية وطبيعية قد يثير لديه كثيراً من الاستفسارات التي تدفعه إلى البحث الجاد وتسهل أمامه مجالات الاختيار لموضوع بحثه ، سواء باختبار نتائج ودراسات سابقة، أو محاولة الإجابة على استفسارات أثارها بحوث علمية في مجالات وميادين مختلفة، وأثارت لدى الباحث أفكاراً أخرى يمكن من خلالها الإجابة عليها أو على بعض منها . ونتيجة الاطلاع العام تزيد معارف المطلعين ويتمكن البعض منهم من معرفة اكتشافات جديدة بما يقوم به من جهود علمية تثري ميادين المعرفة الإنسانية ، وكذلك حضور الندوات والمؤتمرات العلمية والاستماع إليها أو مشاهدتها مرئياً، تزود الباحث بمعلومات جديدة قد تثير لديه مواضيع تتطلب البحث والدراسة .

فمن خطوط المنهج العلمي أن يختص أي علم من العلوم بمجموعة من الظواهر يمكن تحديدها بوضوح وتمييزها عن غيرها من الظواهر التي يختص بها علم آخر، هذه الظواهر هي ميدان هذا العلم أو موضوع بحثه ، وعلم اللغة ميدانه أو موضوع بحثه اللغة وهي نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستعمله جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم ، ويعني علماء اللغة المحدثون باللغة المنطوقة، وهي العنصر الأساسي عندهم، بيد أن أغلب بحوث العربية التي أنجزت ، والتي مازالت تنجز إنما تنجز على اللغة المكتوبة الماثورة ، وذلك إما بوصف النصوص أو إعادة وصف ما وصفه النحاة واللغويون، ونحن في هذا يختلف

◆ الفصل الخامس ◆

عن مسلك علماء اللغة في الغرب ، بالرغم من قيام بعض الباحثين بالدراسة على نصوص منطوقة وهي في الحقيقة محدودة وقليلة حتى الآن .

التعامل مع المعلومات :

بعد جمع الباحث للمعلومات التي تتصل ببحثه اتصالاً وثيقاً يجب أن تكون قراءته واعية فيدرك الأخطاء المطبعية التي تشكل الفهم أحياناً ويوازن أو يقارن، وينتقي أجود الثمار من الكتب التي قرأها ويسجلها بإحدى الطريقتين الآتيتين :

[أ] إعداد البطاقات :

يبدأ الباحث في قراءة المصادر والمراجع التي لها صلة بموضوعه، فيأخذ كل ما يهم موضوعه، ويدون مادته في بطاقات بصورة منظمة، فكل بطاقة تختص بجزء من باب من أبواب البحث أو فصل من فصوله، وبعد الانتهاء من تلك المرحلة تبدأ مرحلة الفرز والتوزيع على الأبواب والفصول بدقة متناهية، ويكتب عليها عنوان الفصل أو الباب .

[ب] طريقة الملفات [الدوسيه] :

ويمكن للباحث أن يستعمل طريقة أخرى تساعده على جمع المعلومات ومراجعتها، وهي تسجيل المعلومات في أوراق توضع في دوسيه خاص بكل باب، وهذا يسهل على الباحث قيامه بكتابة موضوعه بعد أن توفرت المعلومات عنه .

ومن السهل على الباحث أن يعيد ترتيب أوراق الدوسيه، كما أنه من السهل أيضاً أن يستغني عن بعضها أو أن يضيف إليها أوراقاً جديدة في أماكنها المناسبة.

كيفية صنع البحث اللغوي

كتابة البحث :

إن مرحلة الكتابة على جانب كبير من الأهمية، وفيها مشقة بالغة؛ لأن الباحث يتحير ويتردد فيما جمع من معلومات أيها يكتب ، أيها يترك، حيث يصعب كتابتها كلها في بحثه، ومما يزيد من حيرة الباحث كون بحثه قد سبقه إليه غيره، وهنا عليه أن يختار الطريف والمفيد، فيتبلور الموضوع أمام عينيه ويتضح .

وأثناء كتابة البحث يراعي الباحث النصوص التي نقلها ، فله أن يدلي برأي فيها، على أن يكون مؤيداً بالحجج والبراهين التي لا وهن فيها ولا إيهام، وهو مسئول عن كل ما يدونه في بحثه، فلا ينقل عن شخص مستسلماً لأرائه، دون أن يبرز شخصيته، مهما كانت مكانة الشخص العلمية - وذلك على أساس علمي سليم - ولكن بأدب وخلق؛ لأن الخلق الكريم والترفع عن الهجوم الدنيء، والالتزام بذلك سباج قوي للبحث ، يصدُ فيصد عن الباحث الطامعين فيه فلا يغيروهم به .

وعلى الباحث أن يعني بدقة الاقتباس من المصادر الأصلية المؤتمنة، وبدقة النقل والتألف بين المقتبس وما قبله من الكلام، شريطة ألا تغطي كثرة الاقتباس على شخصية الباحث، ويمكن له أن يقدم لكل باب أو فصل بمقدمة موجزة تستوعب أفكار الباب أو الفصل، ويجب أن يكون واضحاً في عرض ما توصل إليه، ويتجنب الإيجاز المخل، ويحذر الحشو والتطويل، فهذا يفسد تماسك الموضوع ويذهب بروقه .

ومما هو جدير بالذكر الاهتمام بالقواعد اللغوية والإملائية، فلا يجمل به أن يقع في أخطاء من هذا القبيل، ويستحسن الخط الجميل في أسطر منظمة بينها فواصل لتسهيل القراءة ويعتني بتدوين كل فكرة في فقرة جديدة ليكون ذلك تنبيهاً للقارئ، ويدل على أن كاتب البحث يتمتع بعقلية علمية ناضجة ومنظمة، وقد يستعين إذ ذاك بوضع سهم يشير إلى موضع الزيادة التي مثلت أمام عينيه أو يكتب على ورقة مستقلة وتوضع في أسفل الورقة الرئيسة مع إشارة تدل على ذلك، أو يعمد إلى كتابة الورقة كلها من جديد، فذلك خير من الهوامش الكثيرة .

الفصل الخامس

ومما هو جدير بالذكر عليه أن يتخذ خطوات مهمة في كتابته لبحثه وترتيبه وهي:

[أ] **الترقيم:** وهذا ركن أساسي في تنظيم البحث وترتيبه، وتوضع أرقام مستقلة لكل صفحة على حدة تبدأ برقم [١] ، وتوضع في أسفل كل صفحة هوامشها، ويوضع رقم مسلسل متصل للبحث كله ويبدأ برقم [١] ويستمر إلى نهاية البحث، وأحياناً يبدأ الباحث برقم [١] إلى نهاية كل باب أو فصل على حدة ، وهذا يتوقف على طبيعة أفكار أبواب بحثه، وهذا مهم، لما يتوقف عليه الفهم في بعض الأحيان، خاصة في عصرنا الحديث الذي تميز بالرغبة في سرعة الانتهاء من قراءة الكتاب أو البحث ، والرغبة أيضاً في استقلالية الأفكار التي يحتويها البحث، وإن كانت متصلة بالموضوع إلا أنها تبرز جانباً مضيئاً يعتمد عليه القارئ في فهم ركن من أركان الموضوع، ويراعي في الهوامش أيضاً الإيضاحات التي قد ترد في صلب الرسالة؛ لأنها غير أساسية فيها ، وتوجيه الباحث للقارئ إلى مكان في المؤلف قد وضحت فيه نقطة ما، أو جاءت فيه تفاصيل عنها .

[ب] **الفهارس:** أما الفهارس فهي دليل محتويات الموضوع الذي تخيره الباحث ودرسه إلى أن وصل إلى نتائجه ، وهي خاتمته ، وسجل مصادره ومراجعته، ثم أتى بإثبات ذلك في فهرس يحتوي على رقم الصفحة والصفحات التي يحتويها الموضوع، والفهارس مختلفة الأنواع، وترتب على النحو التالي: فهناك فهرس للآيات القرآنية الكريمة، ثم الأحاديث النبوية الشريفة، ثم الأمثال ، ثم القوافي، ثم فهرس الأعلام، ثم فهرس المدن والأماكن والأنهار، وفهرس القبائل، والأحداث والسنين، والمصادر والمراجع، وقد لا يحتاج كل بحث إلى كل هذه الأنواع من الفهارس .

المصادر والمراجع :

من الأمانة العلمية أن يشير الباحث إلى المصادر التي استعان بها في بحثه ويتم هذا بطريقة من الطرق الآتية :

- ١- الإشارة إلى المصادر في الهوامش السفلى أولاً بأول في صفحات البحث المختلفة، ويمكن وضع قائمة بمصادر كل فصل أو جزء في نهايته .
- ٢- وضع قائمة واحدة بالمصادر في نهاية البحث، وهذه هي الطريقة المألوفة والمتبعة، وهذه المصادر تساعد القارئ الذي يريد أن يتوسع أو أن يقرأ كتاباً أعجبه منها ^(١)، وعلى الباحث أن يسجلها على حسب الترتيب الهجائي .

جمع المادة وكتابة البحث :

وتلك مرحلة تالية لخطوات المرحلة السالفة وهي القراءة المستفيضة ، حيث يقوم الباحث بتكوين كل ما يخدم موضوع بحثه من مادة علمية نقلاً من بطون المصادر والمراجع ، وفي ضوء قراءاته السابقة وتصوره لأبعاد موضوع البحث وجوانبه .

وتعد طريقة البطاقات هي الطريقة المثلى في جمع المادة العلمية للبحث، حيث يسهل ترتيبها وتبويبها، فضلاً عن أن الباحث يمكن أن يستفيد ببعضها في بحوثه المستقبلية . وتصنع البطاقات غالباً من الورق المقوى، وحجم البطاقة هو ١٠ × ١٤ سم تقريباً ، ويلزم أن تكون متساوية الحجم، وتدوّن الكتابة على وجه واحد منها، ويستحسن أن يوضع عنوان لكل اقتباس ليدل على ما ورد في البطاقة من معلومات ، ويكتب في أسفل البطاقة اسم المصدر الذي استمدت منه المادة، وكذلك اسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة، مثبتاً مكان طبع الكتاب وتاريخه والناشر كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

(١) انظر: د/ حمزة الدمرداش زغلول : في المكتبة العربية ص ١٧ ، ١٨ ، ط ١ ، ١٩٨٠م ، دار الطباعة المحمدية .

الفصل الخامس

وعلى الباحث أن يكتب في كل بطاقة اقتباساً واحداً فقط، كما أن عليه أن يجمع من المادة كل ما يتصل بموضوعه من قريب أو بعيد وعندما ينتهي الباحث من قراءة المراجع التي أعدها ، ومن جمع المادة اللازمة في البطاقات يبدأ فرزها وتوزيعها وفقاً للتبويب الذي قام به من قبل. ومن المستحسن أن توضع من أول الأمر البطاقات الخاصة بكل باب من أبواب البحث في ظرف خاص متين كبير الحجم، يكتب عليه عنوان الباب (١).

فإذا انتهى الباحث من قراءة المراجع، ومن جمع المادة، وتصنيف البطاقات ، فليدرك أنه انتهى من مرحلة يستطيع كثيرون أن يقوموا بها دون تفاوت يذكر، وأنه ابتداء مرحلة جديدة يبرز فيها التفاوت بوضوح كبيراً، وتظهر فيها شخصية الباحث ظهوراً واضحاً، وتلك هي مرحلة الاختيار من المادة المجموعة، وترتيب ما اختير، ثم كتابته، وتلك مرحلة شاقة لا ريب؛ إذ إن الباحث سيجد من غير الممكن ومن غير المرغوب فيه إثبات جميع ما جمع، وبخاصة إذا كان موضوعه مطروحاً كثرت الأبحاث فيه، فعلى الباحث حينئذ أن يظهر مقدرته في تقدير المادة التي جمعها ليتمكن من الاختيار منه، فعملية الاختيار أو قل التصفية تتوقف قبل كل شيء على مقدرة الباحث على تقويم بضاعته ومادته ليأخذ بعضها ويدع بعضها الآخر .

وبطبيعة الحال سيدخل في تقويم المادة طرافتها وعدم ذيوعتها، ودقة المرجع الذي أخذت منه، وقبل كل شيء فائدتها لموضوع البحث .

وعملية الاختيار أو التصفية تستلزم أن يضع الباحث أمامه البطاقات التي بها مادة عن القسم الذي يريد كتابته، ويقوم بقراءتها ثانية، وبالتفكير فيما احتوته، ثم يختار منها ، ويكون رأياً يناسب في تسطيره تبعاً لخطة ارتسمها ولترتيب اقترحه، ويجب كذلك أن تبرز شخصية الباحث في مقارنة النصوص بعضها ببعض، وأن يبدي رأيه

(١) د/ أحمد شلبي : كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ ص ٧٥ ، ٧٦ [بتصرف] .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

بين الحين والحين ليدل على حسن تفهمه لما أمامه من معلومات، وعلى أنه مؤثر فيها، متأثراً بها. وحذار أن يكون متأثراً بها فحسب، فهو إذا ناقل وليس بباحث ناقد خبير^(١). وتعتمد هذه المرحلة على ذاكرة الباحث وحافظته، غير أن هناك بحوثاً تطبيقية لا يكون الاعتماد فيها غالباً على المادة المجموعة، وإنما تعتمد على قدرة الباحث التحليلية واستكمالها لأدوات التحليل.

الخطوة :

وتمر هذه المرحلة بخطوات^(٢):

- [أ] التعرف على نماذج من التخطيط لموضوعات قريبة الشبه بموضوع البحث .
- [ب] القراءة حول موضوع البحث للتعرف عليه والتعمق فيه دون تفيد بشيء .
- [ج] اقتراح تخطيط للبحث في ضوء النقطتين السابقتين، بحيث يستطيع الباحث أن يضع الخطوط العريضة الأولية لدراسته، ويشمل ذلك :
 - ١- وضع عنوان للمشكلة موضوع البحث .
 - ٢- بيان المشكلات الرئيسية التي تتفرع عن هذه المشكلة، وكل مشكلة من هذه المشكلات الرئيسية المتفرعة تسمى باباً .
 - ٣- تقسم كل مشكلة من هذه المشكلات الرئيسية إلى مشكلات فرعية، كل منها يسمى فصلاً .

"وينبغي للباحث بعد قراءته، وإطلاعه الواسع المتعدد أن يفهم ويستوعب ما قرأ ولا بد له من الغوص وراء الأفكار والآراء التي وقف عليها في قراءته، والتي قيل بها إزاء موضوع البحث، وأن يركز على القضايا والنقاط التي يود إبرازها في بحثه،

(١) كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ ص ٨٣ - ٨٥ .

(٢) كيف تكتب بحثاً أو رسالة . ص ٤٣ - ٤٥ ، [بتصرف] .

الفصل الخامس

ثم يقوم بعد ذلك بتصوير كامل للموضوع، حتى يتم له التعرف على أبعاده وجوانبه ليرى من خلال ذلك كله موقفه من الآراء السابقة، مستعيناً في ذلك بالبحوث الجديدة، وآراء المحدثين^(١).

وفي هذه المرحلة يقوم الباحث بتقسيم المعلومات التي حصل عليها، وتصنيفها في قوائم ثلاث تسمى بـ :

- ١- قائمة الحضور، وهي تضم كل الخصائص التي توجد بوجود الظاهرة.
 - ٢- قائمة الغياب، وهي تضم كل الخصائص التي تغيب بوجود الظاهرة.
 - ٣- قائمة المقارنة، ويقارن فيها بين القائمتين السابقتين .
- ولاشك أن الغرض في ذلك هو تحديد الخواص الذاتية للظاهرة، واستبعاد الخواص العرضية أو الزائلة، أو التي توهمنا أنها ثابتة .

تماسك البحث وتربط أجزائه :

وإذا عرفنا أن البحث بناء متماسك متكامل الأجزاء، أدركنا أي خلل يصيب البحث إذا كان بناؤه مفكك الأواصر متفاوت الأجزاء، ويعزي هذا الخلل عادة إلى سببين رئيسيين: أولهما سوء تخطيط البحث، والآخر ضعف النظرة الشاملة التي تتمثل "بناء البحث" كما يتمثل كل منا صورة كائن حي سوى الخلق مترابط الأعضاء متماسك الأجزاء يعرف أهدافه جيداً أو يسعى إليها، ويؤدي وظائفه الحيوية أداء سليماً.

أما تخطيط البحث، أو خطته، أو هيكله، أو تصميمه، فهو عمل يتوقف على حد بعيد على مدى خبرة الباحث وإطلاعه وقدرته على التنظيم والتنسيق، وتخطيط البحث اللغوي المطول، وإن اختلفت بعض تفاصيله ومصطلحاته، يجري عادة على تقسيمات تضم الأجزاء الرئيسة للبحث، فيبدأ بالمقدمة فالتمهيد، فالأبواب وفصولها -

(١) د/ يحيى محمود علي الجندي : أضواء على بعض أعلام اللغة وقضاياها : ص ٤، القاهرة

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

أو الفصول وحدها - فخاتمة البحث ، فالفهارس . وقد تضاف إلى هذه الأجزاء بعد استيفائها بعض الملاحق والإيضاحات ، ولكل جزء من هذه الأجزاء وظيفة يؤديها في البحث :

[أ] **المقدمة** preface وظيفتها بيان انطباعات الباحث المتعلقة ببحثه، وما لقيه من صعوبة في سبيل جمع مادته وبناء بحثه، والتتويه بمن عاونوه على تذليل صعابه والإشراف على بحثه .

[ب] **والتمهيد** Introduction وظيفته التعريف بالمبادئ العامة التي تتعلق بالبحث كأن يشرح الباحث - أهدافه ، ويصف المنهج الذي اختاره لبحثه . ويوضح الأفكار الرئيسة التي يتناولها بالتفصيل في أبوابه وفصوله .

وقد يجمع الباحث المقدمة والتمهيد معاً في عنوان واحد، وفي كلتا الحالتين يراعي الباحث ألا يتجاوز في كتابتهما نسبة العشرة في المائة من مجموع صفحات البحث .

[ج] **الأبواب والفصول** ، أو الفصول وحدها، وهي لب البحث وصميمه والباب يشمل عدداً من الفصول، ولكل باب عنوان يخصه، وكذلك لكل فصل، وعنوان الباب أشمل وأعم من عناوين فصوله . وقد يستغني الباحث عن الأبواب ويقتصر على الفصول وحدها، فيرتب البحث على فصول متناسبة الكم والكيف، تنطق عناوينها بالترابط الوثيق بين جوانب الموضوع والتكامل بين أجزائه، ويحمل ترتيبها أرقاماً متسلسلة تبدأ بالفصل الأول، فالثاني، فالثالث إلى آخر البحث .

[د] **خاتمة البحث** Conclusion & Abstract : ووظيفتها إبراز النتائج الكبرى للبحث واستخلاصها من النتائج الصغرى المتفرقة على فصول البحث ، فهي تلم شتات هذه النتائج وتصوغها في معانٍ كلية : ولا بد أن تكون هذه النتائج الكبرى مرآة صادقة تعكس ما ورد في تمهيد البحث من الأهداف التي دسمها

الفصل الخامس

الباحث لبحثه، فالنتائج الكبرى للبحث هي في حقيقة الأمر ثمرة أهدافه، أو هي ترجمة لها .

[هـ] **الفهارس Indexes** : وهي عامة وتفصيلية، وقد يكتفي الباحث بالفهرست العام الذي يضم كشافاً لمحتويات البحث ويرشد إلى صفحاتها .

[و] **ثبت المصادر والمراجع** : وهو قائمة بعناوين المصادر والمراجع التي استعان بها الباحث، توضع في آخر البحث، ويراعى ترتيبها على حروف المعجم ووصف كل منها وصفاً كاملاً، فيذكر عنوان المصدر أو المرجع، واسم مؤلفه وتاريخ الطبعة ومكانها إن كان مطبوعاً أو الرقم الذي يحدد مكان المخطوط، أو صدور المجلة العلمية ونحوها .

[ز] **إضافات وملاحق** : قد يضيفها الباحث بقصد توضيح بعض ما ورد في فصول بحثه، أو تعزيزه بالشواهد، وتقضي لوائح جامعاتنا بأن يقدم طالب الماجستير أو الدكتوراة، بالإضافة إلى عدد من نسخ البحث ، عدداً من الخلاصات يكتبها الباحث في حدود ما نصت عليها اللوائح، ويقدمها للجهة الرسمية ، ومنها خلاصة للبحث في لغة أوربية .

هذا نمط مألوف في تخطيط البحث اللغوي أو الأدبي وتقسيم قطاعاته وجوانبه، ولكن قد يتعرض الباحث المبتدئ للزال في رسم خطته، حين يهمل - مثلاً - بعض القطاعات الرئيسية في الخطة، أو يضيف إليها موضوعاً قد يوقعه في مزلق الحشو والاستطراد، أو يسيء فهم الوظيفة التي يؤديها كل قطاع من قطاعات الخطة، فيقع في مزلق التكرار وينحرف عن الطريق المؤدي إلى تحقيق أهداف البحث .

أما سبب ضعف النظرة الشمولية في تمثل بناء البحث، فهو بطبيعة الحال وثيق الصلة بالسبب الأول، فهو يحتاج من الباحث إلى تدريب ومران على نظرة نقدية فاحصة تتمثل موضوع البحث في أثناء إعداده ، وفي كل خطوة يخطوها في رسم

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

الخطوة وفي تناول قضاياها وتفاصيله ، كما يتمثل الناقد الذواق لوحة فنية بديعة الصنع متكاملة الأجزاء، أو صورة حية سوية البناء ، نظرة أشبه بنظرة الناقد الفنان الذي يتمثل ببناء القصيدة في الشعر الحديث، على أساس وحدة عضوية متكاملة، تعبر في جملتها وتفاصيلها عن تجربة واحدة ، ومن هذه الناحية يلتقي في بناء البحث بفن بناء القصيدة أو اللوحة الفنية .

ولقد أدرك علماء المناهج هذه الناحية في بناء البحوث العلمية بصفة عامة، فقرروا أنه لا غنى للباحث في شتى العلوم عن حظ من الموهبة الفنية، فهي ذات أثر عظيم في توجيه البحث العلمي ورسم مخططاته، وابتدعوا لهذه الموهبة اصطلاح " الذوق العلمي " في مقابل الذوق الفني، ووصفوه بأنه نوع من الإحساس بالجمال^(١).

ويسبدو أن الذوق العلمي يتدخل في كل خطوات البحث، فيفطن الباحث بحاسته المرهفة إلى ما فيه من عيوب ومحاسن، وفي ضوء هذه الموهبة يهتدي الباحث إلى الفكرة المثمرة، والصورة المتكاملة للخطوة ، بل يدرك الفرق بين علاقة المجاورة بين كلام وكلام، وعلاقة الارتباط العضوي بين أجزاء الواحد وقطاعاته . فالذوق العلمي لا يسيغ أن يسمى مجموعة من المقالات المتجاورة في كتاب واحد بحثاً؛ لأن علاقة المجاورة بين مقال ومقال في هذه الحالة علاقة مصطنعة لا تقوم على خطة متماسكة متكاملة، ولا تمنع أن يكون بين المقال والمقال من التباين والتنافر ، ما يكون بين مقالات متفرقة تباعدت أهدافها، واختلفت ظروفها ومناسباتها التي أحاطت بكتابتها وإعدادها .

إن العلاقة بين مقدمات البحث وأبوابه وفصوله وفقراته، كالعلاقة بين أعضاء الجسد الواحد، ولو فرضنا جدلاً أن العلاقة التي تربط بين أعضاء البدن الواحد هي مجرد المجاورة والمزاملة لاستحالة أعضاء البدن إلى مجرد أشلاء ممزقة عاجزة عن

(١) و.أ.ب. بفردج : فن البحث العلمي ، ترجمة زكريا فهمي ، ص ١٣٣ ، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد ، ط القاهرة ١٩٦٣ م .

الفصل الخامس

إقامة حياة أو حركة لصاحبها ، بل إن الذوق العلمي يمتد أثره إلى أسلوب الباحث في كتابة بحثه وفي اختيار الكلمات وتكوين الجمل ، وإلى الملاحظات العلمية التي يبيدها وإلى الاتجاهات الفكرية اللامعة التي يستجيبها، بالإضافة إلى الحس اليقظ الذي يحرص على إحكام العلاقات والكشف عن خفايا الثغرات التي تعيب البحث وتخطيطه في النظر والتطبيق، وهو في هذا يشبه عمل الفنان المدرب الذي يفتن إلى مواطن العيوب فينبه عليها، فهو ينفر من الصوت النشاز بين النغم المتناسق، ومن الموضع المشوه في صورة تمثال^(١).

وعلى الرغم من أن الذوق العلمي موهبة توجد في الناس بدرجات متفاوتة ، شأنه في ذلك شأن أي ذوق آخر، فإن من الممكن - أيضاً - تنمية هذا الذوق بالتدريب على تقدير العلم ... ولا يتحلى بالذوق العلمي إلا من يتصف بحب أصيل للعلم .

والواقع أننا نستمد ذوقنا من مجموع ما تعلمناه من الآخرين، وما خبرناه وما فكرنا فيه^(٢). ويتحدث باحث آخر عن بناء البحث الأدبي وما ينبغي له من تسلسل منطقي محكم، فيعبر عن شيء يشبه هذا الذوق العلمي، ويبيده فيه رأياً آخر، فيقول : "ينبغي أن يستقر في أذهان الباحثين الناشئين أنهم يتعاملون في كلامهم مع علاقات منطقية محكمة . فالكلام لا يلقى عفواً ولا يسرد سرداً بدون إحكام علاقاته المنطقية بما قبله وبما بعده .. ولا يظن القارئ أن هذا شيء سهل، فكثير من البحوث الأدبية ينقصه التسلسل المنطقي المحكم ، حتى ليظن الإنسان كأنما هو هبة لا يؤتاها إلا الأكلون، والواقع أنه ليس هبة ، وإنما هو كدح وعناء أن يحدد الإنسان نفسه إزاء ما يبحثه وأن يتحول به إلى ما يشبه تجارب علمية قديمة، تجارب بالمعنى الدقيق، فهو لا يكتب - بعد جمعه لمادته - كل ما يطوف به، إنما يكتب ما يستحيل إلى تجارب متعاقبة ،

(١) انظر د/ عبد المجيد عابدين : مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق النصوص ، ص

٨، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم، ١٩٨٣ م .

(٢) بفردج: فن البحث العلمي ص ١٣٤ .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

تجارب تسودها العلاقات المنطقية، بحيث تصبح مقدمات ونتائج مرئية، وبحيث يصبح البحث وكأنه خيط ممتد لا عقد فيه ولا نشاز^(١).

والخطة هي ترتيب الباحث لأفكار موضوعه في أبواب وفصول تشمله، وتظهر شخصية الباحث فيها، وهي تبرز شخصية الباحث، وتوضح الموضوع، ويلزم ترتيب موادها وفقاً لأهميتها للموضوع، وتخضع أبوابها وفصولها في تنظيمها لأساس سليم، وفكرة منظمة، وينبغي أن يجمع كل باب عدداً من الفصول، وكل فصل يقسم إلى أجزاء، ويستقل كل جزء بمادته العلمية حتى تتضح حدوده وتظهر معالمه، ويهتم بالرباط الذي يربط بين الأجزاء ومحتوياتها بأن يكون بيكناً واضحاً، بحيث لا يشعر القارئ بانفصال جزء عن آخر وعدم ترابط بين الأفكار.

وليس هناك ما يمنع الباحث من التغير والتبديل في الخطة، والخطة المبتكرة تتطلب الجهد والمثابرة؛ لأنها يجب أن تأتي مناسبة ومقبولة وصحيحة، فهي الأساس الذي يقوم عليه البحث وفيها يظهر علم الباحث وتركيزه وقوة بصيرته في فهم موضوع البحث.

وإطالة لبحث بإسراف قد يعرضه للفشل، وذلك لعدم التركيز والتنسيق، لكثرة التفاصيل التي لا تدعو إليها الحاجة، وهذا يتطلب من الباحث أن يتقيد بمقدمة وتمهيد، ثم عرض للأبواب الخاصة بالموضوع المدروس، فالخاتمة، وأخيراً المصادر والمراجع وبعد ذلك الفهارس.

وفي حديث الباحث عن التمهيد، فإنه يختلف باختلاف الموضوعات، أما في حديث الباحث عن أبواب الموضوع، فهي ترتب وفقاً لما يقتضيه تنسيق البحث، فالأول ويليه الباب الثاني فالثالث وهكذا، وكل باب يضم فصولاً وفقاً لما تقتضيه جزئيات البحث، وكل فصل يعالج ناحية بذاتها إلى أن تتكامل جزئيات الموضوع حتى يصل إلى الخاتمة، ففيها تلخيص وبيان لما وصل إليه الباحث من جديد في موضوعه.

(١) د/ شوقي ضيف: البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، دار المعارف ١٩٧٢م، ص ٢٧، ٢٨.

الفصل الخامس

تنسيق مواد البحث وترابطها :

بعد جمع الباحث لمادة بحثه يجب أن يرتبها وينسّقها ، ويضعها في فصول منظمة، بحيث لا يدخل حشواً، ولا يحشر كل ما جمعه من مادة لشعوره بالتعب والجهد الكبير الذي بذله في جمعها؛ لأن ذلك يجعل البحث مكتظاً وفيه الكثير من الحشو المخل، وعليه أن يوازن ويختار ما يقوم البحث، ويجعله سليماً بدون حشو أو تطويل، وأن يضع مادته التي اختارها في أبواب وفصول مترابطة، وكأن البحث حلقات في سلسلة منتظمة بحيث تصبح كل فكرة جزءاً من البناء المتكامل في موضوع البحث، ويجب أن يراعي الكلام الذي ينسج به بحثه ، بحيث لا يلقى عفواً، بل يراعي فصاحة الكلمة وخلوها مما يشوبها من عيوب الفصاحة، ويتعد عن الغموض والخطأ اللغوي والغرابة والتعقيد المعنوي أو اللفظي، فحديثه عن البلاغة يجعله أولى الباحثين في مراعاة ذلك، ولا بد للباحث أن تتوفر له المقدرة على دقة عرض بحثه، فتكون للبحث مقدمته ثم التمهيد، ثم الموضوع، فالنتائج أو الخاتمة، وكل هذا يتم بالوضوح، وعلى الباحث أن يتحرى الدقة في اختيار العناوين التي تتلاءم معها الأفكار .

ومجمل القول أن البحث المتكامل هو الذي يستوعب فيه الباحث مادته، ويحيط بها وينسّقها تنسيقاً جيداً وجديداً، مع مراعاة الأداء الجيد الذي يتم بمعرفة دلالات الألفاظ التي يجب أن يستعملها بدقة مع سهولة في الأسلوب ، وعذوبة في العبارات التي تؤدي إلى الأفكار ، متوخياً الإفصاح والبيان، معرضاً عن التكلف والتعقيد، ولا بد للباحث من المقدرة على النقد، مما يوجب عليه الاستيعاب الجيد لقواعد اللغة والنحو، هذا إلى جانب الملكات الخصبة لذلك، ومما هو ضروري في صياغة البحث وحسن أدائه عدم التكلف في الأسلوب، فلا يستعمل السجع إلا ما جاء عفواً، ولا يعتمد إيجاد الصور البيانية إلا بما ناسب الموضوع ويتحاشى ما يجره منها إلى أخيلة معقدة، وحتى لا تؤدي به إلى استخدام صور محفوظة تكون في غير موضعها فتصبح ممجوجة .

◆ كيفية صنع البحث اللغوي ◆

ومن أهم ما يميز الباحث عن غيره مقدرة على جذب انتباه القارئ وتشويقه، بحيث يقبل على القراءة إقبالاً ، ويساعده في ذلك براعة استهلال موضوعه، مع حسن تخلصه من فكرة إلى أخرى حتى ينتهي به المقام إلى حسن الانتهاء .

جمع الحقائق :

المقصود بها الملاحظات، وهي المادة الأولى للبحث العلمي، وأساس الاستقراء، ومن المعروف أن لكل ظاهرة تاريخاً يمكن متابعته في أحواله المختلفة والوسيلة لذلك إنما هي الملاحظة والتجربة، فيقوم الباحث بتسجيل كل ما وقعت عليه حواسه .
لا قيمة للمعلومات والبيانات إذا لم تحلل وتفسر وفق منهج علمي واضح؛ لأن تكديس المعلومات بدون تحليلها لا يحقق نتائج تجيب على الاستفسارات أو الفروض، بل إذا اقتصر على ذلك يعد تضيقاً للوقت والجهد .

ولكي لا يضيع جهد الباحث هباءً منثوراً عليه أن يحلل المعلومات والبيانات التي جمعها وتحصل عليها من مصادرهما ومراجعتها ، وحسب ظرفها الزمني والمكاني الذي تأثرت به دون عاطفة شخصية، أي ينبغي أن تحلل المعلومات وفق معطياتها وعلل وجودها ، لا أن تحلل بمعطيات خارجة عنها ، وذلك من أجل أن ينصب التحليل على الموضوع لا على ما هو خارج عنه، وعند تحليل المعلومات ينبغي ربط المتغيرات ذات العلاقة بالظاهرة مباشرة، والتركيز عليها ، وتبيان المستقل منها والتابع وعلاقتها بالمتغير المتداخل أو الدخيل عليهما، وتبيان آثار كل منها سواء كانت إيجابية أو سلبية، وسواء كانت أساسية أو ثانوية .

إن التحليل العلمي لا يخضع للمزاج الشخصي، بل يخضع للأحكام والقوانين العامة ، والنظريات ، ويتعلق بالموضوع .

يعد التحليل عملية عقلية يستند على معطيات [معلومات] ويؤدي إلى نتائج قد تكون معالجات أو مقترحات علمية وقائية . ويهتم التحليل بمعرفة طبيعة المشكلة، والعوامل المؤثرة فيها، سلباً أو إيجاباً، مما يجعله المقدمة العلمية التي تؤسس عليها

الفصل الخامس

التفسيرات الموضوعية للعوامل المستقلة والمتداخلة أو التابعة، ويعد التحليل حلقة وصل بين مرحلة تجميع المعلومات والبيانات، وبين مرحلة الوصول إلى النتائج ، مما يجعل النتائج مرتبطة بالمعلومات وكامنة فيها .

التصنيف :

تصنيف أية مجموعة من الأشياء معناه وضعها في أصناف مرتبة على أساس خاص، بحيث يسهل معرفتها وتمييز أفرادها وأصنافها ويسهل الانتفاع بها، ونحن نلجأ إلى التصنيف في حياتنا العملية كلما دعت الضرورة إليه . وهذا التصنيف يصلح في القرآن بتصنيفه إلى مفرد وجمع أو صيغ أفعال أو جمل اسمية أو فعلية .

يعد تصنيف المعلومات والبيانات القاعدة الأساسية التي تمكن الباحث من التحليل العلمي المنظم، ويعد المرآة التي تظهر القيم التي انتظمت المعلومات فيها أمام الباحث المحلل، أو المشخص لها . ويراعى في التصنيف الظرف الزماني ، والظرف المكاني، والكيف، والكم، وفقاً للموضوع والبيانات المتحصل عليها منه .

يتضمن التصنيف العلمي نوع الأسئلة المفتوحة، والمقفلة ، والأسئلة المفتوحة المقفلة ، والأسئلة محدودة الإجابة، وذلك بعرض كل القيم التي يحتوي عليها كل سؤال وحسب المتغير الذي يتضمنه . ويتم تصنيف المعلومات والبيانات دون تداخل أو التباس بين قيمها المتعددة .

وهكذا يصنف الكل مع الكل، والجزء مع الجزء، والمتجزئ مع المتجزئ؛ لأن المقصود من عملية التصنيف هو ترتيب المعلومات والبيانات، وتقسيمها إلى فئات بحيث توضع القيم المتشابهة في فئة واحدة، ولذلك يعد التصنيف مرحلة فرز المعلومات والبيانات وعرضها للتحليل العلمي .

إن المعلومات ، والبيانات التي تم تجميعها قد تكون كثيرة ومتداخلة، مما يجعل صعوبة في تبيان العلاقات بين المتغيرات التي كانت وراء ظهورها أو وجودها، وهذا

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

يتطلب من الباحث أن يصنفها ويؤوبها، من أجل تبيانها بكل دقة ووضوح، ومن أجل تسهيل عملية تحليلها من بعد .

ويتم تصنيف المعلومات والبيانات حسب المتغيرات الرئيسة ، والقيم المشتركة في الخصائص، والصفات، للتمييز بينها ، من أجل إبراز أثر كل متغير على الظاهرة أو الموضوع، وعرضها دون التباس أو تداخل . ولذلك فالتصنيف يساعد على تبيان المعلومات المتماثلة، والمعلومات غير المتماثلة عن طريق توحيد المتماثل، وتفريق غير المتماثل، وتصنيفه حسب الخصائص ، والصفات التي يتميز بها كل متغير أو عنصر .

وبما أن تصنيف المعلومات وفق المتغيرات التي تشتمل الدراسة عليها، إذن من الضرورة مراعاة قيم المتغيرات في التصنيف، وبما أن التصنيف وفقاً للخصائص والصفات ، إذن التحليل يكون بينها وبين آثارها .

وهذا الإجراء غاية في الأهمية ؛ لأنه يعين الباحث على تعديل الخطأ وفقاً للمتغيرات؛ لأن الخطأ غالباً ما تكون مفترضة؛ لأن الطالب العربي يهتم دائماً بالتسجيل واهتمامه بالتسجيل يفوق كل اهتمام .

والتصنيف العلمي مهمته وضع الأشياء في نظام واحد يميز بعضها عن بعض، ويوضح الصلة بين أنواعها ووجوه الاختلاف بينها ، فعالم الأصوات يختص بالأصوات، وعالم النحو يختص بفروع النحو، وعالم اللغة يهتم بمستويات التحليل جميعاً دون الإغراق في مسائل النحو .

الفصل الخامس

عرض المعلومات والبيانات :

بعد أن تصنف المعلومات والبيانات تسهل عملية عرضها بشكل يسهل على الباحث تحليلها، وإجراء المقارنات بينها، واستخلاص النتائج منها، وتيسر للقارئ إمكانية الاطلاع عليها بدون ملل، نتيجة عرضها في صور مركزة، ومختصرة وواضحة، وتعرض المعلومات بطرق مختلفة من باحث لآخر وفق الآتي :

[١] عرض المعلومات إنشائياً : تصنف المعلومات وتعرض بصيغة تبين أو تظهر العلاقات بين المتغيرات، والصفات ، والخصائص، ويتم التعبير اللفظي عنها سواء كانت المعلومات والبيانات كمية ، أو كيفية .

[٢] عرض المعلومات والبيانات في جداول : خاصة إذا كانت الدراسة أو البحث يحتوي على أرقام تعبر عن قيم متعددة، ويكون كل عمود خاصاً بقيم المتغير أو العامل، ولكل من هذه العوامل قيم تتعدد وفقاً لتصنيف الباحث لها، ووفقاً لتصنيفه لها يتم عرضها في جداول، تختصر للقارئ الزمن الذي قد يستغرقه أكثر لو أنها لم تعرض في شكل علمي يبين قيمها الدالة عليها .

[٣] عرض البيانات والمعلومات بيانياً : تعد الرسوم البيانية وسائل إيضاح مهمة في تبين وتوضيح المعلومات والبيانات بشكل علمي تسهل على القارئ والباحث المقارن الإلمام بالمعلومات والبيانات، وتأخذ أشكالاً متعددة منها المنحنيات ، والأعمدة ، والدوائر .

[٤] عرض المعلومات والبيانات بأكثر من طريقة : كلما زاد اهتمام الباحث بالموضوع، وكلما كانت قدراته العلمية، والفنية مستهدفة التوضيح الدقيق من خلال العرض العلمي، بعدة طرق مختلفة، كيفاً وكماً ، كأن تعرض إنشائياً، وبيانياً، وفي جداول إحصائية .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

أساس التصنيف :

ويعتمد التصنيف كما يعتمد التقسيم على أساس يختاره المصنف لغرض من الأغراض، ولا حدّ لعدد الأسس التي يمكن أن يصنف الإنسان أية مجموعة من الأشياء بحسبها ، وإن كان بعض هذه الأسس يُفضّل البعض الآخر وفقاً لما يحققه من الأغراض العلمية فيمكن تصنيف المصادر وفقاً لأبنيتها إلى مصادر ثلاثية وغير ثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية، وكذلك المشتقات تنقسم وفقاً للوزن والصيغة إلى اسم فاعل ومفعول ومشتقات من الثلاثي وغير الثلاثي، أما مصادر الهيئة والمرة فيعتمدان على أساس آخر هو المعنى، كما تنقسم المصادر الثلاثية وفقاً لمعناها إلى أقسام أخرى ثلاثية أيضاً، وفي المشتقات يتميز اسم الزمان والمكان عن المصدر الميمي بالمعنى، كما نعتمد على المعنى في تمييز الصفة المشبهة عن اسم الفاعل واسم المفعول .

التصنيف والتقسيم :

والفرق بين التصنيف والتقسيم هو الفرق بين الحركة الصاعدة والحركة النازلة فالتقسيم يبدأ بجنس من الأجناس، ثم يحل هذا الجنس إلى أنواعه، والأنواع إلى أنواع وهكذا حتى يصل المقسم إلى الأنواع الدنيا التي ليس تحتها إلا أفرادها .

أما التصنيف فيبدأ بالأفراد التي تجمع وفقاً للصفات المشتركة بينها وتفرق وفقاً لصفات أو خواصها المختلفة، فتوضع المتفقة منها في أصناف، والأصناف في أنواع ، والأنواع في أجناس، فالحركة في التقسيم نازلة، وفي التصنيف صاعدة .

ولكن هذا الفرق بين التصنيف والتقسيم نظري بحت . أما من الناحية العملية فيلجأ العالم إلى العمليتين معاً ؛ إذ كل تصنيف علمي معتمد على التقسيم، كما أن كل تقسيم معتمد على التصنيف ، فالعالم الذي يصنف أبنية الأسماء فيمكن تصنيفها إلى مصادر ومشتقات ، والمصادر تنقسم إلى ثلاثية وغير ثلاثية ، وقياسية وغير قياسية. فالقياسية ثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية وغيرها من مصادر الهيئة والمرة والميمي

الفصل الخامس

واسم المصدر والمصدر الصناعي . ومثلها المشتقات : اسم الفاعل واسم المفعول ..
إلخ والصفة المشبهة وصيغ المبالغة .

تحليل الخطاب ولغة النص :

فيما مضى يكون الاعتماد على المادة التي جمعها الباحث سواء من كتب التراث أو الكتب المعاصرة ، لكن تحليل النصوص يأخذ مساراً آخر؛ إذ الاعتماد الكلي فيه على النص ويأخذ البحث في هذه الظاهرة منحيين :

١- تحديد ظاهرة والاتجاه إلى التحليل المباشرة للعثور على هذه الظاهرة في النص، ثم وضعها في أنماط والرجوع بعد ذلك إلى كتب النحو قديمها وحديثها.

٢- تحديد مستوى معين من مستويات التحليل كالمستوى الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو الدلالي أو المعجمي أو الأساليبي ، ويمكن أن تكون الظاهرة التي تم تحديدها في المستوى الصوتي، الإعلال أو الإبدال أو القلب المكاني، ويمكن أن تكون في المستوى الصرفي، أبنية الأفعال أو الأسماء أو المصادر أو المشتقات ، ويمكن أن تكون في المستوى النحوي نظام الجملة أو عمل بدائل الأفعال، ويمكن أن تكون في المستوى الدلالي التعابير المجازية وصيغها أو غموض دلالة التراكيب بسبب عدم وضوح العلاقة بين الفصائل النحوية المختلفة، والتراكيب التي توجد فيها أو يمكن أن تكون تراكيب الاستفهام أو التعابير الجاهزة أو صيغ الأمر واستعمالاته .. إلخ . وفي هذه الحالة يجهد الباحث نفسه في العثور على الظاهرة الأكثر بروزاً في المستوى الذي تم تحديده ، ومن ثم ينطلق بتطبيق المنحنى الأول .

وما تقسيم جوانب الدرس اللغوي إلى صوتي وصرفي ونحوي ومعجمي ودلالي إلا محاولة لتعرف هذه الجوانب مفصلة ، بحيث يعاد جمعها من جديد لتقديم صورة واضحة كاشفة للنص المدروس . والنص اللغوي الحي وحدة متلاحمة من

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

صورته المنطوقة ونظامه النحوي الذي يحكمه، وصورته المنطوقة هي مفرداته المصوغة في الجملة بخصائص هذه المفردات وقوانينها الصوتية والصرفية ودلالاتها المعجمية الأولية الموضوعية لها ، أي التي يكثر استعمالها فيها، بحيث يشيع هذا الاستعمال بين أبناء البيئة اللغوية المعنية، ونظامه النحوي وهو الهيئة التركيبية التي توجد عليها هذه المفردات منظومة في الجملة من الفاعلية والمفعولية والظرفية والحالية وغير هذه وتلك من الوظائف النحوية مراعى في ذلك كله القوانين الخاصة بكل وظيفة نحوية على حدة، من حيث شروط ورودها الخاصة، ومن حيث قوانين ارتباط الكلمة التي تشغلها بما تتضمن معه في تركيب واحد مفيد .

والسلاحم بين المفردات ووظائفها النحوية في الجملة تفاعل عقلي صوتي في وقت واحد، وبعبارة أخرى هو تفاعل دلالي نحوي معاً لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ لأن المفردات من غير نظام نحوي يحكمها ويربط ما بينها لا يتأتى لها اجتماع إلا في التنظيم المعجمي فحسب^(١).

ولقد بدا تركيزنا على هذا الجانب في تحليل سورة الشورى، فكثير من مفرداتها لا تتضح وظيفته أو بالأحرى دلالاته إلا من خلال السياق الذي ورد فيه، ومجموعة المفردات التي تحيط به في التركيب والتي بدونها يستغلق فهمه أو بالأحرى فهم دلالاته المقصودة، بحيث إذا ورد المكون في نص آخر فإنه لا يؤدي الوظيفة النحوية أو الدلالية التي يشغلها في هذا النص بخاصة مثل « يوم الجمع » و « حفيظ » و « يدخل في رحمته » ، وكثير مما سنعرض له عرضاً مفصلاً عند تحليل سورة الشورى، والدلالة النحوية التي ينهض بها النظام النحوي الكامن وراء المفردات المنطوقة مع الدلالة المعجمية الأولية للكلمة تشكّلان معاً " معنى " الكلمة في الجملة، وكلا الجانبين متعاونان .

(١) د/ محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ، ص ١٦٦ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ ، القاهرة .

الفصل الخامس

ففي أحيان كثيرة يقوم النظام النحوي للجملة في سياق معين بتوضيح معنى كلمة لا يعرفها المستمع من قبل ويسمعا لأول مرة، ولكن وضعها في سياق نحوي معين يكشفها ويوضحها ويدفع المستمع إلى أن يحدث بمعناها حدساً صحيحاً .

وفي أحيان أخرى يكون وجود كلمات بأعيانها في الجملة هادياً إلى تحديد وظيفتها النحوية، والاختيار بين جداول المفردات أي مجموعات المصنفة في العقل الإنساني تصنيفاً دلاليّاً معيناً^(١) .

ومن حيث مناهج دراسة النصوص وطرق معالجتها فرّق القدماء بين مستوى الشعر والنثر وأفردوا لخصائص الشعر أبواباً في كتبهم كما عند سيبويه، بل وآلف بعضهم كتباً بأكملها لخصائص هذا المستوى مثل : ضرائر الشعر ، وهي كثيرة.

ولبحث لغة النص طرق في التناول ، كما أن للبحث اللغوي مناهج مثل: المنهج التاريخي ، والمنهج الوصفي، والمنهج التقابلي، والمنهج المقارن، والمنهج التحليلي، والتوليدي، إذا عددنا الأخيرين منهجين، وأن هناك تقسيمات للغة إلى مستويات منها : مستويات لغة الشعر والنثر والنص القرآني الذي لا يخضع لأي من المستويين السابقين ومستوى لغة القصة والمسرحية، إلى آخر الألوان الفنية التي تستحدث وتبتكر، وأن هناك أيضاً مستويات للتحليل اللغوي، مثل: المستوى الصوتي الوظيفي ، والمستوى الصرفي، والمستوى النحوي، والمستوى الدلالي، والمستوى المعجمي، يتم خلالها تصنيف مكونات النص، فإن هناك طرقاً لتناول النص العربي ومنها :

[أ] التحليل باختيار العينات : وهذه الطريقة تتم عند دراسة ظاهرة لغوية على مستويات اللغة العربية أو اللغات السامية والهندوأوروبية التي تشترك معها في

(١) د/ محمد حماسة عبد اللطيف : النحو والدلالة ص ١٦٧ .

كيفية صنع البحث اللغوي

الظاهرة نفسها تحقيقاً للفرض الملزم في عنوان البحث أو مجموعة الفرضيات
داخلة.

[ب] التحليل التام للمكونات : حسب مستوى التحليل اللغوي موضوع الدراسة، أو مجموعة المستويات التي يضمها البحث، وتصنيفها إلى مجموعات متوافقة ، من حيث البناء الصرفي، أو التركيب النحوي، أو أي ظاهرة لغوية أخرى مع دراسة مدى المطابقة والمخالفة بين المكونات وبعضها، ودراسة مدى تحقيق ما قاله النحاة القدماء ومدى مطابقته مع ما توصل إليه الباحث، ومناقشة آراء اللغويين في هذه الظاهرة والخروج بنتائج إما موافقة أو مخالفة مع اتسامها بالطابع العلمي .

[ج] تحليل المكونات تحليلاً تاماً وتصنيفها ، ثم إدراجها في جداول ومخططات ، ومناقشة متوسط تردد المكون وزيادته، أو نقصانه ومحاولة إيجاد العلل والأسباب العلمية ، من حيث ارتباطها بالبيئة اللغوية أو اللهجة القبلية أو الحالة النفسية أو ضرورة الموضوع أو أي مقتضيات أخرى ، وهذا يتم غالباً في الدراسات الأسلوبية .

[د] التحليل التام للمكونات واستنتاج الظواهر الجديرة بالدراسة من خلال هذا التحليل دون الاستفادة من تحليل الأرقام والإحصاءات، لكنها على أي حال تعطي مؤشراً بما يجب دراسته، وما يجب إهماله، كما أنها ستحدد الإطار العام للعينة المدروسة وتفصيلها، خصوصاً إذا وضعت في جداول لتكون أوضح للرؤية البصرية، ويجب أن ترفق بنهاية البحث، أما عند تحليل نص بعينه لكشف مدى تطابق خصائصه مع نص آخر فليس ضرورياً أن تتطابق نسب التردد، بل إن الإحصاء ونسبة التردد قد لا تكون لها ضرورة في مثل هذا التناول.

وإذا امتدت نظرتنا إلى أوائل من نظروا في ضبط أواخر الكلمات العربية فسنجد أن محاولاتهم في وضع نقط الإعراب إنما كان المقصود منه تحديد وظيفة

الفصل الخامس

المكون التركيبي داخل التركيب وإيضاح علاقته بما يسبقه أو يليه من المكونات الأخرى، وسنجد النظرة نفسها في وضعهم لأبواب النحو، خصوصاً باب الفاعل والمفعول ... إلخ ، لكنهم في وضعهم لأبواب من أنواع أخرى مثل باب الاستفهام، وباب التعجب يظهرون اهتماماً من نوع آخر وهو الاهتمام بالتركيب الذي يؤدي في النهاية إلى ضبط معنى النص إلى جانب مفرداته .

ومن هنا نلاحظ نسبية مدى تحقق النظريتين الجزئية والكلية في آن واحد إذا ثبت وضع هذه الأبواب في وقت واحد وعند عالم واحد، ولكن الذي أراه هو أن النص القرآني هو مبعث الاهتمام بالنظرة الكلية لمعاني النصوص، وذلك من أجل فهم دقائقه، واستنباط الأحكام الفقهية عن طريق التراكم^(١).

ويتدرج مستوى الكلام من الإبلاغ غير الفني إلى الإبلاغ الفني عن طريق الاختيار بين نوعين من الجداول " جداول المفردات " و " جداول النظام النحوي " ، وذلك أن الكلمة المعينة قد تقبل أن تدخل في علاقة المفعولية مثلاً مع فعل معين على سبيل الحقيقة، والحقيقة هنا حقيقة عرف، فإذا أدخلها المتكلم مع هذا الفعل نفسه في علاقة الفاعلية ولم تكن في العرف مما يقبل هذا النوع من العلاقة فإن مستوى الكلام يتحول من الحقيقة إلى المجاز إن شئت من الإبلاغ غير الفني إلى الإبلاغ الفني^(٢).

مسألة الاهتمام باللحن في اللغة ومسائل التعليل والقياس في الصيغ الصرفية تعدّ من قبيل الاهتمام بالمكونات، هذا من حيث الظاهرة، وفي بعض الحالات نجد أن الاهتمام بهذه المسائل مؤداه استقامة معنى التركيب، ومن ثمّ فهم النص، أو على الأقل السياق . ومن هنا نجد أنه ليست هناك حدود زمنية فاصلة أو مكانية بين كل من النظريتين الجزئية والكلية ، فالنظرتان تسيران جنباً إلى جنب .

(١) د/ شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف ، ط٣، ١٩٧٦م ، ص ١٧ .

(٢) د/ محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة ص ١٦٨ .

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

ونلاحظ في دراستنا لأقوال البلاغيين وتحليلاتهم إنهم يركزون في أغلب الأحيان على ظواهر جزئية في التركيب، وفي أحيان يركزون على التراكيب أنفسها كما في علمي البيان والمعاني . ولكننا بعد استعراض هذه المسائل الجزئية نجد في النهاية أن مبحث هذه الدراسات والتحليلات هو الاهتمام بالنص ، كما نجد أن النحاة الأوائل الذين أسسوا علم النحو كان غرضهم محدداً وهم يضعون أولى العلاقات الإعرابية، فقد كان يشغلهم أمر تحديد رتب المكونات ووظائفها داخل التركيب الواحد، ولذا حصروا العلامات في [فتحة وكسرة وضمة] ، لكنهم في المرحلة التالية أي مرحلة دراسة الجمل لم يحددوا أي علامات إعرابية، وإنما ركزوا على علاقة الجمل ببعضها، وساهم معهم في هذا الميدان البيانيون الذين لجأوا إلى طريقة أخرى تختلف عن طريقة النحاة فبدلاً من أن يستعملوا الفتحة والكسرة والضمة استعملوا مسميات أو مصطلحات لتحديد وظيفة الجملة فقالوا جملة تفسيرية أو اعتراضية ، فمسألة المحل الإعرابي ابتدعها النحويون فقالوا استئنافية لا محل لها من الإعراب، واعتراضية لا محل لها أيضاً ، كما قالوا جملة مقول القول . وقال البيانيون جملة طلبية [أمرية + ندائية - تمن + ترج] ولم يشغلهم أمر المحل الإعرابي، كما لم يشغل هذا الأمر أيضاً النحاة المتأخرين .

ولقد أصبح التطور الهائل في مجالات علم اللغة الحديث عبئاً ثقيلاً على كاهل الباحثين الشبان بالرغم من أنه فتح له ميادين جديدة ومباحث مستحدثة تتفق مع التطور الحادث في شتى العلوم والمعارف الإنسانية ، فلقد تقرر في المؤتمر الثاني للكمبيوتر ثنائي اللغة [مايو ١٩٨٩ م] أن الكمبيوتر يستطيع الآن إحصاء أي نمط من أنماط المفردات أو الجمل العربية في أي ديوان أو قصيدة عربية، كما أنه يمكن تصنيف أنماط هذه الجمل وإبراز سماتها . وعلى مدى عشرة أعوام قادمة سيكون في مقدور هذه الآلة فعل ما يمكن أن يقوم به الإنسان من دور في الأبحاث اللغوية والمعجمية، بل وتعليم اللغات لأبناء اللغة وغير أبنائها .

الفصل الخامس

ومن هنا فإن الدور الذي كان يمكن أن يقوم به الإنسان الباحث في اللغة أصبح موكلاً به إلى غيره، وعليه [أي الباحث] إما أن يبحث عن ميادين أخرى لا ينافسه فيها هذا الجهاز ، وإما أن يتفوق على هذا الجهاز لصنع ما يعجز عنه هذا الجهاز اعتماداً على حسه اللغوي، والاستعمالات المجازية للغة التي بات من المؤكد أيضاً أن الكمبيوتر سيقوم بها من حيث ترجمته للمعاني الإجمالية وليس للمفردات فحسب .

وفي ظني أن علم لغة النص ودراسة علاقاته المتشابكة بعضها ببعض أو بعضها بنصوص تراثية أخرى وكذا البنيات الصغرى وطرق تأليفها لبنية كبرى هي من الأشياء التي يمكن أن يكون فيها للباحث الإنسان دور يعزز من مكانته ويجعله يحتفظ بإسهامه المتميز في هذا الميدان .

إن حيوية النحو في القديم نبعت من أنه علم نص، وغير خاف أنه نشأ في حضن القرآن الكريم، ومن أن النحاة القدماء لم يوقفوا دراستهم على الجانب النظري فحسب، بل تخطوا ذلك إلى الجانب التطبيقي، وقد اتخذوا من القرآن الكريم والشعر القديم وشعر معاصريهم أحياناً مادة خصبة للتطبيق النحوي.

ومن هنا وجدت في خزانة التراث عشرات الكتب لشرح القرآن وتفسيره وإعرابه، وشرح مختارات الشعر ودواوين بعض الشعراء شرحاً يقوم في جانب كبير منه على فهم العلاقات النحوية، ولذلك استطاعت الدراسات النحوية القديمة أن تحيا وتتخطى إلينا القرون والأجيال .

إن كثيراً من القضايا النحوية لا تفهم من كتب النحو وحدها، بل من كتب التفسير وشرح المختارات الشعرية والأمثالي والمجالس التي تعتمد على مقطوعات الشعر المختلفة والروايات الأدبية . وقد كان كتاب سيبويه - وهو أول مؤلف نحوي يصل إلينا - كتاباً جامعاً لعلوم العربية وفقه أسرارها، وإن قارنه ليستشعر أنه يهتم بحسن الكلام وقبحه لا بمجرد صحته وحسب .

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

وثمة فرق بين السياق اللغوي والسياق الاجتماعي، فالسياق اللغوي يتكون ويعتمد على مجموعة المكونات التركيبية من أدوات ومكونات مفردة ومركبات ، ويكتمل هذا السياق حين يرد العامل مع جميع معمولاته كما يرد الناسخ الحرفي ومعه معمولاه ، وينقطع هذا السياق إذا ورد العامل مع بعض معمولاته ولم ترد باقي المعمولات . وهذه تدعونا إلى التأمل في أثر العامل القوي والعامل الضعيف، فهل العامل القوي هو الذي يؤثر في عدد كبير من المعمولات، والضعيف هو الذي لا يؤثر في عدد كبير من المعمولات ؟ وإذا كان الأمر هكذا ، فما موقف المركبات والتراكيب الاعتراضية التي ترد بين معمولاته ؟

ويتكامل السياق اللغوي تركيبياً ودلالياً من استيفاء جميع مكوناته التركيبية، أما السياق الاجتماعي فهو الذي يمكن التوصل إليه بمجموعة المكونات التركيبية من ناحية، وما يمكن استنتاجه من أحداث لغوية تفهم من خلال المكونات الموجودة يضاف إليها الظروف المحيطة بالنص، كما يمكن استنتاج المحذوفات وإكمال السياق بها . وبهذا يسهم كل من السياقين في كل من تحليل النص وإعادة تركيبه وتحديد الدلالات الظاهرة من مجموع مكوناته وتراكيبه ، وكذا الدلالات الباطنة الناشئة عن تقدير المحذوفات وتأويل ما ليس بظاهر .

لاشك أن معطيات الإحصاء تحتاج إلى قارئ متمرس يستطيع أن يستخلص نتائج دقيقة؛ فربما تنتج قراءة معدلات تكرار عالية تفسيراً معاكساً لما أراد المؤلف أن يعمي من خلالها على قارئه ما يقصده، وبذلك تكون مباشراً سلبياً. كما أن تقديم هذه الطريقة الكم على کیف أمر منطقي، إذ إن وضع الفرض والتحقيق منه من خلال العمليات الإحصائية يسبق عمليات الاستنتاج وعرض تفسيرات متعددة محتملة.

كما أن عامل السياق عامل جوهري؛ إذ هو العنصر الفاعل المؤثر في تحديد بروز سمة أسلوبية بعينها، فالأسلوب يعتمد على العلاقة القائمة بين معدلات التكرار

الفصل الخامس

للعناصر الصوتية والنحوية والمعجمية في نص ما ومعدلات تكرار هذه العناصر نفسها في قاعدة متصلة به من ناحية السياق .

ويؤمن اللغوي إيماناً راسخاً بأن الكلمة في نص ما إنما تكتسب دلالتها الأسلوبية من تجاورها مع الكلمات الأخرى التي تقع معها في خط أفقي، حيث تتشابه الدلالات الحقيقية بظلال المعاني لتلك الكلمات، فتكسب إيماءات وتأثيرات خاصة . ولهذا فإن رصد قوائم غير سياقية لها ليس له أية قيمة أسلوبية.

ولا حاجة إلى أن نؤكد أن البحث اللغوي لا يكتفي بالتقاط بعض العناصر البارزة في النصوص وتحليلها، فليس من المنطقي أن تنتهي هذه الطريقة إلى أحكام موضوعية محايدة، كما يهدف البحث اللغوي .

ولا يذكر اللغويون إمكان الوصول إلى نتائج احتمالية من خلال طريقة العينات ، ولكنها أقرب إلى البحث النقدي منها إلى البحث اللغوي، ولذا يصدق بعض النقد الذي وجه إليها، وإن كانت النماذج الرياضية المختلفة التي يستعملها التشخيص الأسلوبى مرفوضة كلية من أصحاب الاتجاه الأدبي.

يقول د/ صلاح فضل : وبينما يمكن أن يعتمد التشخيص الأسلوبى على اختيار عنصر لغوي أو أكثر في النص دليلاً كافياً على تفرده ، فإن الشرح الشامل والواضح للأسلوب يحتاج إلى عرض أكثر تشابكاً وتعقيداً لجملته العناصر المترابطة، ولو كان المطلوب فحسب إنما هو مجرد دليل واضح على نسبة النص إلى مؤلف معين، فإنه من الممكن عندئذ استعمال حاسب إلكتروني للتحديد الكمي لدرجة كثافة النص ومعدلات تكرار هذه العناصر اللغوية المتميزة فيه، لكننا سنصل في هذه الحالة إلى تشخيص لبعض الأعراض، لا لوصف كامل له، بل ربما كانت العناصر المختارة لهذا الغرض ليست بذات قيمة في دلالتها على الخواص الأدبية والفنية للنص^(١) .

(١) د/ صلاح فضل: علم الأسلوب ص ٢٩١، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ١٩٨٨ م .

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

إن اللغوي يحاول أن يرصد المادة اللغوية التي تحدد مستوى معيناً أو مستويات مختلفة، ثم يصفها ويحللها بطرق قياسية موضوعية، ودون ذلك لا يستطيع أن يصل إلى أحكام لغوية في المقام الأول يمكن أن تسخر بعد ذلك لأغراض تفسيرية مختلفة . هذا ما يتيح البحث اللغوي للفروع الأخرى، وذلك يتواءم مع شمول البحث اللغوي وجزئية البحث الأسلوبي .

وتتضح تلك الجزئية في ذهاب بعض الباحثين إلى أنه إذا كان ملمح لغوي ما يمكن أن يكون ذا دلالة أسلوبية مما يستحيل معه أن نقدم قائمة مفصلة بجميع الملامح اللغوية الشكلية للنص، فإن بوسعنا على سبيل المثال أن نعرض لبعض المستويات المتشابهة ذات الدلالة الأسلوبية في النصوص المختلفة^(١).

وفي البحث اللغوي الحديث نجعل من النص مادة للتحليل وباستثناء القرآن الكريم والحديث الشريف تكون النصوص التي يجري عليها الباحثين تحليلهم اللغوي، ومن الأدب شعره ونثره وأمثاله وحكمه وفنونه ، لذلك فمن الضروري العمل على إرسال منهج لغوي في نقد الأدب العربي يكون فيه النص *the text* والخطاب الأدبي *The discourse* أولاً وقبل كل شيء هو موضوع الدراسة، ويكون منهج الدراسة فيه لغوياً *Linguistic* بالمفهوم العلمي لهذا المصطلح .

وقد يحتاج العلم المنضبط إلى أن تكون له فلسفة وموضوع ومنهج يشتمل على معايير موضوعية للقياس والوصف والاستنباط، ومن ثم لابد لدراسة الأدب من استيفاء هذه الشروط لكي تكون جديرة بأن تحتل مكانها بين العلوم .

والذي نلاحظه دائماً أن دائرة الخلاف كثيراً ما تتسع كلما بعدنا عن النص وخضنا بالحديث في بيئة النص وعصره، أو حين يكون هدفنا الكشف عن نفسية المنشئ من خلال نصوصه، أو حين نضع نقد المضمون في المحل الأول . أما حين

(١) انظر د/ صلاح فضل: علم الأسلوب ص ٢٩٢ .

الفصل الخامس

يكون النص هو محور الاهتمام، وموضوع الدراسة فإن حديثنا يصبح أكثر التزاماً بموضوعية العلم واتباعاً لمواصفاته ومواضعاته المقررة .

والخلط بين التحليل والتقسيم وهما وسيلتان من وسائل النظر والبحث، وبينهما فارق أساسي عند علماء المناهج الحديثة، وكثيراً ما يقع الخلط بينهما في بحوث المبتدئين؛ إذ يستعملون اللفظ مكان الآخر، والتحليل هو رد الشيء المركب إلى عناصره الجوهرية التي لا يقوم وجوده إلا به .

وهذا يعني أن المحلل لكي يرد الشيء إلى عناصره ، لابد أن يتجه بفكره من المركب إلى البسيط، أي إلى المقومات البسيطة الأساسية التي يتألف منها، ولهذا عرفه البعض بأنه انتقال الفكر من الوحدة إلى الكثرة، وعكسه " التركيب " وهو انتقال الفكر من البسيط إلى المركب . وكثيراً ما يحتاج الباحث إلى التحليل والتركيب معاً في بحث موضوع بعينه ، فهو يحلل الموضوع بعزل عناصره أو صفاته أو خواصه الجوهرية، بعضها عن بعض ، ثم يتناول هذه العناصر أو الخواص بالبحث للكشف عن حقيقتها وعلاقة بعضها ببعض، ثم يجمع النتائج التي توصل إليها من تحليل عناصره ومقارنة بعضها ببعض لكي يعود مرة أخرى إلى تأليف مركب جديد في شكل قانون عام ، أو نظرية ، أو حكم كلي جديد ، وبذلك يكون الباحث قد استعمل طريقتي التحليل والتركيب معاً للكشف عن هذا القانون أو هذه النظرية .

والتحليل أنواع، فمنه التحليل الطبيعي كالذي يقوم به الكيماوي في معمله، فيحلل الماء إلى عنصريه الجوهريين، أعني الأوكسجين والهيدروجين، ويعرف النسبة بينهما، أو يحلل السوائل الكيماوية الأخرى كالحوامض ونحوها .

ومن أنواعه التحليل النفسي، كالذي يقوم به الباحث أو الطبيب النفسي، إذ يرد الحالة النفسية إلى خصائصها ويكشف عن بواعثها . ويحتاج الناقد الأدبي إلى تحليل نفسية شاعر أو كاتب فيحاول من خلال لغته وأسلوبه أن يستشف بعض الحالات والظواهر النفسية ، من غرائز ورغبات وعواطف وطرائق تفكير، وهذه تعد من

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

العناصر المقومة لنفسية الإنسان، يتناولها الناقد بالدراسة ومعرفة علاقة بعضها ببعض ومن أنواع التحليل ، التحليل التاريخي، فيتحدث المؤرخ عن عصر معين من العصور التاريخية ، محلاً هذا العصر إلى عناصره وخواصه، كالنزعات العامة التي أثرت في أحداثه ووقائعه، والتيارات الكبرى الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية التي كان لها أثر فعال في توجيه أفكار الناس ونزعاتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم .

ومن أنواع التحليل " تحليل البنية اللغوية " وهو الذي يهتم الباحث اللغوي في المقام الأول، ومجال هذا التحليل هو البحث في الكلمات والتراكيب لردّها إلى أبسط عناصرها وهو الصوت الصامت والصوت الصائت، والمقاطع اللغوية التي يتألف منها، وبيان كيف تدرجت من البساطة حتى بلغت نصوصاً من الشعر والنثر، موضحاً نظم العلاقات التي ربطت بين أجزاء الكلام، والقواعد المتبعة التي تحكم ترتيب الكلمات في داخل الجمل والعبارات، والتي تنظم العلاقات بين المتبوعات وتوابعها، وتميز بين وظائف الصيغ في داخل التركيب .

والتحليل في البحوث الأدبية واللغوية يقوم بدور بالغ الأهمية، فهو يستعمل لوصف الطريقة التي تعمل بها لغة الكاتب أو الشاعر ، ومن ثم يسهم بنصيب موفور في مجال النقد العملي للنصوص الأدبية وبخاصة حين يتطلب النقد الأدبي معرفة إيجابية دقيقة بالجوانب الفنية للقالب الأدبي . ومن ذلك تحليل أوزان الشعر وتحليل التعبيرات الأدبية والظواهر الفنية ، ويستعمل التحليل الإحصائي في معرفة نسبة تردد صيغة بعينها، أو نمط معين من أنماط " الجملة " في نص أدبي محدد . ونقيدها نتائج هذا النوع من التحليل في تفسير اتجاهات الشاعر أو الكاتب اللغوية والفنية والنفسية.

كذلك يستعمل التحليل في مجال تعلم اللغات، وفي ترجمة النصوص من لغة إلى أخرى، فالطالب الإنجليزي أو الفرنسي مثلاً إذا أراد أن يتعلم العربية، فإن أمثل الطرق لتعليمه العربية - وهي لغة أجنبية بالنسبة إليه - أن يقوم المختصون بتحليل اللغتين المتقابلتين، الأصلية [وهي الإنجليزية أو الفرنسية بالنسبة إلى هذا الطالب أو

الفصل الخامس

ذاك [والأجنبية] وهي العربية بالنسبة إليهما [، والغرض من هذا التحليل عزل الفروق بين اللغتين بحيث يمكن التركيز على تلك الفروق في الأصوات والصيغ والتراكيب لكل من اللغتين، والمعلم المختص إنما يركز في هذه الحالة على تلك الفروق لإعداد المادة التعليمية المناسبة التي يقدمها في تدريسه، وفي الكتب الدراسية المخصصة لتعليم اللغة الأجنبية .

أما ترجمة النصوص فإنها تتطلب الإلمام بكل المقومات التي تتألف منها اللغتان، من أصوات وتراكيب ومعان وعبارات اصطلاحية ، وبهذا يقوم المترجم بتحديد المتعادللات في كل هذه المقومات، إذ لا يتسنى له أن يهتدي إلى هذه "المتعادللات" إلا إذا ألم إماماً تاماً بالمقومات لكل من اللغتين .

ومن الممكن أيضاً استعمال طريقة التحليل في عزل الأخطاء الناجمة عن الكتابة أو عن الوهم أو عن عيوب اللسان، ولذا كان التحليل من الطرق المثمرة في الدراسات التربوية والبلاغية^(١) .

أما التقسيم فهو تجزئة الموضوع أو تفريقه على أقسام صغيرة غير معينة، إما بحسب الزمان كأن نقسم عصراً تاريخياً إلى فترات زمنية لأغراض تعليمية أو عملية، وإما بحسب المكان كأن نقسم هذا العصر إلى بينات وأقاليم للغرض نفسه، وإما بحسب الشمول فترتب الأشياء إلى أجناس فأنواع فأصناف ... إلخ ، كما صنع النحاة الأوائل في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وهذه ثلاثة أجناس يندرج تحت كل جنس منها أنواع كاسم الذات، واسم المعنى، والعلم، أنواع تدرج تحت " الاسم " ، والماضي والمضارع والأمر أنواع تدرج تحت " الفعل " .. إلخ .

(١) انظر أمثلة تطبيقية متنوعة لطرق التحليل المشار إليها عند د/ فاطمة محجوب: دراسات في علم اللغة ، ط القاهرة ، ١٩٧٦ م .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

هذه التقاسيم التي تهدف إلى غرض عملي تعليمي، فالتقسيم بهذا المفهوم الذي اصطلح عليه القدماء والمحدثون^(١)، يختلف تماماً في طريقتة ووظيفته عن التحليل. فتحليل مقدار من الماء إلى عناصره من الأوكسجين والهيدروجين غير تقسيمه إلى "قطرات من الماء". وقطرة الماء هي أقل وحدة يصل إليها الباحث في تقسيم مقدار الماء، ومع هذا نفتقد التعريف بعناصره المقومة فالقطرة من هذه الناحية مازالت بحاجة إلى "تحليل" مثلها في ذلك كمثل مقدار الماء مهما عظم.

والنحوي في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، لا يقدم لنا شيئاً من "عناصر" الكلام، وهي الأصوات اللغوية التي يتألف منها. فالحرف - في نظر الباحث التحليلي - مثل الكلام كله سواء بسواء. والشاهد في هذا أن كل قسم من الأقسام، مهما يكن دقيقاً "فهو مركب مثل الكل"، ومن هنا يتضح أن التقسيم يتجه إلى التجزئة والتفريق لأداء وظيفة عملية تعليمية، وأن التحليل يتجه إلى البحث عن العناصر التي لا يقوم الشيء إلا بها، لأداء وظيفة علمية خالصة، ومن أجل هذا فإن التحليل وحده يوضح مفاهيم الأشياء ويعين على ارتقاء العلم^(٢).

والفرقة بين التحليل والتقسيم تفيدنا في النظر إلى اصطلاح آخر يرتبط بهما ارتباطاً وثيقاً، أعني "التصنيف" فقد اتخذ هذا الاصطلاح مفهوماً يختلف بعض الشيء عن مفهوم القدماء، فصار يدل على نوعين: تصنيف يقوم على التقسيم، وتصنيف علمي تعليمي، يرتب الموضوعات أو العلوم بحسب الزمان أو المكان أو الشمول، وتصنيف يقوم على التحليل، وهو تصنيف علمي يرتب الموضوعات أو العلوم بحسب الزمان أو المكان أو الشمول، وتصنيف يقوم على التحليل، وهو تصنيف علمي يرتب الموضوعات أو العلوم على أساس العناصر المقومة لها^(٣).

(١) قارن عند القدماء التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون ١٦/١، تحقيق د/ لطفي عبد البديع، ط ١٩٦٣م، وعند المحدثين د/ جميل حبيب: المنطق ص ٨٦، ط بيروت ١٩٦٧م.

(٢) د/ جميل حبيب: المنطق ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) د/ عبد المجيد عابدين: مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق لنصوص ص ٢٧ - ٤١.

◆ الفصل الخامس ◆

ثالثاً : طرق إنشاء البحث اللغوي ونظرية تنمية الموضوعات وتوليدها :

يقع أغلب الباحثين تحت وهم قلة الموضوعات وندرتها، وأن ما كتب في موضوعات اللغة والنحو من موضوعات يجعل من العسير على الباحثين الشبان العثور على موضوع يستحق الدراسة، ومهمة البحث العلمي، ومن أهم وظائف الدراسات التي نصنعها نحن هي إزالة الوهم بتقرير الحقائق العلمية وإزالة الظنون غير الصالحة في البحث العلمي .

ولقد سجلت في حديث إذاعي بالإسكندرية عام ١٩٩٣ م ، وفي برنامج [بالحلم بيوم] وقد كان حلمي في هذا الوقت موجهاً لطلاب البحث العلمي الذين يخشى كل منهم أن يأخذ الآخر موضوعه فيسجله لنفسه ليحصل به على درجة علمية والأغرب أن أحد الأساتذة صارحني بأننا كعلماء الذرة يجب أن يخفي كل منا أفكاره أو موضوعات بحوثه عن الآخر ، ولكنني تعجبت من سماع هذه الأفكار من هذا الأستاذ الذي كنت أعجب به إلى حد بعيد، وقد كان سلوكي أنا في البحث العلمي مختلفاً ، فقد كنت منفتحاً على كل الاتجاهات ومع كل من أصادفه سواء أعمل في تخصصي أم في غير تخصصي دون مبالاة أو خوف وبحوثي التي أنجزتها جميعها أسمح لجميع من أقابلهم بالاطلاع على عناوينها وخططها بل ومادتها ، وأنا على ثقة من أن البحث العلمي سيستمر، ولن تتضرب موضوعاته ، ولن ينتهي البحث مادامت الحياة قائمة ، ولكن البحث يحتاج إلى إخلاص وجدية وقوة إرادة وتفاؤل وقوة إيمان .

والأعجب من هذا كله ظاهرة غريبة أحزن لها الآن وهي أن بعض أعضاء هيئة التدريس في بعض الجامعات وفي بعض الكليات وفي بعض التخصصات يختارون الطلاب النابهين أو إن شئت قل المتفوقين أو الأوائل ويكلفونهم بعمل أبحاث متميزة، ويطلبون منهم فيها الرجوع إلى المراجع الأجنبية ويقسون عليهم في الطلب فيرفضون كل ما هو عربي .

◆ كيفية صنع البحث اللغوي

والأعجب أنني استمعت من هؤلاء الطلاب أنهم يدركون مغزى هذه المطالب أو الهدف منها وهو استثمار عضو هيئة التدريس هذه المطالب في جمع مادته هو لصنع بحوث بهدف الترقية وكم شكا إليّ الطلاب من أنهم لا طاقة لهم بهذه المطالب وأنهم يسافرون على نفقتهم الخاصة إلى القاهرة لجلب المادة أو النصوص التي يحتاجها أعضاء هيئة التدريس، أضف إلى ذلك أنهم يكلفونهم بتحمل قيمة ترجمة هذه النصوص من الإنجليزية أو غيرها إلى العربية في مكاتب الترجمة دون مراعاة لتقوى الله من ناحية أو إمكانات الطالب من ناحية أخرى .

وكم شعرت أنه من الفضيحة والخزي والعار أن أعرض هذا الأمر أو أتعرض له في مجالس الأقسام أو كان الدراسات العليا أو مجالس الكلية؛ لأنه سيمس قطعاً من الحاضرين وسيطلب في هذا الأمر تحديد أسماء الطلاب وأعضاء هيئة التدريس الذين يصنعون هذا وسيقع العقاب في النهاية على الطالب الذي صرح بما أسره إليه عضو هيئة التدريس .

والحقيقة أن اللجان العلمية التي تطلب من عضو هيئة التدريس له طاقة محدودة أن يصنع على سبيل المثال بحثاً مرجعياً يعرض فيه لأحدث النظريات في التخصص ، ثم ينقد هذه النظرية وهو في كثير من الأحيان لا طاقة له بذلك، فهل يعيد أعضاء هيئة التدريس الذين أشرنا إلى بعضهم النظر في إمكاناتهم العلمية ؟ أم تنتظر اللجان العلمية أو تعيد النظر فيما تطالب به أهل التخصص ؟

والحقيقة أن البحث العلمي ليس ثابتاً شأنه شأن ظروف الحياة والأرض جميعاً ، وفي البحث اللغوي يمكن الاعتماد على مجموعة من المتغيرات :

- ١- الظاهرة اللغوية أو النحوية .
- ٢- المستوى اللغوي المدروس أو النص أو كتب اللغة والنحو .
- ٣- مستوى التحليل اللغوي صوتي أو صرفي أو نحوي أو دلالي أو معجمي .
- ٤- منهج التحليل اللغوي وصفي أو تاريخي مقارنة أو تقابلي .

الفصل الخامس

فهذه متغيرات محددة ، ولكن يمكن من خلالها أن يتولد من الموضوع الواحد العديد من الموضوعات الجديدة الجديرة والمستحقة للدراسة ، فإذا كان لدينا ظاهرة هي دراسة الجملة وأردنا بتطبيقها في نص محدد مثل القرآن ، واخترنا لها مستوى محدد من التحليل هو المستوى النحوي، واخترنا لها منهجاً هو المنهج الوصفي فإن موضوع البحث في النهاية يصبح الجملة في القرآن الكريم دراسة نحوية وصفية .

ويمكن التعديل في أحد المتغيرات كأن نغير النص فتصبح :

الجملة في شعر الأعشى دراسة وصفية ، ويمكن تغيير المستوى اللغوي ليصبح في النثر فيكون الموضوع الجديد الجملة في نثر عبد الحميد الكاتب دراسة وصفية ، ويمكن تعديل أحد المتغيرات بإدخال مستوى لغوي جديد فيكون الموضوع الرابع :

الجملة بين نثر عبد الحميد وقصة الأيام للدكتور/ طه حسين دراسة وصفية، كما يمكن اختيار مستوى معاصر من الروايات بحيث تصبح الدراسة تقابلية فيكون العنوان : الجملة بين نثر عبد الحميد الكاتب والثلاثية لنجيب محفوظ دراسة مقارنة . وهكذا يمكنك تعديل مصطلح الجملة بظواهر أخرى تكون في المفردات أو في الأبنية الصرفية أو في باب نحوي معين أو ظاهرة صوتية كالتنغيم وأثرها على الجملة في نص بعينه .

وهكذا يمكننا من الموضوع الواحد أو العنوان الواحد أن نصنع عدداً محدوداً بحدود الظواهر النحوية واللغوية ومستويات اللغة ونصوصها وفنونها بصفة عامة ، وما يمكن أن يستحدث من هذه الفنون وكذلك مناهج التحليل اللغوي ومستويات التحليل اللغوي ، ويتوقف نجاح الباحث في اختيار موضوعه على مدى مهارته ومدى اطلاعه على البحوث الحديثة والقديمة، ومدى إلمامه بقواعد التخصص، ومدى تعاونه مع الباحثين الآخرين ، ومدى احتكاكه بالباحثين والأساتذة وحضوره المناقشات والمؤتمرات ومشاركته فيها .

◆ كيفية صنع البحث اللغوي ◆

والإليك موضوعات للتدريب على البحث اللغوي وتوثيق النصوص ويمكن تصنيفها إلى ستة أنواع :

- ١- موضوعات لتوثيق النصوص والتعريف بمؤلفيها وآثارهم اللغوية .
- ٢- موضوعات لدراسة مناهج اللغويين القدماء في تأليف كتبهم .
- ٣- موضوعات تقوم على المنهج الوصفي .
- ٤- موضوعات تقوم على المنهج التاريخي .
- ٥- دراسات تعتمد على المنهج المقارن .
- ٦- دراسات تقوم على المنهج التقابلي .

[أ] موضوعات لتوثيق النصوص والتعريف بمؤلفيها وآثارهم اللغوية :

- ١- عشرة أبيات من معلقة ليبيد / ونص من كتاب مغني اللبيب لابن هشام [حاشية الدسوقي] من " حرف الألف " ص ٨ - ١٤ من الجزء الأول/ ونص من " طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي [ط ١٩٥٤] من ص ٤٣ - ٤٧ [ترجمة الخليل بن أحمد] .
- ٢- مادة " برق " و " برك " من كتاب " المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني [المطبعة الميمنية] ص ٤٢ - ٤٣ / ونص من كتاب " مغني اللبيب لابن هشام " [حاشية الدسوقي] من ص ١٤ - ٢٠ [الجزء الأول] في الكلام على " الهمزة ، آ " ما بعدهما/ ونص من طبقات النحويين واللغويين للزبيدي [ط ١٩٥٤] من ص ٦٦ - ٦٧ إلى قوله [فإنما يعنيني] [في ترجمة سيبويه] .
- ٣- عشرة أبيات من معلقة عننرة / ونصف من مغني اللبيب لابن هشام من ص ٢٠ - ٢٦ [في الجزء الأول] في الكلام على إن المكسورة الخفيفة إلى قوله

الفصل الخامس

" بسبب قتلك أو تبين أنهم قتلوك - ونص من طبقات النحويين واللغويين للزبيدي [ط ١٩٥٤] من ص ٧٦ - ٧٧ [أبو عمر الحزمي] .

٤- نص من بغية الوعاة للسيوطي [ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ] في ص ٤٢ عن محمد بن زياد بن الأعرابي / ونص من التهانوي في " كشف اصطلاحات الفنون " تحقيق د. لطفي عبد البديع وآخرين . الجزء الأول من ص ١٨ - ١٩ إلى قوله " من اليونانيين وغيرهم / ونص من " شرح ابن يعيش " الجزء الأول [إدارة الطباعة المنيرية بمصر] ص ١٠١ - ١٠٢ من قوله " خبر إن وأخواتها .. إلى قوله " لأنه قد حصلت المخالفة بتقديم المنصوب على المرفوع فاعرفه " .

٥- نص من " بغية الوعاة للسيوطي [ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ] ص ٢٢٠ [عن الحسن بن صافي ملك النخاعة] ، ونص من التهانوي " كشف اصطلاحات الفنون " تحقيق د. لطفي عبد البديع .. إلخ . الجزء الأول من ص ٨٣ - ٨٤ من قوله " التاريخ في اللغة تعريف الوقت إلى قوله " وهو معرب ماه روز " ومن قوله : " اعلم أن التواريخ بحسب اصطلاح كل قوم ... إلخ " ونص من شرح ابن يعيش [إدارة الطباعة المنيرية بمصر] في الجزء الثاني ص ١٣ - ١٥ [في الكلام عن المنسوب إلى آخر الفصل] .

٦- نص من " لحن العوام لأبي بكر الزبيدي " [ط ١٩٦٤] ص ٥-٧ من قوله [وضع أبو حاتم كتاباً .. إلى قوله " وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة " ونص من المقتضب للمبرد، تحقيق محمد عضيمة [ط ١٣٨٦هـ] في الجزء الثاني ص ٨٧ - ٩١ [ألفات الوصل والقطع والأفعال التي تدخلها . / ونص من " النهاية في غريب الحديث والأثر " لمجد الدين بن الأثير، تحقيق الزاوي والطناحي، ط ١٩٦٣ في الجزء الأول ص ٢١-٢٢ [باب الهمزة مع التاء] .

❖ كيفية صنع البحث اللفوي

- ٧- نص من " بغية الوعاة للسيوطي " [ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ] ص ٧٤-٧٥ [عن محمد بن علي بن إسماعيل العسكري " مبرمان " / ونص من كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، تحقيق د. لطفي عبد البديع .. إلخ من الجزء الأول ص ٢٠ من قوله " علم الصرف ويسمى بعلم التصوير أيضاً .. إلى قوله " مفيتيح وتمثيل ونحو ذلك " / ونص من شرح ابن يعيش [إدارة الطباعة المنيرية] بالجزء الأول من ص ٢٧ من قوله : " ومن أصناف الاسم العلم .. إلى قوله : " ولذلك يجوز تغييرها وتبديلها فأعرفه " .
- ٨- نص من " لحن العوام للزبيدي " [ط ١٩٦٤] ص ١٢-١٤ من قوله قال محمد : ولا يجوز أن يلحق الألف واللام ذو ولا ذات .. إلى قوله لأن [ذو] لا تكون إلا مضافة وكذلك جمعها/ ونص من المقتضب للمبرد ، تحقيق محمد عضيمة [ط ١٣٨٦هـ] بالجزء الثاني ص ٩٢-٩٤ [ألف الوصل في الأسماء غير المصادر] ونص من " النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، تحقيق الزاوي والطناحي ط ١٩٦٣ " بالجزء الأول ص ٥٣-٥٤ [باب الهمزة مع الطاء] .
- ٩- نص من " التنبيه على حدوث التصحيف " لحمزة بن حسن الأصفهاني ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين [ط بغداد ١٩٦٧] ص ١٦٦ - ١٧١ من قوله [أربعة ألفاظ في كلام العرب .. إلى قوله : بين حاذف فعاذف / ونص من المقتضب للمبرد ، تحقيق محمد عضيمة [ط ١٣٨٦هـ] بالجزء الثاني ص ١٠٤ - ١٠٦ [باب أفعال المطاوعة] . ونص من " النهاية في غريب الحديث والأثر " لابن الأثير ، تحقيق الزاوي والطناحي [ط ١٩٦٣ م] بالجزء الأول ص ١٩ - ٢٠ من قوله " أبا قد تكرر في الحديث " لا أبالك " إلى قوله في الأبواء جبل بين مكة والمدينة وعنده بلدة ينسب إليه .

الفصل الخامس

١٠- نص من المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين [ط ١٩٥٤] بالجزء الأول ص ٧-١٠ من باب الأسماء والأفعال إلى قوله " وكلتاها ساقطة في الأصل " / ونص من كتاب " الصاحبي في فقه اللغة .. لأحمد بن فارس [ط ١٩١٠] ص ١٩-٢١ في القول في اختلاف لغات العرب .. إلى قوله : " من حيث ما سلكوا أدتوفانظور " / ونص من كتاب " البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم [ط ١٩٥٧] بالجزء الأول ص ١٠٨ - ١١٠ نقلاً عن أحمد بن فارس ابتداء من قوله " وكل شيء في القرآن من ذكر السعير فهو النار والوقود .. إلى قوله [انتهى ما ذكره ابن فارس .

١١- نص من المنصف شرح ابن جني ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ط ١٩٥٤ بالجزء الأول ص ١٣ - ١٧ [الزيادة للإلحاق ولغيره ... إلى قوله : " من أجل مجيئهم به فهذا شرح هذا " / ونص من " الصاحبي لابن فارس " [ط ١٩١٠] ص ٢٤ - ٢٧ باب اللغات المضمومة .. إلى قوله " وكل ذا من أغاليط من يغلط والعرب لا تعرفه " / ونص من المزهري في علوم اللغة للسيوطي ، تحقيق جاد المولى وزميله [ط ١٩٥٢] بالجزء الثاني ص ٥٢١ - ٥٢٣ [أعرابي بالكناسة .. إلى قوله : " والفل القوم المنهزمون " .

١٢- نص من المنصف شرح ابن جني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين [ط ١٩٥٤] بالجزء الأول ص ١٧ - ٢٤ [في أبنية الأسماء والأفعال الثلاثية التي لا زيادة فيها ..] / ونص من الصاحبي لابن فارس [ط ١٩١٠] ص ٤٠-٤٢ [باب مراتب الكلام في وضوحه وأشكاله .. إلى قوله : " وأشعار العرب وسائر الكلام " . ونص من المزهري للسيوطي، تحقيق جاد المولى وزميله ، ط ١٩٥٨ بالجزء الثاني ص ٥١٩ - ٥٢١ [حديث قيس بن رفاعة مع الحارث بن أبي شمر] .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

- ١٣- نصوص القراءات التي أوردها ابن جني في " المحتسب " لعبد الله بن أبي إسحاق .
- ١٤- نصوص القراءات التي أوردها ابن جني في " المحتسب " لعيسى بن عمر النخعي .
- ١٥- أشعار النحويين واللغويين في القرنين الرابع والخامس للهجرة .
- ١٦- نصوص من كتابي " تنقيف اللسان لابن مكى الصقلي " و " لحن العوام " لأبي بكر الزبيدي ، تتعلق بمظاهر اللحن في الجانب الصوتي من الاستخدام اللغوي .

[ب] موضوعات لدراسة مناهج اللغويين القدماء في تأليف كتبهم :

- ١٧- منهج القدماء في توثيق الرواية اللغوية .
- ١٨- منهج القدماء في توثيق النص اللغوي .
- ١٩- منهج القدماء في تأليف علوم العربية، وهل كان وصفيًا ؟
- ٢٠- كيف نفسر عدم اتجاه القدماء إلى استخدام المنهج التاريخي والمنهج المقارن؟
- ٢١- منهج أبي الطيب اللغوي في كتابه " مراتب النحويين " .
- ٢٢- منهج أبي بكر الزبيدي في تصنيف " طبقات النحويين واللغويين " .
- ٢٣- منهج القفطي في كتابه " إنباء الرواة على أنباء النحاة " .

[ج] موضوعات تقوم دراستها على المنهج الوصفي الحديث :

- ٢٤- الدلالة اللغوية في رسالة الجاحظ " في الحنين إلى الأوطان " [رسائل الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الثاني ١٩٦٥] .
- ٢٥- الصفة واستخدامها في قصيدة دريد بن الصمة " أرث جديد الحبل من أم معبد " [جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ط ١٩٦٣ بيروت ص ٢١١-٢١٣] .
- ٢٦- معجم لألفاظ " الكدية " في القرنين الثالث والرابع للهجرة .

الفصل الخامس

- ٢٧- لغة التجارة في بيئة البصرة في عصر الجاحظ .
- ٢٨- بنية اسم الفاعل في إحدى اللهجات العامية في مصر .
- ٢٩- استخدام [أم] و [بل] و [أو] في القرآن الكريم .
- ٣٠- صيغ القَسَم في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي .
- ٣١- دراسة إحدى المجموعات الدلالية الآتية ، من خلال استخدام العرب إياها في العصر الجاهلي: مجموعة من الألفاظ الدالة على الألوان / أو الدالة على الأطعمة/ أو الدالة على الأيام والليالي/ أو الدالة على معنى الغضب وضده/ أو الحكمة وضدها .

[د] موضوعات تقوم دراستها على المنهج التاريخي :

- ٣٢- تطور استخدام الضاد والقاف والطاء في الفصحى عبر العصور.
- ٣٣- التغييرات التي طرأت على معاني الكلمات الآتية في تاريخ العربية الفصحى: الريشة ، السيارة، القطار، الحاجب ، الشرف، المجد .
- ٣٤- ظاهرة انحدار المعنى في تاريخ الكلمات العربية وتفسيرها .

[هـ] موضوعات تعتمد دراستها على المنهج المقارن :

- ٣٥- ظاهرة " الإمالة " بين الفصيحة والعامية .
- ٣٦- دراسة إحدى مجموعات الألفاظ الآتية من خلال اللغات السامية : الألفاظ الدالة على القبيلة وفروعها/ أو الدالة على عبادة الكواكب في الجاهلية/ أو الدالة على الألوان .
- ٣٧- جمع التكسير في اللغات السامية .

كيفية صنع البحث اللغوي

[و] موضوعات تعتمد دراستها على المنهج التقابلي :

- ٣٨- دراسة أزمان " الفعل " في العربية واللغات الأوربية الحديثة .
- ٣٩- الصعوبات التي يواجهها أبناء العراق في تعلّم الفرق بين الضاد والظاء وطريقة التغلب عليها .
- ٤٠- الموازنة بين نظام ترتيب الجملة في العربية والألمانية .
- ٤١- استخدام أفعال التفضيل في العربية وما يقابله في الإنجليزية .

نماذج أخرى من موضوعات لغوية :

[١] حول توثيق نص لغوي :

من كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، تأليف جلال الدين السيوطي، الجزء الأول [ط الموسوعات بالقاهرة] .

توثيق الفصل الذي عنوانه " ذكر من كان بمصر من أئمة النحو واللغة ١-٢٥٤ - ٢٥٨] ، حيث ترجم السيوطي لما يقرب من ستة وعشرين إماماً من أئمة النحو واللغة .

[٢] حول شخصية لغوية :

دراسة أحد أئمة النحو واللغة ممن ذكرهم السيوطي في حسن المحاضرة ج ١ .

[٣] حول ظاهرة أو قضية أو ملاحظة مشتركة أو عامة :

- ١- العلاقة بين اللهجات العربية الحديثة واللغة الفصحى .
- ٢- مسائل الخلاف بين النحاة البصريين والكوفيين في ضوء الدراسة المقارنة .
- ٣- الأسس الجمالية في بناء اللغة العربية .
- ٤- مجالس اللغويين في بغداد في القرن الرابع الهجري .

الفصل الخامس

- ٥- رحلة اللغة العربية إلى أوربة في العصور الوسطى وأثرها في الثقافة الأوربية.
- ٦- مراكز الدرس اللغوي في صعيد مصر في القرن السابع الهجري .
- ٧- التصحيف في مدونات القدماء وروايتهم حتى منتصف القرن الرابع الهجري من خلال ما كتبه حمزة الأصفهاني في كتابه " التنبيه على حدوث التصحيف".
- ٨- الفرق بين منهج القراء ومنهج النحاة في دراسة الظاهرة اللغوية .
- ٩- العربية وصلتها بتراتها الشعبي .
- ١٠- يقال إن ميزان العلاقة بين الخبر اللغوي وتجوينه قد تغير مع الزمن تغيراً كبيراً . ناقش .

[٤] حول الصوتيات ووظائفها في الكلام :

- ١١- المجانسة الصوتية من عوامل التغير الصوتي في بناء اللغة .
- ١٢- النبر الصوتي وأنواعه عند اللغويين المحدثين .
- ١٣- استيحاء الدلالة الصوتية وأثره في بناء الكلمة العربية .
- ١٤- التخالف الصوتي وأثاره في العربية .
- ١٥- ظواهر صوتية لا تظهر في الخط ولكنها ذات تأثير محسوس على مقاطع الصيغ والتراكيب .
- ١٦- تطور نطق الضاد في العربية .
- ١٧- يقال إن الخليل بن أحمد مؤسس علم الصوتيات في لغة العربية . ناقش .
- ١٨- يقال إن العربية قد عرفت واستخدمت الصوت المزدوج . فما رأيك ؟
- ١٩- تبادل الفاء والثاء في كثير من الألفاظ العربية يعبر عن لهجتين مختلفتين.

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

[٥] حول الصيغ أو الأبنية [الصرف] :

- ٢٠- صيغ التصغير في شعر المتنبي .
- ٢١- أصل المشتقات عند البصريين هو المصدر وعند الكوفيين هو الفعل، ناقش هذين القولين .
- ٢٢- يقال إن عملية التوازن الصرفي للصيغ تمت بالتدرج على مراحل في تطور اللغة . ناقش هذا القول .
- ٢٣- تحليل للأسماء الميمية في العربية التي تلتصق بها ميم زائدة سابقة أو لاحقة.
- ٢٤- تحليل للأسماء التي تلتحق بها الألف والنون في العربية .
- ٢٥- تحليل للصيغ التي تلتحق بها تاء في العربية .
- ٢٦- تحليل للصيغ الخماسية من الأسماء والأفعال في العربية .
- ٢٧- صيغة [فعال] وما طرأ على مدلولها من تطور في خلال العصور .
- ٢٨- وسائل اللغة في تنمية الصيغ على مر الزمن .
- ٢٩- العلاقة بين معاني فعل فعال وفعل .
- ٣٠- اسم الجمع واسم الجنس الجمعي واسم المعنى: صيغها وخصائصها المشتركة.
- ٣١- صلة هذه الأسماء بجموع التكسير في العربية .
- ٣٢- الألفاظ الدخيلة التي استعملتها العرب في كلامها هل تعطي حكم كلامها :
فتشئق ويشئق منها ؟

[٦] حول التركيب النحوي :

- ٣٣- مواضع الحصر والاستثناء في سورة سبأ ، مع تحليلها من الناحية النحوية.
- ٣٤- التغير في تركيب الجملة .
- ٣٥- الحال النحوية في أدب عبد الحميد الكاتب .

الفصل الخامس

- ٣٦- التركيب النحوي في الأمثال الجاهلية .
- ٣٧- تراكيب الإغراء والتحذير والاختصاص في شعر الخوارج في العصر الإسلامي.
- ٣٨- المقياس الصوابي عند النحاة : قيمته العلمية والتعليمية .
- ٣٩- وظيفة الضمة في بناء اللفظ والتركيب العربي .
- ٤٠- أي واستعمالها في القرآن الكريم .
- ٤١- [أن - أم - ما] واستعمالها في سورة النجم .
- ٤٢- الجمل الشرطية التي استخدمها ابن المقفع في كتاب كيلة ودمنة .

[٧] حول المعجميات والدلالة اللغوية :

- ٤٣- الفرق بين المادة اللغوية والأسرة اللغوية من وجهة نظر الباحث في الدلالة المعجمية .
- ٤٤- دراسة نقدية لأحد المعاجم الأبجدية القديمة .
- ٤٥- معجم لأدوات الغناء والموسيقى عند عرب الجاهلية .
- ٤٦- تطور التأليف المعجمي إلى نهاية القرن الثالث الهجري .
- ٤٧- دراسة لمقدمة معجم العين للخليل بن أحمد .
- ٤٨- دلالة الألفاظ [الإنس - الإنسان - البشر] في القرآن الكريم .
- ٤٩- كيف نفسر كثرة الألفاظ العربية الدالة على الأشياء والأحداث الرهيبة والمشنومة والمستنبحة .
- ٥٠- يقال إن الكلمات الملتبسة الدلالة كثيراً ما أدت إلى مشكلات اجتماعية .
- ٥١- أثر الخرافة في تطور دلالة اللفظين وتاريخهما الاشتقاقي : القمر - الغول.

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

- ٥٢- دراسة نص ابن فارس الذي نقله الزركشي في البرهان في علوم القرآن ص ١٠٥ - ١١٠ ، وهو خاص بالدلالة اللغوية في القرآن الكريم .
 - ٥٣- دراسة لمقدمة أبي حاتم لمحمد بن حمدان الرازي لكتاب الزينة في الكلمات الإسلامية .
 - ٥٤- يكون المضيّمون النفسي والاجتماعي وراء تسمية المسمى بعلم اسماً كان أو كنية أو لقباً .
 - ٥٥- تطور دلالة " الأمة " في العربية .
 - ٥٦- تطور دلالة العلم في اللغة والاصطلاح .
 - ٥٧- العلاقة بين أسرتي [ب ر ع] ، [ر ب ع] في العربية في ضوء الدراسة المقارنة .
 - ٥٨- تطور معاني كل من الألفاظ : المجد - الشرف - الحقيقة .
 - ٥٩- دلالة العدد سبعة ومشتقاته في القرآن والحديث .
 - ٦٠- الدلالة المشتركة بين الألفاظ الدالة على الرئاسة. عند قدماء العرب والساميين.
 - ٦١- العلاقة بين معاني الألفاظ الدالة على القوم والقبيلة والشعب عند قدماء العرب.
 - ٦٢- تطور معاني الألفاظ الدالة على الحب في العربية .
 - ٦٣- أثر الإسلام في تطور دلالة كل من الألفاظ : الصوم - الحج - الزكاة .
 - ٦٤- أثر التكنولوجيا الحديثة في تطور دلالة الألفاظ : القطار - السيارة - البريد.
- وإليك مجموعة أخرى من البحوث الحديثة التي تشمل النحو والصرف والعروض والدراسات الميدانية ، وبعض الأبواب التعليمية التي يمكن أن تتسج من كل واحد منها ليس أقل من ستة أو عشرة موضوعات :
- [١] المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر .

الفصل الخامس

- [٢] العربية والوظائف النحوية ، دراسة فى اتساع النظام والأساليب .
- [٣] منهج السيوطى النحوى ، دراسة فى المقاطع .
- [٤] العربية والتطبيقات العروضية .
- [٥] القيمة الوظيفية للصوائت ، دراسة لغوية مقارنة .
- [٦] النحو والفكر والإبداع ، دراسة فى تفكيك النص وتوثيقه .
- [٧] العربية والفكر النحوى ، دراسة فى تكامل العناصر وشمول النظرية .
- [٨] لسان عربى ونظام نحوى .
- [٩] من أصول التحويل فى نحو العربية .
- [١٠] المنظومة النحوية دراسة تحليلية .
- [١١] وظيفة الناء فى النظم والرسم والبناء .
- [١٢] النظم والمجتمع ، دراسة فى اللغة والقواعد والأوزان .
- [١٣] فى التحليل العروضى لأبنية اللغة وتراكيبها .
- [١٤] التوليد العروضى ، بحث فى قدرة العربية وكفاءة الأوزان .
- [١٥] القيمة الحضارية للعقلية العربية فى قوانين التوليد العروضى .
- [١٦] اللحن والإيقاع ، دراسة فى تطور لغة الشعر وموسيقاه .
- [١٧] متانة النسيج وجمال التركيب ، بحث فى قيمة الأسلوب الشعرى .
- [١٨] عناصر الإيقاع اللغوية ، المظاهر والوظائف والمستويات .
- [١٩] دراسة متقدمة فى علم العروض .
- [٢٠] دور أنظمة التحليل اللغوى فى درس عروض العربية المعاصر وإيقاعها .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

- [٢١] المدخل إلى علم الصرف على ضوء دراسة اللغة والنحو - الجزء الأول
(متطلبات التحليل في النظام الصرفي) .
- [٢٢] خصائص الأفعال وما شابهها من الأسماء .
- [٢٣] الفصائل الصرفية ، النسب والتصغير وتوكيد الفعل والعدد .
- [٢٤] الاشتقاق والمشتقات .
- [٢٥] الإعلال والأسماء المعثلة .
- [٢٦] الإبدال والقلب المكانى وفصيلة الجنس .
- [٢٧] علاقة خصائص الأفعال بتصنيف المصادر وتقاسيمها .
- [٢٨] الانحرافات الصوتية والتركيبية والدلالية في اللهجة السكندرية ، دراسة
مبدئية في استعمالات أهل كرموز لتركيب النداء .
- [٢٩] التغيير اللغوي وعلاقته بما تقدمه وسائل الإعلام من برامج ثقافية
 واجتماعية .
- [٣٠] علاقة درجة الشبوع ونشاط الوحدات اللغوية بالتلوث السمعي .
- [٣١] معجم ممدوح الألسنى للحقول السياقية والمقامية دراسة تداولية .
- [٣٢] دور الحركة في عين الفعل الثلاثي المجرد وتصرفه .
- [٣٣] كتب "فعلت وأفعلت" بين نظامي المعجم ونحو الجملة (الزجاج نموذجاً) .
- [٣٤] علاقة الفعل الثلاثي بزوائده في ضوء علم الصيغ الوظائفى بحث في
النموذج التركيبى والدلالى .
- [٣٥] اسم الفعل في نحو العربية دراسة في الخصائص والمصطلح .
- [٣٦] دور حرف الجر في تحويل التركيب وأثره في نقل الوظيفة النحوية.

الفصل الخامس

- [٣٧] فى التحليل النحوى وخصائص العربية .
- [٣٨] الإعلال ومظاهره فى استعمالات العربية .
- [٣٩] التعريب والتتكير فى العربية .
- [٤٠] الدرس النحوى بين رصد الظواهر وتعدد المصطلح " الإضافة نموذجاً " .
- [٤١] العلاقة بين ظاهرتى النصب والجر فى الدرس النحوى والاستعمال .
- [٤٢] التحليل الصرفى للعربية فى إطار منهجى البحث التقابلى والتقارنى .
- [٤٣] الاتجاهات الحديثة فى علم اللغة " اتجاه التحليل الصرفى ووحداته " .
- [٤٤] رتبة النظام الصرفى ومعايير تحليله .
- [٤٥] الجمل والتراكيب والأساليب " دراسة فى نحو العربية الجمالى " .
- [٤٦] الإضافة بين البنيتين النحوية والمنطقية وحذف عناصر المركب نموذجاً .
- [٤٧] نظرية البدائل فى إطار أساليب العربية وقواعدها .
- [٤٨] الجمل الاسمية غير المقيدة .
- [٤٩] الأسنية والتحليل الوظيفى .
- [٥٠] من خصائص الكلمة إلى نحو الجملة .
- [٥١] الفونولوجيا والمعنى والوظيفة ، عرض ونقد وتحليل .
- [٥٢] الظواهر التركيبية بين نحو الجملة ونحو النص .
- [٥٣] مستويات التحليل اللغوى والمعنى والوظيفة .
- [٥٤] الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الفعلية .
- [٥٥] الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الحرفية .

❖ كيفية صنع البحث اللغوي

- [٥٦] الجملة الاسمية المقيدة بأفعال القلوب .
- [٥٧] التحليل الوظيفي للتركيب .
- [٥٨] نحو العربية ومدارس تحليل الأسنى الحديث .
- [٥٩] النحو العربي مدارسه وبيئاته العلمية .
- [٦٠] قضايا النحو التقابلية ، المصطلحات والتعريفات والنصوص .
- [٦١] النصوص النحوية ، ترجمة وتعليق .
- [٦٢] الجملة الفعلية ، مكوناتها وقضاياها .
- [٦٣] فضلات الجملة الفعلية [المفاعيل] .
- [٦٤] مكملات الجملة الفعلية مسائل تركيبية .
- [٦٥] شعر عمر بن أبي ربيعة دراسة أسلوبية .
- [٦٦] الفضائل الصرفية الأفعال والجنس والعدد .
- [٦٧] التراكيب النحوية نظامها وخصائصها في شعر سقط الزند دراسة في تحليل الخطاب وعلم النص .
- [٦٨] الإعراب والمدخل النحوي لتحليل النصوص .
- [٦٩] التحليل اللغوي مستوياته ومناهجه ووحداته .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١- أبو حامد الغزالي: معيار العلم في فن المنطق، المطبعة العربية بمصر، ط ٢ ، ١٩٢٧م .
- ٢- أبو عثمان المازني : المنصف .
- ٣- د. أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ ، القاهرة .
- ٤- د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب ١٩٧٦م .
- ٥- آلان شالمرز : نظريات العلم، ترجمة الحسين سبحان، وفؤاد الصفا، دار توبقال، للدار البيضاء ١٩٩١م .
- ٦- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٩٥٢م .
- ٧- ابن جني في التصريف ، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط ١، ١٩٥٤م .
- ٨- ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام، بعناية أحمد شاكر، مكتبة الخانجي .
- ٩- ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، القاهرة ١٩٤٧م .
- ١٠- ابن فارس: الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق السيد صقر، المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨هـ .
- ١١- ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة ، تحقيق د/ شوقي ضيف ، ط ١ ، دار الفكر العربي ١٩٤٧م .
- ١٢- ابن هشام: شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٦٠م .
- ١٣- تراث الإسلام : ترجمة د/ حسين مؤنس، د/ إحسان العمد، عالم المعرفة ، نوفمبر ١٩٧٨م .

المصادر والمراجع

- ١٤- د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية، الأنجلو المصرية ١٩٥٥ م .
- ١٥- _____ : الأصول ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .
- ١٦- _____ : اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .
- ١٧- _____ : مناهج البحث في اللغة ، ط الرباط .
- ١٨- التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق د/ لطفي عبد البديع، ط ١٩٦٣ م .
- ١٩- د.توفيق الطويل : موقف العرب من العلم، سلسلة الثقافة الإسلامية .
- ٢٠- ج. فندريس: اللغة، تعريف عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة ١٩٥٠ م .
- ٢١- الجرجاني : التعريفات، تحقيق إبراهيم الإياري ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ ، دار الكتاب العربي .
- ٢٢- جون سيرل: تشومسكي والثورة اللغوية، الفكر العربي .
- ٢٣- د. حمزة الدمرداش زغلول : في المكتبة العربية، ١٩٨٠ م ، دار الطباعة المحمدية .
- ٢٤- د/ جميل حبيب : المنطق، ط بيروت ١٩٦٧ م .
- ٢٥- د/ عبد المجيد عابدين : مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق النصوص، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم، ١٩٨٣ م .
- ٢٦- دين كيث سايمنتن: العبقرية والإبداع والقيادة، ترجمة د/ شكري عبد الحميد، مراجعة محمد عصفور، عالم المعرفة، أغسطس ١٩٩٣ م .
- ٢٧- د. رشيد الشرنوبلي: مبادئ العربية، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، ط ١٠ .
- ٢٨- د. زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مكتبة مصر بالفجالة ١٩٧٦ م .

المصادر والمراجع

- ٢٩- د. زكي نجيب محمود : المنطق الوضعي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٤ ، ١٩٦٦م .
- ٣٠- مسيبويه : الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦م / ١٩٧٧م ..
- ٣١- السيوطي : الاقتراح ، ط٢ ، حيدر آباد ، ١٣٥٩ هـ .
- ٣٢- _____ : المزهر ، ط٣ ، دار إحياء الكتب العربية .
- ٣٣- د. شوقي ضيف : البحث الأدبي : طبيعته، مناهجه، دار المعارف ١٩٧٢م .
- ٣٤- _____ : المدارس النحوية، دار المعارف ، ط٣، ١٩٧٦م .
- ٣٥- د. صلاح فضل : علم الأسلوب، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٨٨م.
- ٣٦- د. عبد الرحمن أيوب : دراسات نقدية في النحو العربي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م .
- ٣٧- عبد الرحمن الحاج صالح : اللسانيات ١٩٧١م .
- ٣٨- د. عبد الرحمن بدوي : المنطق الصوري والرياضي، دار النهضة المصرية، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧م .
- ٣٩- _____ : مناهج البحث العلمي، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣م ، ط ١٩٦٨م .
- ٤٠- د. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، ط بيروت ١٩٧٤م .
- ٤١- د. على حواد الطاهر : منهج البحث الأدبي ، ط٧ ، مطبعة الديواني ببغداد ١٩٨٦م .
- ٤٢- علي عبد المعطي ، د/ السرياقوسي : كتاب أساليب البحث العلمي ، مكتبة الفلاح ، دولة الكويت .
- ٤٣- د. علي عبد الواحد وافي: علم اللغة، القاهرة .

المصادر والمراجع

- ٤٤- ف.هايزنبرج : المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ، ترجمة د/ أحمد مستجير ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .
- ٤٥- د. فؤاد زكريا : التفكير العلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م .
- ٤٦- _____ : التفكير العلمي، عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨م .
- ٤٧- الفارابي : إحصاء العلوم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م .
- ٤٨- فاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٥م .
- ٤٩- د. فاطمة محجوب : دراسات في علم اللغة، ط القاهرة ١٩٧٦م .
- ٥٠- كوستاز لويس : قاموس سرياني / عربي، ط الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٣م .
- ٥١- د. محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة، ط بيروت، ١٩٦٦م .
- ٥٢- د. محمد أحمد الغمراوي : الإسلام في عصر العلم والمدنية، ط دار الإنسان، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .
- ٥٣- _____ : بين الدين والعلم ، القاهرة .
- ٥٤- محمد السرياقوسي : التعريف بمناهج العلم ، ط القاهرة .
- ٥٥- محمد المبارك: فقه اللغة، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٧٧هـ - ١٣٧٩هـ / ١٩٥٨م - ١٩٦٠م .
- ٥٦- د. محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة " مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي " ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، القاهرة .
- ٥٧- د. محمد سعد : الموجز في البحث اللغوي ، ١٤١٤هـ .
- ٥٨- د. محمد عيد : في أصول النحو العربي، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٣م .
- ٥٩- محمد فرج عيد : مستوى الصواب والخطأ، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم ، القاهرة .

المصادر والمراجع

- ٦٠- د. محمود السمران : علم اللغة [مقدمة للقارئ العربي] ، ط الإسكندرية ١٩٦٤ م .
- ٦١- د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث واللغات السامية ، ط الكويت ١٩٧٣ م .
- ٦٢- د. محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث، الأنجلو المصرية، القاهرة ط ٢، ١٩٥٣ م .
- ٦٣- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩ م .
- ٦٤- د. ممدوح عبد الرحمن الرمالي: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، ط دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٤ م .
- ٦٥- الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء السوفييتيين، إشراف م. روزنتال، ب. بيودين، ترجمة سمير كرم، ط ٥ ، بيروت، دار الطليعة .
- ٦٦- هنري فليش : العربية الفصحى ، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين، الكاثوليكية، بيروت .
- ٦٧- و.أ.ب. بفردج: فن البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد، ط القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٦٨- د. يحيى محمود علي الجندي: أضواء على بعض أعلام اللغة وقضاياها، القاهرة ١٩٨١ م .
- ٦٩- د. يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٥ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

- 70-Hjelmslev [Louis] : prolegomenes a une theorie du langage, traduit du danois par un a conger avec La collaboration d'Annick, wewer, les editions de Minuit. 1971 .
- 71-R.H.Robins : Breve histoire de La Linguistique de platon a chomsky, traduit de l'anglais par Maurice Borel, Editions du seuil-paris 1975.
- 72-Ruwet Nicol'as : introduction La grammaire generative plon paris .
- 73-Halliday, Mc Intoch and strevents, the Linguistic, sciences and Language teaching, ELBS edition, London 1975 .
- 74-Crystal Linguistics, penguin Books, 1968 .
- 75-Linguistic sciences and Language teaching .
- 76-J.Conant, Science and common sense, yale University press, New Haven, 1961 .
- 77-R.R.K. Hartmann and F.C.stork: Dictionary of Language and Linguistics, London, 1973 .
- 78-Dinnaen : An introduction to general linguistics .
- 79-D'crystal : Linguistics, penguin Books, London, 1974 .
- 80-Jiri, Kramsky, the word as a linguistic unit Mouton, the Hague, Paris , 1969 .
- 81-M.walker, the Nature of scientific thought, preface, Hall Jersey .

المصادر والمراجع

- 82-H.Becker, through values to social interpretation, Duke university press, Durham, 1950 .
- 83-N.chomsky : topics in the theory of Generative Grammar, Mouton, the Hague-Paris 1969 in current in Ling Uistics, vol.
- 84-V.N.Misra : the Descriptive technique in panini, Mouton, the Hague-Paris 1966 .
- 85-N.chomsky : Aspects of the theory of syntax p.v. the M.I.T press, 1965 .
- 86-Chomsky, Essays or from and interpretation North Holl and 1977 .
- 87-George Mounin La semantique, Paris, col clef, 2 meed, 1975 .
- 88-Block and trager : outline of linguistic Analysis .
- 89-J.vendryes : Le language paris, 1923 .
- 90-F.P.Dinneen, An introduction to general lingustics, Holt, Rinehar and winston, New York, 1971 .
- 91-Firth, personality and language, in society social ogical Review, vol, 11, sect, two, 1950 .

الفهرست

الفهرست

رقم الصفحة	الموضوع
٣	إهداء .
٣١-٤	الفصل الأول : المنهج .
١٣	المنهج والنظرية والتجريب .
٧٠-٣٢	الفصل الثاني : مقومات البحث العلمي .
٣٥	مفهوم البحث من الناحية الاصطلاحية .
٤٤	العلم : المنهج، المحتوى اللغوي والمعرفي .
٢٠٦-٧١	الفصل الثالث : ثوابت المنهج وعناصره .
٧٢	سمات التفكير العلمي .
٧٢	العلمية .
٧٩	الوضوح .
٨٢	الموضوعية .
٨٣	تراكمية العلم وتنظيم المادة .
٨٥	الدقة والتجريد .
٨٧	النتبؤ والتحكم .
٨٨	الملاحظة والتجريب .
٩٣	الفرضية .
١٠٠	التحليل .
١٠٢	الاستقراء .

الفهرست

١٤٥-١٠٧	الفصل الرابع : البحث اللغوي .
١٢٤	المعارف اللغوية وظواهر اللغة .
٢٠٨- ١٤٦	الفصل الخامس : كيفية صنع البحث اللغوي ومراحل إعداده .
١٤٦	أولاً : الاستعداد .
١٤٦	[١] اختيار عنوان الموضوع .
١٥١	[٢] الدراسات السابقة .
١٥٥	[٣] الاستقصاء والتحليل .
١٥٨	ثانياً : الإعداد [الخطوات والمراحل] .
١٥٩	التعامل مع المعلومات .
١٦٠	كتابة البحث .
١٦٢	المصادر والمراجع .
١٦٢	جمع المادة وكتابة البحث .
١٦٤	الخطة .
١٦٥	تماسك البحث وترابط أجزائه .
١٧٣	التصنيف .
١٧٥	عرض المعلومات والبيانات .
١٧٧	تحليل الخطاب ولغة النص .
١٩١	ثالثاً : طرق إنشاء البحث اللغوي ونظرية تنمية الموضوعات وتوليدها .
١٩٤	رابعاً : موضوعات يتلرب عليها الباحث .
١٩٤	[أ] موضوعات لتوثيق النصوص والتعريف بمؤلفيها وآثارهم اللغوية .

الفهرست

١٩٨	[ب] موضوعات لدراسة مناهج اللغويين القدماء في تأليف كتبهم.
١٩٨	[ج] موضوعات تقوم دراستها على المنهج الوصفي الحديث .
١٩٩	[د] موضوعات تقوم دراستها على المنهج التاريخي .
١٩٩	[هـ] موضوعات تعتمد دراستها على المنهج المقارن .
٢٠٠	[و] موضوعات تعتمد دراستها على المنهج التقابلي .
٢٠٠	نماذج أخرى من موضوعات لغوية .
٢٠٠	[١] حول توثيق نص لغوي .
٢٠٠	[٢] حول شخصية لغوية .
٢٠٠	[٣] حول ظاهرة أو قضية أو ملاحظة مشتركة أو عامة .
٢٠١	[٤] حول الصوتيات ووظائفها في الكلام .
٢٠٢	[٥] حول الصيغ أو الأبنية [الصرف] .
٢٠٢	[٦] حول التركيب النحوي .
٢٠٣	[٧] حول المعجمات والدلالة اللغوية .
٢١٨-٢٠٩	المصادر والمراجع

كتب للمؤلف

- [١] المؤثرات الإيقاعية فى لغة الشعر .
 - [٢] العربية والوظائف النحوية ، دراسة فى اتساع النظام والأساليب .
 - [٣] منهج السيوطى النحوى ، دراسة فى المقاطع .
 - [٤] العربية والتطبيقات العروضية .
 - [٥] القيمة الوظيفية للصوائت ، دراسة لغوية مقارنة .
 - [٦] النحو والفكر والإبداع ، دراسة فى تفكيك النص وتوثيقه .
 - [٧] العربية والفكر النحوى ، دراسة فى تكامل العناصر وشمول النظرية .
 - [٨] لسان عربى ونظام نحوى .
 - [٩] من أصول التحويل فى نحو العربية .
 - [١٠] المنظومة النحوية دراسة تحليلية .
 - [١١] وظيفة التاء فى النظم والرسم والبناء .
 - [١٢] النظم والمجتمع ، دراسة فى اللغة والقواعد والأوزان .
 - [١٣] فى التحليل العروضى لأبنية اللغة وتراكيبها .
 - [١٤] التوليد العروضى ، بحث فى قدرة العربية وكفاءة الأوزان .
 - [١٥] القيمة الحضارية للعقلية العربية فى قوانين التوليد العروضى .
 - [١٦] اللحن والإيقاع ، دراسة فى تطور لغة الشعر وموسيقاه .
 - [١٧] متانة النسج وجمال التركيب ، بحث فى قيمة الأسلوب الشعرى .
-

-
- [١٨] عناصر الإيقاع اللغوية ، المظاهر والوظائف والمستويات .
- [١٩] دراسة متقدمة فى علم العروض .
- [٢٠] دور أنظمة التحليل اللغوى فى درس عروض العربية المعاصر وإيقاعها .
- [٢١] المدخل إلى علم الصرف على ضوء دراسة اللغة والنحو - الجزء الأول (متطلبات التحليل فى النظام الصرفى) .
- [٢٢] خصائص الأفعال وما شابهها من الأسماء .
- [٢٣] الفصائل الصرفية ، النسب والتصغير وتوكيد الفعل والعدد .
- [٢٤] الاشتقاق والمشتقات .
- [٢٥] الإعلال والأسماء المعتلة .
- [٢٦] الإبدال والقلب المكانى وفصيحة الجنس .
- [٢٧] علاقة خصائص الأفعال بتصنيف المصادر وتقسيمها .
- [٢٨] الانحرافات الصوتية والتركيبية والدلالية فى اللهجة السكندرية ، دراسة مبدئية فى استعمالات أهل كرموز لتركيب النداء .
- [٢٩] التغير اللغوى وعلاقته بما تقدمه وسائل الإعلام من برامج ثقافية واجتماعية .
- [٣٠] علاقة درجة الشيوخ ونشاط الوحدات اللغوية بالتلوث السمعى .
- [٣١] معجم ممدوح الألسنى للحقول السياقية والمقامية دراسة تداولية .
- [٣٢] دور الحركة فى عين الفعل الثلاثى المجرد وتصرفه .
- [٣٣] كتب "فعلت وأفعلت" بين نظامى المعجم ونحو الجملة (الزجاج نموذجاً) .
- [٣٤] علاقة الفعل الثلاثى بزوائده فى ضوء علم الصيغ الوظائفى بحث فى النموذج التركيبى والدلالى .
-

-
- [٣٥] اسم الفعل فى نحو العربية دراسة فى الخصائص والمصطلح .
- [٣٦] دور حرف الجر فى تحويل التركيب وأثره فى نقل الوظيفة النحوية.
- [٣٧] فى التحليل النحوى وخصائص العربية .
- [٣٨] الإعلال ومظاهره فى استعمالات العربية .
- [٣٩] التعريب والتتكير فى العربية .
- [٤٠] الدرس النحوى بين رصد الظواهر وتعدد المصطلح " الإضافة نموذجاً " .
- [٤١] العلاقة بين ظاهرتى النصب والجر فى الدرس النحوى والاستعمال .
- [٤٢] التحليل الصرفى للعربية فى إطار منهجى البحث التقابلى والتقارنى .
- [٤٣] الاتجاهات الحديثة فى علم اللغة " اتجاه التحليل الصرفى ووحداته " .
- [٤٤] رتبة النظام الصرفى ومعايير تحليله .
- [٤٥] الجمل والتراكيب والأساليب " دراسة فى نحو العربية الجمالى " .
- [٤٦] الإضافة بين البنيتين النحوية والمنطقية وحذف عناصر المركب نموذجاً .
- [٤٧] نظرية البدائل فى إطار أساليب العربية وقواعدها .
- [٤٨] الجمل الاسمية غير المقيدة .
- [٤٩] الأسنية والتحليل الوظيفى .
- [٥٠] من خصائص الكلمة إلى نحو الجملة .
- [٥١] الفونولوجيا والمعنى والوظيفة ، عرض ونقد وتحليل .
- [٥٢] الظواهر التركيبية بين نحو الجملة ونحو النص .
- [٥٣] مستويات التحليل اللغوى والمعنى والوظيفة .
-

-
- [٥٤] الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الفعلية .
- [٥٥] الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الحرفية .
- [٥٦] الجملة الاسمية المقيدة بأفعال القلوب .
- [٥٧] التحليل الوظيفي للتركيب .
- [٥٨] نحو العربية ومدارس تحليل الأسنى الحديث .
- [٥٩] النحو العربي مدارس وبيئاته العلمية .
- [٦٠] قضايا النحو التقابلية ، المصطلحات والتعريفات والنصوص .
- [٦١] النصوص النحوية ، ترجمة وتعليق .
- [٦٢] الجملة الفعلية ، مكوناتها وقضاياها .
- [٦٣] فضلات الجملة الفعلية [المفاعيل] .
- [٦٤] مكملات الجملة الفعلية مسائل تركيبية .
- [٦٥] شعر عمر بن أبي ربيعة دراسة أسلوبية .
- [٦٦] الفضائل الصرفية الأفعال والجنس والعدد .
- [٦٧] التركيب النحوية نظامها وخصائصها في شعر سقط الزند دراسة في تحليل الخطاب وعلم النص .
- [٦٨] الإعراب والمدخل النحوي لتحليل النصوص .
- [٦٩] التحليل اللغوي مستوياته ومناهجه ووحداته .
-